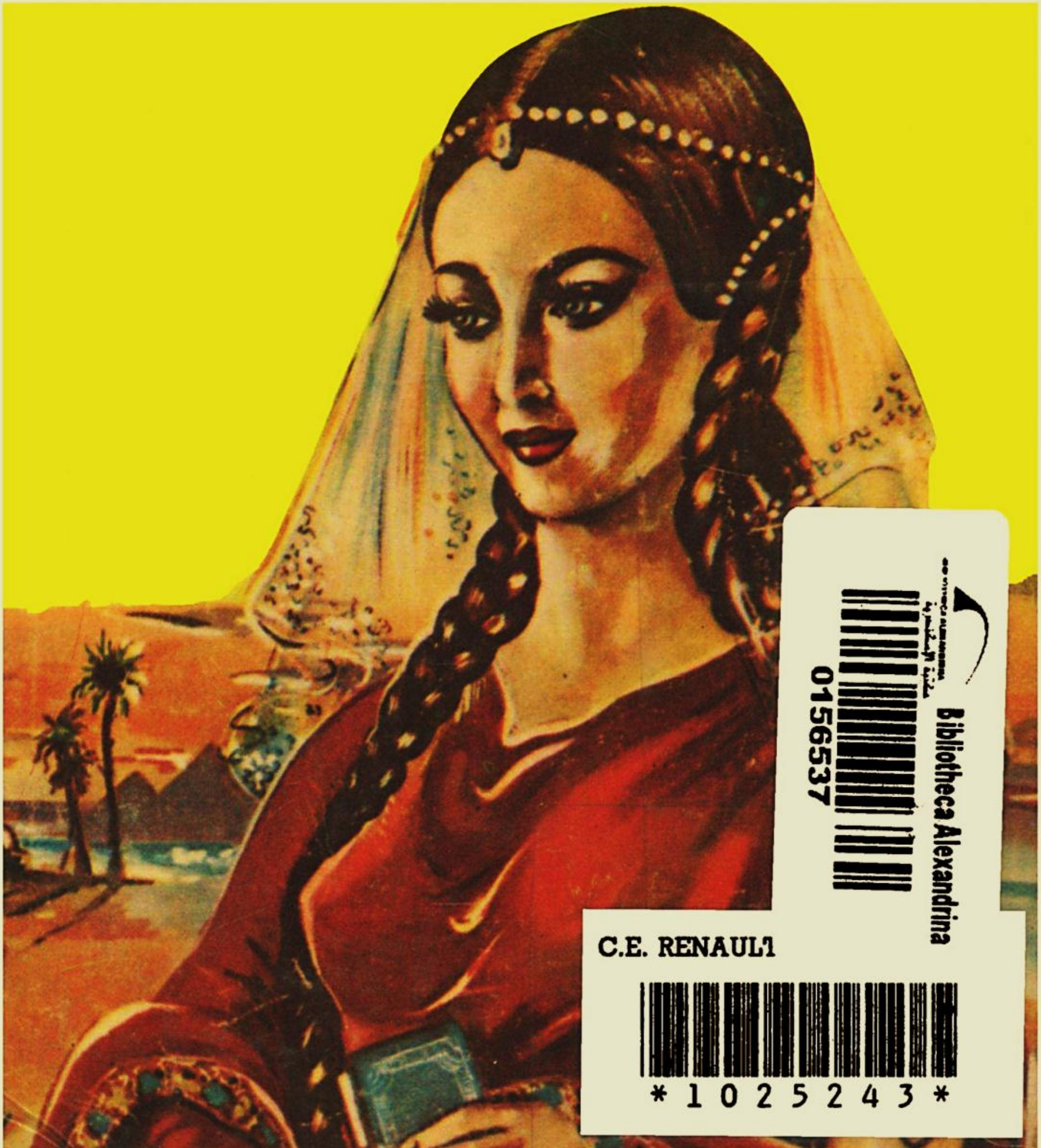
روايات تاريخ الإسلام

أرمانوسة المصرية

جرجي زيدان



أرمانوسة المصرية

فيها تفاصيل فتح مصر والاسكندرية على يد عمرو بن العاص
في صدر الاسلام (٦٤٠ م) مع بسط حال العرب وعاداتهم
واخلاقهم وازيائهم وحال الاقباط والرومان في ذلك العصر

جرجي زيدان

المكتبة الادبية - بيروت

أبطال الرواية

✲ **هرقل**	: امبراطور الرومانيين
✲ **عمرو بن العاص**	: فاتح مصر
✲ **المقوقس**	: والى مصر عندما فتحها العرب
✲ **ارمانوسة**	: ابنة المقوقس
✲ **قسطنطين**	: ابن هرقل وخاطب ارمانوسة
✲ **بربارة المصرية**	: مربية ارمانوسة
✲ **اركاديوس**	: ابن الاعيرج القائد الرومانى
✲ **ارسطوليس**	: ابن المقوقس
✲ **زياد العربى**	: صاحب يحيى النحوى
✲ **وردان**	: مولى عمرو بن العاص
✲ **عبادة بن الصامت**	: احد قواد العرب
✲ **المندفور الاعيرج**	: قائد جند الروم بمصر

مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هى التى اعتمد عليها المؤلف فى سرد حوادث الرواية

✲ الخطط للمقريزى
✲ تاريخ الطبري
✲ « مصر الحديث لجرجى زيدان
✲ « الواقدى
✲ « ابن هشام
✲ « ابن الأثير
✲ تاريخ ابن خلدون
✲ حسن المحاضرة للأسيوطى
✲ تاريخ عبد اللطيف البغدادى
✲ مؤلفات : شامبليون ، ومارسيل ، وماريت ، و ولكنسن ، وشارب
✲ العقد الفريد

فذلكة تاريخية

فتح الرومانيون وادى النيل ، واقاموا به قرونا ظهر فى اثنائها الدين المسيحى وانتشر فى العالم ، ودخل الديار المصرية فاعتنقه المصريون ، وهم الاقباط ، ثم اتخذته الدولة الرومانية دينا لها بدلا من الوثنية ، وهدمت تماثيلها

ولكن ماكادت تستقر الامور حتى حدث نزاع دينى بين كهنة القسطنطينية عاصمة المملكة الرومانية الشرقية ، وكهنة الاسكندرية عاصمة الديار المصرية ، واشتد هذا النزاع حتى تمكنت الضغائن بين الرومانيين ، وهم الفئة الحاكمة ، وبين الاقباط وهم الشعب المحكوم . وعرف المذهب الرومانى بالملكى ، والمذهب المصرى باليعقوبى . فآل ذلك الى نفور الأقباط من الرومانيين واستبدادهم ، والى رغبتهم فى التخلص من نيرهم بأية وسيلة

وكان الرومانيون يسومون المصريين سوء العذاب ، فلم تفتهم فرصة للايقاع بهم والانتقام منهم

وفى أوائل القرن السابع للميلاد ، كان يحكم مصر وال يونانى الأصل ، اسمه المقوقس حنا بن قرقت ، وقد يدعونه بأسماء اخرى ، وكان متشيعا لأهلها ومذهبهم وتقاليدهم . واقام بالاسكندرية شأن ولاة الرومانيين الى ذلك العهد ، لانها كانت عاصمة الديار المصرية ومقر الامارة فيها . ولم تكن القاهرة قد وجدت بعد ، بل كان فى مكانها بساتين وغياض يتخللها بعض الاديرة والكنائس ، وقليل من البيوت مبعثرة بين جبل المقطم والنيل . والى جنوبها بلدة صغيرة اسمها بابل ، بناها الفرس حين قدموا مصر قبل الميلاد ودعوها باسم عاصمة دولتهم . وكان موقعها فيما هو الآن ديرمارى جرجس وما جاوره من البيوت ، وجامع عمرو ، وبعض مصر القديمة

□

وكان فى وسط تلك البلدة حصن كبير يدعى حصن بابل ، او قصرالشمع،

مبنى على الطراز الرومانى ؛ هو الذى يقوم فى مكانه الآن دير مارى جرجس. وكان النيل يجرى امامه ، وتلاطم امواجه بابا كبيرا من ابوابه ، ما زال رسمه باقيا فى سوره الغربى حتى الآن ، وقد طمرت الاتربة اسفله حتى لم يعد ظاهرا منه الا عتبته العليا . الى أن أزالت الحكومة تلك الاتربة ، فظهر الباب كله . وهو قائم بين برجين كبيرين مستديرى الشكل ، فى أحدهما كنيسة المعلقة القائمة حتى الآن ولكن بناءها تهدم

□

اما مصر القديمة ـ ما بين هذا الحصن الى النيل ـ فلم يكن لها اثر البتة ، لأن النيل كان يجرى فى موضعها بجانب الحصن كما قدمنا . وكان بين هذا الحصن وجزيرة الروضة جسر من السفن ، يمر عليه الناس من البر الشرقى الى الجزيرة ، وجسر آخر من الجزيرة الى البر الغربى يمرون عليه الى الجيزة، ومنها يذهبون الى منف ـ عاصمة مصر القديمة ـ حيث كان المقوقس يقيم بعض اشهر الشتاء ، برغم أنها فى عهده كانت قد انحطت وكادت تؤول الى الخراب

ولم يكن للأقباط هم فى تلك الايام الا التخلص من الرومانيين والتحدث بفظائع أعمالهم وظلمهم واستبدادهم ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون المجاهرة بعداوتهم ، خوفا من سخطهم وزيادة الضغط عليهم

أرمانوسة بنت المقوقس

كان للمقوقس ابنة في ريعان الشباب ، جمعت بين الجمال الروماني واللطف المصري اسمها « ارمانوسة » . وقد خصها الله بلين الجانب وحسن الخلق حتى ضرب المثل بجمالها وذكائها . وكان والدها يحبها حبا جما لانه لم يكن له الا هي وابن اسمه ارسطوليس ، فأباح لها التصرف في بيته وجعل لها الأمر والنهي في خدمه وحاشيته . وكان هرقل امبراطور الرومانيين قد سمع بها فخطبها لابنه قسطنطين ، وشاع ذلك وذاع حتى تحدث به الخاص والعام وحسدها الناس عليه ،لكنها لم تكن راضية بهذا الزواج وان لم تظهر شعورها لئلا يصيبها او يصيب والدها سوء ، بل كظمت غيظها وصبرت على مضض ، حتى يأتي الله بأمر من عنده

وفي سنة ٦٤٠ للميلاد كان المقوقس مقيما بالاسكندرية على عادته ومعه حاشيته ، وكلها من المصريين والمصريات وبعض الاحباش ، وليس فيها أحد من الروم . وكانت ارمانوسة في قصره بمنف ، في البر الغربي من النيل وراء الجيزة . وكان ذلك القصر فخما عظيما اقيم بأنقاض بعض هياكل المصريين القدماء ، ويشرف على النيل ، وتحف به حديقة غناء ، فيها من اغراس الكرم والنخيل والشجر ذي الثمر والرياحين ما يبهج النظروبينما هي في قصرها ذات ليلة صافية الجو اذ أحبت الخروج للتنزه في النيل ، فكلفت خادمتها الخاصة ــ واسمها بربارة ــ ان تكلف بعض الخدم باعداد قارب تنزل فيه ، فأعدوه لها ، ونزلت وقد لبست ثوبا سماوي اللون يجر ذيله وراءها ، وضفرت شعرها من اعلاه ضفيرة واحدة باكليل صغير من الحجارة الثمينة مصنوع على شكل رأس الحية مثلما صنع قدماء المصريين ، وارخت الضفيرة على كتفيها ، والجواري محدقات بها ، وخادمتها الخاصة تحمل طرف ثوبها من ورائها لئلا يمس الارض ، ولو انه مسها لا خوف عليه لأنها مرصفة بالرخام النقي ، ولأن طرق الحديقة مرصوصة بالفسيفساء . فتجاوزت الحديقة الى بابها الشرقي ، وكان شاهقا قد نقش على عتبته العليا رسم اوزيريس باسطا جناحيه ، ومصراعاه من خشب الجميز الصلب ، وعليه من النقوش البديعة ما يشغل النظر ، وامامه من الناحيتين تمثالان كبيران لأبي الهول . وسارت بين صفين من شجر الجميز حتى اتت الشاطىء ،

فنزلت الى القارب على رصيف قديم البناء عليه نقوش هيروغليفية . وكان القارب مفروشا بالبسط المزركشة فجلست فى صدره وبين يديها جواريها ؛ وقد أرخى النوتية الشراع فسار القارب الهوينى يخترق عباب النيـل ، والجو صاف واشعة القمر تنعكس على سطح الماء وتتكسر وتتلألأ ، والى كل من جانبى النيل غياض ومغارس للنخيل والدوم ، ومن ورائها كروم العنب وغيرها ، تتخللها قرى صغيرة وأبنية فخمة معظمها من الهياكل والتماثيل ، واعظمها قصور منف تتخللها الهياكل والأصنام العظيمة ، لأن هذه المدينة برغم عوامل الحدثان كانت ما زالت أبنيتها شامخة تناطح السحاب ، وبخاصة أهرامها المعروفة الآن بأهرام سقارة

وسار القارب بأرمانوسة وجواريها بين يديها ، وقد أخذن يعزفن على الآلات ، وعلى ضفة النيل شجر البردى متكاثف يتمايل كالسكارى ؛ ولم يكن يسمع عند مسير القارب الاصوت الموسيقى يتخلله حفيف ورق البردى ونقيق الضفادع بين أغصانه ؛ وقد اختفى بين هذا وذاك صوت القارب فى اختراقه عباب الماء ، والطبيعة هادئة والنسيم لطيف ، وبربارة لا تفتر لحظة عن تسلية سيدتها بطريف حديثها وغريب قصصها . اما ارمانوسة فكانت مضطربة البال لا تبتسم الا تكلفا ، كأنها تريد نسيان ما يخامرها من الهواجس ، وتود الانشغال عنها بمناظر الطبيعة ، فلما أدركت وصيفتها ذلك جعلت تبالغ فى تسليتها تارة بالأحاديث المضحكة ، وطورا بالاطناب فى جمالها ، وقد لحظت انقباضها من قبل وحاولت استطلاع كنهه فلم تستطع

وبعد أن سار القارب مسافة ، رات أرمانوسة انها قد بعدت عن المدينـة فخافت أن يهاجم التمساح القارب فأمرت النوتية بالرجوع ، فأداروا الدفة وعادوا ، وكفت العازفات عن العزف فاستولى السكون على الجمع كأنهن شاركن الطبيعة صمتها ، وكل منهن تنظر الى ما حولها من الماء والشاطىء ؛ تتأمل ذلك المنظر وتستأنس بنقيق الضفادع ، وعلى وجوههن أمارات السرور الا ارمانوسة ، فانها ما برحت منقبضة النفس ، ثابتة النظر الى جهة من جهات الشاطىء عن بعد ، وبربارة تسارقها اللحظ وتراقب حركاتها وسكناتها ، فاذا بها قد أخرجت منديلا من جيبها مسحت به عينيها وهى تحاذر أن يراها احد ، فأمعنت بربارة النظر فى تينك العينين المكحلتين بالسواد فاذا بهما تتلألآن وقد تناثرت الدموع منهما بغتة ، فاضطرب قلبها وارادت الاستفهام منها عن السبب ، ولكنها أمسكت حتى لا تحرجها . وعولت على استطلاع الحقيقة عند عودتهن الى القصر .. على انها أخذت تتقاذفها الهواجس ، اذ لم تدرموجبا لبكاء سيدتها وقد توافرت لها كل اسباب السعادة ، وليس فى وادى النيـل فتاة احسن حالا ولا أسعد حظا منها ، فانها ابنة الحاكم الآمرة الناهية ، وكل أهل البلاد فى خدمتها ، وقد خصتها

العناية الالهية بجمال وصحة وسعة عيش حتى نالت حظوة فى عينى امبراطور الرومان فخطبها لابنه . فخافت بربارة أن يكون امرا ذا بال

▭

عاد القارب الى منف ورسا بهن الى جانب القصر ، فنهض الجميع ونزلت ارمانوسة وسارت بين شجر الجميز والخدم بالمصابيح أمامها حتى أتت باب الحديقة فوقفت لحظة مسندة يدها الى احد التمثالين ، والتفتت الى النيل كأنها لم تشبع بعد من منظره ، ثم دخلت الحديقة وتحولت الى بعض طرقها ففهمت الجوارى انها تريد التجوال بين الازهار والرياحين قبل دخول القصر ، فتحولن كل الى مخدعها الا بربارة فقد رافقت سيدتها وهى لا تزال تراقب حركاتها وسكناتها ، فراتها قد مشت فى الحديقة لا تدرى الى اين تسير ، ولا يلفتها صوت النعام السارح ببعض جوانب الحديقة ، ولا اصوات الكراكي وغيرها من الطيور هناك ، ثم تحولتا الى القصر فدخلتاه وسارتا توا الى غرفة النوم ، وكانت الجوارى قد اضأنها بالشموع والمصابيح ، وجعلن اكليلا من الزهور فى اناء على مائدة فاخرة فى وسط الغرفة مصنوعة فى سوريا ؛ من خشب الأرز ، تفوح منها رائحة زكية ، كان قد اهداها الى ابيها بعض اصدقائه الرومانيين فى صيدا

لكن أرمانوسة ما لبثت أن انسلت من الغرفة الى شرفة مطلة على الحديقة والنيل وراءها ، ورائحة الأزهار قد ملأت الجو ، وهناك كرسى مجلل بالحرير جلست عليه ، ووقفت بربارة تنتظر أمرها وتسترق النظر اليها فلاحظت انها لا زالت مضطربة ، لم تزدها تلك النزهة الا انقباضا . وبعد قليل قامت أرمانوسة الى سريرها ، ونزعت حليها بمعاونة بربارة ثم استلقت تبغى الراحة لا النوم فلبثت بربارة واقفة تهم بسؤال سيدتها عن سبب اضطرابها فيمنعها التأدب ، ثم نظرت اليها فاذا هى تتلهى بالنظر الى ما على جدران الغرفة من الصور الملونة ، وفيها رسوم الطير والحيوان ، ثم رأتها أطرقت تنظر الى أرض الغرفة كأنها تتأمل اشكال الرسوم الجميلة المطرزة على الأبسطة ، وهى تردد الزفرات وتتنهد خفية وقد أعياها الانقباض ، فلم تستطع بربارة مغالبة البكاء لفرط حبها لسيدتها وغيرتها عليها ، فجعلت تمسح عينيها حتى ادركت ارمانوسة ذلك ، وخافت افتضاح امرها فخاطبت بربارة قائلة : « ما بالك يا بربارة ، هل تبكين ؟ »

فتقدمت بربارة الى جانبها تحاول مغالطتها وقالت : « ليس هناك ياسيدتى ما يبكينى وانت بنعمة الله فى صحة تامة وعيش رغيد ، انى سعيدة ما دمت انت كذلك؟ »

قالت : « ولكنني اراك تبكين ؟ ! »

قالت : « كلا يا سيدتي ، واذا رأيت في عيني دموعا فان هي الا دموع الفرح ، اذ كل ما من الله به عليك من انعامه وبركاته انما هو مدعاة لفرحي ، الا تعلمين ان اصدقاءك يغبطونك وأعداءك يحسدونك على ما قدر الله من وقوعك موقع الاستحسان لدى مولانا الامبراطور حتى خطبك لابنه ؟ ولا ريب عندي أنك اهل له وهو اهل لك ، فان قسطنطين من أحسن الناس جاها ، وكفاه فخرا انه ابن الامبراطور هرقل ، وعما قليل يعود من حروبه مع العرب فتتم سعادتك بالاقتران به »

فتنهدت ارمانوسة تنهدا خفيا كأنها تذكرت مصائبها ، واسفت لما هي فيه من الكدر مع ما خصتها به العناية من أسباب الرفاهية ، ومالت الى مكاشفة وصيفتها بمكنونات قلبها عساها أن تفرج كربتها ، وكانت تثق بها كل الوثوق لأنها ربتها منذ نعومة أظفارها ، وقد اختبرت صداقتها واخلاصها ، ولكن الحياء غلب عليها فامسكت عن التكلم لحظة وهي شاخصة الى نافذة غرفتها المشرفة على النيل ، وقد امتلأ بضوء القمر، ولكنها ما لبثت أن اجهشت بالبكاء على غير ارادتها

فتقدمت بربارة الى جانب السرير وجثت على ركبتيها ، وامسكت يد ارمانوسة بين يديها وجعلت تقبلها تكرارا ودموعها تتساقط عليها وهي تقول : « من منا الباكية يا حبيبتي ؟ أتسالينني عن سبب بكائي وانت تبكين ؟ أستحلفك بالله أن تطلعيني على سبب اضطرابك ، فقد ضاق صدري وانا ممسكة نفسي عن الاستفهام حتى عيل صبري » . قالت ذلك ونظرت الى سيدتها فاذا بها قد اغرقت في البكاء ، وجعلت المنديل على عينيها لتخفي ذلك عليها ، فأمسكت بيدها الثانية والحت عليها وقبلت يديها ، ثم قبلتها بين عينيها وترامت على قدميها وقالت لها : « أستحلفك بحياة سيدي ابيك ان تخبريني عن سبب بكائك ولا تخفي علي شيئا ، وانت تعلمين تعلقي بك واخلاصي لك ، لعلي أستطيع تفريج كربتك . أم انت لا تثقين بي ؟ »

قالت : « انى واثقة بك كل الوثوق يا بربارة ، وانت تعلمين ذلك . ولكن ليس ثمة ما أخفيه عليك وما انا باكية ولا . . . »

فقطعت عليها الكلام قائلة : « كفى اخفاء ومغالطة ، رأيت منك هذا الانقباض منذ أيام ، وكنت اخشى أن اثقل عليك بالاستفهام ، اما الآن وقد عيل صبري وصرت أخاف عليك فلن اسكت حتى تخبريني او تطرديني من هذه الغرفة ! »

فأمسكت ارمانوسة بيدها وهمت بالجلوس قائلة : « حاش لي أن أهينك



« فتقدمت بربارة إلى جانب السرير وأمسكت يد أرمانوسة بين يديها وجعلت تواسيها »

بمثل ما تقولين ، فانك بمنزلة الأم عندى ، فقد ربيتنى منذ طفولتى ، ولكن ليس عندى ما اخبرك به ، أو لعلى اذا أطلعتك عليه تضحكين منى أو تهزئين بى ! » . فوقفت بربارة قائلة : « معاذ الله أن يصدر منى ذلك وأنت سيدتى ومصدر نعمتى ، بل أنت روحى وحياتى ، فلا تخشى بأسا من مكاشفتى بما فى قلبك ، وساكون مفرجة لكربك باذن الله . فثقى بى ، واكشفى لى عن سر هذا الاضطراب فقد نفد صبرى »

فصمتت أرمانوسة لحظة ثم وقفت ودنت من المنضدة وجعلت تتشاغل بتقليب ما كان عليها من التماثيل الصغيرة ، وفيها اشباه أبى الهول والجعلان من الذهب والفضة ، ثم عادت الى السرير مرتبكة تتلهى بتثنية منديلها بين أناملها ، وهى تنظر اليه وتحاول التكلم ويمنعها الحياء . فنهضت بربارة وقبلتها وقالت لها : « تكلمى يا حبيبتى لا تخفى على شيئا ، وانا أقسم لك بمريم العذراء صاحبة هذه الكنيسة (وأشارت الى جهة حصن بابل حيث كنيسة المعلقة) أن أحفظ سرك فى قلبى ، واكون لك عونا فى كل ما تريدين »

فنظرت ارمانوسة اليها من طرف عينها ، وهمت بالكلام فأرتج عليها ثم قالت : « انظرى هل لا يزال أحد من الخدم مستيقظا ؟ »

قالت : « لا تخافى فليس من يتجرأ على الدنو من غرفتك ، وسأذهب لأستطلع الأمر » . وخرجت والمصباح فى يدها تاركة سيدتها وحدها فى الغرفة

لبثت ارمانوسة تنتظر عودتها ، فلما رأتها ابطأت ، شغل بالها واستولى عليها القلق ، ولما ملت الانتظار نهضت من السرير ودنت من الشرفة ، واطلت على الحديقة فسمعت ضوضاء الناس عند الضفة فازداد اضطرابها ، فأصغت فاذا بأصوات رجال ، ولمحت عند الشاطئ قوارب عديدة وقد خرج منها نفر يسرعون نحو القصر ، وارادت أن تنادى أحدا تستطلع منه الخبر ، فاذا ببربارة قد عادت وعلى وجهها أمارات الدهشة ، فابتدرتها ارمانوسة قائلة : « ما سبب هذه الجلبة ، ومن هم هؤلاء الرجال يا بربارة ؟ اخبرينى »

قالت : « طيبى نفسا يا سيدتى ولا تضطربى ، فليس ثم غير الخير ان شاء الله »

قالت : « قولى ما الخبر ، وما الداعى لهذه الجلبة ؟ »

فقالت : « انها من دواعى سرورى وسرورك ، فان سيدى اباك قد بعث بجماعة من خاصته بمعدات الاحتفال ، ليذهبوا بك الى عين شمس حيث

يوافيهم ابوك لكي تسيروا جميعا الى بلبيس ، فتقيمى فى انتظار خطيبك ريثما يسير بك الى القسطنطينية »

▭

اضطربت ارمانوسة عند سماعها الخبر ، واشتد بها اليأس حتى تناثرت الدموع من عينيها وغلبها البكاء ، فازداد تعجب بربارة وهى لا تفهم لهذا البكاء سببا . فتقدمت اليها وقبلتها وضمتها الى صدرها ، وجعلت تتوسل اليها أن تخبرها بكنه الامر الى أن قالت : « لعلك شعرت بالوحشة عند ما علمت بالسفر ومفارقة أبيك ومنزلك ، الا تعلمين يا سيدتى انك ستنتقلين من قصر الى قصر أعظم منه ، ومن بيت مجد الى بيت مجد أرفع منه ؟ »

وكانت أرمانوسة تمسح دموعها بيدها فلما سمعت كلام بربارة مدت اليها يدها وقبضت على ذراعها وقالت : « لا تذكرى القصور والمنازل ، فان السعادة ليست فى الأبنية ولا فى العواصم ، ولكنها فى القلوب والعواطف . دعينى يا بربارة من هذه الأوهام وعزينى بغيرها ! »

فعجبت بربارة من هذا الكلام واستغربته ولم تفهم ما وراءه ، وقالت : « بالله يا سيدتى أفصحى عن حقيقة أمرك ، فقد أشكل على فهم الواقع ، هل تكرهين الأسفار أم . . . »

فقطعت أرمانوسة الكلام قائلة : « ليس ذلك ما يكدرنى ، ولكننى لا أريد السفر الى بلبيس ! »

قالت : « وهل تكرهينها ؟ قولى لأبيك فلا يبعث بك اليها ، ويكتب الى الامبراطور أن تنتقلى رأسا من هنا الى القسطنطينية »

فصاحت ارمانوسة : « لا . . ولا احب القسطنطينية ولا ساكنيها ولا من تسمى باسمها ، ولا احب البقاء فى الدنيا من اجلها ! »

فأدركت بربارة ان سيدتها لا تريد الاقتران بقسطنطين ، ولكنها تجاهلت وأعادت السؤال بالحاح قائلة لها : « االى هذا الحد تخفين مقاصدك على ؟ أم لعلك لا تريدين قسطنطين ؟ »

فأجابتها على الفور : « نعم لا اريده . لا أريده . لا أريده ! »

فبهتت بربارة عند سماعها ذلك وقالت : « ولماذا يا مولاتى ؟ »

فابتدرتها ارمانوسة قائلة : «لا تسألينى ، فانى لا أريده ، ولن اريده ! »

واجهشت فى البكاء حتى علا صوتها ، فجعلت بربارة تخفف عنها وتهون

عليها الى أن قالت : « اذا كنت لا تريدينه فدعيه وشأنه ، ولا تحزني ولا تكدري نفسك »

فتنفست أرمانوسة الصعداء وقالت : «نعم لا اريده ، ولكنني لاأستطيع التخلص منه ، وابي قد اتفق مع أبيه على أن يلقيني بين يديه ، ولست أفقه غرضه من ذلك ! »

فقالت بربارة : « اذا أصر ابوك على عزمه ، ولم ترى سبيلا للخلاص فأرى ان تطيعيه وأنا واثقة كل الوثوق أنه لم يقبل زفافك الى قسطنطين الا وهو يرى ذلك سببا لسعادتك ، ولا أظن تمنعك الا خوفا من الاغتراب والابتعاد عن البيت الذى ربيت فيه ، وهذا ما تشعر به كل فتاة تنتقل من بيت الى آخر ، أو من مدينة الى اخرى عند الزواج . اما اذا تم الأمر وصرت كنة الامبراطور ، فسيذهب عنك هذا الخوف ويسكن روعك »

فتنهدت أرمانوسة وقالت : « كيف يسكن هذا القلب وهو ليس معى ، فاذا سافرت الى القسطنطينية فانى أسافر بلا قلب ! »

فأدركت بربارة أنها عالقة بغير قسطنطين وان هذا سبب عزوفها عن الاقتران به ، وارادت استطلاع مكنونات قلبها فأمسكتها بيدها وخرجت الى الشرفة لتلهيها عن هواجسها ، ثم تعود فتستطلعها حقيقة امرها

وكان النيل قد انعكس نور القمر على صفحته حتى تلألأت كالبلور ، وظلال شجر البردى والنخيل قائمة على الشاطىء كأنها سابحة فى الماء ، فلبثت ارمانوسة صامتة مأخوذة ، غارقة فى بحار الهواجس لم يشغلها شاغل ، ولا انتبهت لحركة القوارب الراسية هنـاك ، ولا الى لغط الذين جاءوا لحملها الى بلبيس . أما بربارة فصمتت هي الاخرى ولبثت تنتظر ما يظهر من سيدتها وهى تتأمل حالها وتجول بأفكارها ، وتراجع سيرة حياتها لعلها تتذكر حكاية تكشف لها عن هـذا اللغز فلم تهتد ، فعادت الى حديثها فقالت وقد ارادت أن تمازحها : « ولكننى لم أفهم مرادك من قولك انك تسافرين بلا قلب ! فأين تتركين قلبك ؟ ألا تخافين عليه العدو ونحن فى حرب ؟ »

فقالت : « لا اخاف عليه الحرب . ومهما يكن من أمره فانه يصبح فى حال آمن له من حاله فى القسطنطينية ! »

فأرادت مداعبتها ثانية فقالت : « ولكن القسطنطينية آمن له ، فالبلاد هنا بين خطرين عظيمين ، اذا سلمت من أحدهما لا تسلم من الآخر ! »

فوقع قول بربارة من ارمانوسة موقعا غريبا فأحبت معـرفة حقيقة الواقع ، وسألتها : « وكيف ذلك ؟ »

قالت : « هل يخفى على سيدتى حالنا مع الروم واضطهادهم ايانا ، وما

بين أبيك وبينهم من الضغائن ، وكم ساموا نحن الوطنيين أنواع العذاب ، لما بيننا وبينهم من اختلاف فى المذهب ؟ انهم يقتلون كهنتنا وينفون بطاركتنا ونحن كاظمون الغيظ ، صابرون على البلوى ، حتى لقد سمعت سيدى والدك يتمنى ان يأتينا من يخلصنا من جور هؤلاء الحكام ؟ » . فقطعت عليها ارمانوسة الكلام وقالت : « انني اعجب لشكوانا وشكواكم ، وانتم المصريون أهل البلاد اكثر عددا من هؤلاء الروم وهم غرباء قليلون ! فلماذا لا تخرجونهم من بلادكم ؟ »

فتبسمت بربارة وقالت : « صدقت يا حبيبتى اننا اكثر عددا ولكنهم أصحاب السلطة ، وفى أيديهم الحصون والمعاقل ، وهم الحاكمون ومنهم العساكر والقواد ، ولا تظنى ان المصريين لم يحاولوا هذا الاستقلال ، ولكن دولة الروم كبيرة فكانت تبعث الينا بجنود لا قبل لنا بهم . وانت تعلمين ان اباك يونانى الأصل ولكنه يحب ابناء البلاد ويميل الى الأحزاب الوطنية لأنه يراهم على حق . وخلاصة القول اننا ابناء وادى النيل لا نحب هؤلاء الرومانيين مهما يبالغوا فى اكرامنا ، فقد كرهتهم نفوسنا ، وبخاصة لأنهم اهانوا بطاركتنا ، ولا يزال بطريركنا بنيامين فارا من وجوههم لا يعرف مقره الا القليلون ، وكلنا نشكو جور البطريق الرومانى المقيم بالاسكندرية مع رجاله وجنده ، على انى سمعت سيدى والدك مرارا يتحدث عن قرب الفرج والتخلص من نير هؤلاء . ومما حكاه مرة لرجال مجلسه ــ وقد سمعته خفية ــ انه جاءه منذ سنين رجل من بلاد العرب الذين يسكنون جنوبى هذه البلاد يحمل رسالة مكتوبة باللغة العربية ترجمها الترجمان الى لغتنا القبطية فاذا هى من كبير العرب ، وهو رجل عظيم سن دينا جديدا وتبعه جمع غفير ، وكل رجاله أشداء أقوياء وقد طلب منه فى ذلك الكتاب أن يترك ديانة السيد المسيح ويتبع ديانته . وبينما كان سيدى يروى قصته أخرج الكتاب من جيبه فاذا هو جلد جاف مكتوب بلغة القوم . وقد سر سيدى بمجيء هذا الكتاب ولكنه لم يرد ان يغير دينه فبعث الى ذلك العربى الكبير هدايا من بينها ثلاث جوار احداهن مارية ، التى كانت عندك وكنت تحبينها ، ومعهن أيضا مقدار من العسل الذى يحمل الينا كل سنة من مدينة بنها ، وأرسل اليه يقول انه لا يستطيع ان يسلمه البلاد بلا أمر من صاحبها هرقل ملك الرومانيين وهو فى القسطنطينية . وبعد أن أتم سيدى قصته ، ذكر انه يفضل أن يستولى العرب على هذه البلاد لينجو من هؤلاء الظالمين ، وسمعت جميع الحاضرين يصوبون رايه ، ولكنهم اصروا جميعا على أن يبقوا على دينهم

« وقد مضى على ذلك عدة سنوات ، الى أن حدث منذ بضعة أشهر ان جاء قارب فيه رسول من البدو قد التف بالشملة وعلى راسه ثوب مطوى وطلب مقابلة سيدى فأذن له ، فدخل وأعطاه كتابا ، ولا ادرى ما دار

بينهما ، ولكننى رأيت سيدى، قد سافر الى الاسكندرية فى اليوم التالى وطلب الى كل من رأى ذلك البدوى الا يذكر عنه شيئا . ولبثت من يوم ذهابه افكر فى سبب قدومه ، وظننته جاء فى مهمة خاصة . وقد فهمت من بعض هؤلاء القادمين أن العرب قد قاموا من بر الشام ولعلهم قادمون الى مصر ، ولكننا لا نعلم من اى طريق يأتون . وفهمت من هؤلاء الرجال ايضا ان مولاى امر الجند الذى تحت امرته أن يذهبوا مع قائدهم الرومى (المندقور الاعيرج) ويقيموا فى حصن بابل مقابل الجيزة ، ولعله يريد بذلك ان يمنع العرب اذا قدموا من دخول عاصمة البلاد »

وكانت ارمانوسة اثناء كلام خادمتها مصغية كل الاصغاء وعلى وجهها امارات الوجل ، فلما وصلت الى قولها : « وأمر الجند ان يذهبوا مع قائدهم الرومى الأعيرج » علا وجهها الاحرار بغتة ، ولكنها أخفت ذلك وقالت : « كيف تقولين ان ابى يريد ان يسلمهم البلاد ليخلص من الروم ، ثم تقولين انه يستعد لقتالهم ودفعهم ؟ » . فقالت بربارة : « نعم انه يود ذلك ، ولكنه لا يصرح به ، بل يسره فى ضميره ، لأن القوة القاهرة هنا كلها للروم ، وكل جند القطر المصرى منهم ، فاذا علموا قصده فلا شك أنهم يقتلونه ويقتلوننا كلنا »

فلما سمعت ارمانوسة ذلك صمتت لا تبدى حراكا وكانت قد جفت دموعها وزالت هواجسها ، ولكنها عندما ذكرت بربارة الحصن والاعيرج عاودتها تلك الهواجس وعاد الانقباض الى وجهها ، وقالت بلهفة : « وهل اتى الأعيرج الآن الى الحصن ؟ »

قالت : « نعم أظنه قدم ومعه كل رجاله » . قالت : « وهل جاء معه أولاده ايضا ؟ »

قالت : « لا اعلم ، وفى كل حال ، ماذا يهمنا من اولاده لا ابقاه الله ولا ابقى اولاده فانهم يستوجبون النار ! »

فامسكتها ارمانوسة من يدها وقالت : « لا تلعنى ولا تسخطى ! » . وترقرقت الدموع فى عينيها ، فعجبت بربارة لهذه المظاهر ولكنها حملتها على محمل الخوف ، وانها ابت اللعن تورعا لكيلا يصاب والدها بسوء فقالت لها : « الا تجوز اللعنة على القوم الظالمين يا بنيتى ؟ »

قالت : « هبى انها تجوز ولكن . . ! » . وصمتت وراحت تبكى !

فقالت بربارة : « ما بالك تبكين يا سيدتى وما الذى حملك على البكاء ، ونحن لم نكد نصدق انك كففت عنه ؟ »

فتنهدت تنهدا عميقا والقت بنفسها على صدر بربارة ، وقد خارت قواها واخذ منها الهيام مأخذا عظيما ، ثم تحولت الى الغرفة وهى تقول : « انى

انشد نصحك يا خالتي فدبريني برايك ، واكتمي امري ، وساعديني في مصيبتي . فان كانت حالتي تستحق البكاء قبل أن رويت لي حكايتك هذه، فانها الآن تستوجب النوح والندب .. آه من هذا القلب .. آه يا اركاديوس ! »

فنهضت بربارة وضمتها الى صدرها وقبلتها ، ومسحت دموعها وعرقها المتساقط من جبينها ، واخذت تهون عليها ، وفهمت من حديثها أنها مولعة بأركاديوس بن الأعيرج الروماني ، وهو شاب جميل شجاع يحبه كل من عرفه ، وكان يأتي أحيانا لزيارة المقوقس مع ما بين هذا والرومانيين من التنافر ، وكان اذا التقى بارمانوسة تسارقا اللحظ وتراسلا بالرموز وقلما تكلما .. لكن بربارة تجاهلت فضمت أرمانوسة الى صدرها قائلة : « مرحبا بك يا سيدتي وحبيبتي ، اني رهينة أمرك قولي ما بدا لك ، واشرحي حالك ، لا تخافي على سرك ، فقد قلت لك مرارا ان هذا الصدر خزانة أسرارك ، وهذه الحواس كلها تقوم على خدمتك ، لا أراك الله ضيما »

فجلست ارمانوسة على مقعد وتناولت المنديل بيدها ومسحت عينيها ووجهها ، وارسلت شعرها الى الوراء ، وكان قد استرسل على خديها عندما ترامت على مربيتها ، وأجلست بربارة الى جانبها ونظرت اليها بطرف ذابل قد تكسرت اهدابه من البكاء وغلب عليها الحياء وقالت : « ماذا أقول لك وحالي ظاهرة مع مبالغتي في اخفاء حقيقتها عنك ؟ آه من الحب ما احلاه وما امره ! »

فأمسكتها بربارة بيدها واخذت تقبلها قائلة : « قولي يا حبيبتي . ليس في الحب عار . الم اقل لك انك بمنزلة ابنتي ، وقد ربيتك وعقدت النية على خدمتك الى آخر حياتي ؟ »

فتنهدت ارمانوسة واسندت راسها الى كتف بربارة برهة في صمت ، ثم عادت فقالت لها : « اني قد وقعت في الحب ولكن لا سبيل الى بلوغ مرامي ، لاني احب عدوا لوالدي كما نطقت انت ! اني احب اركاديوس بن الأعيرج ، فكيف لا اندب حظي ؟ »

فقبلتها بربارة وجعلت تخفف عنها قائلة : « لا تيأسي يا بنيتي من نعمة الله ، فانا نصيرة لك ولحبيبك الى الممات . اما انت فانك بالغة مرادك باذن الله ، فلا تخافي وعلى تدبير هذا الأمر ، طيبي نفسا ولا تجزعي »

فانتعشت ارمانوسة وصاحت قائلة : « أصحيح ما تقولين ؟ هل تسمح الايام بذلك ؟ آه اني ان نلت مرامي أكن اسعد فتاة على وجه هذه البسيطة، والا فانا اشقى خلق الله ! »

فقالت لها : « لا سمح الله بما يضرك . قري عينا واعتصمي بالصبر

الجميل ، وعلى ضمان ما تريدين . ولكن أخبريني كيف عرفت هذا السبب وكيف علقت به ؟ وهل هو يحبك مثل حبك له ؟ »

فتأوهت ارمانوسة وقالت : « لا تسألى عما جرى كيف جرى ، فهذا هو الواقع . أما حبه لى فلا اشك فيه وربما كان عنده ضعف ما عندى ، وقد عرفت ذلك جيدا فدبرى الامر بحكمتك »

فقالت بربارة : « سكنى روعك الآن ، ولنعمل الفكرة فى وسيلة توصلنا الى المرام . فاتركى هذه المخاوف ، وهلمى الآن الى الفراش فقد آن وقت الرقاد ، وفى الغد نرى ما يكون ! »

فقالت أرمانوسة : « من اين يأتيني الرقاد وانا على هذه الحال ؟ ولكننى سأذهب الى فراشي التماسا للراحة ، وارجو أن تتحققى أكان اركاديوس فى جلة من دخلوا الحصن مع المدافعين ام هو باق فى الاسكندرية او فى مكان آخر ، لنرى ماذا يكون من أمره وامر ابى وذلك الخطيب ، آه منه ! »

فقالت : « طيبى نفسا وقرى عينا وتوكلى على الله . أما أبوك فلا تعارضيه واذهبى الى بلبيس كما أراد ، وسنرى كيف ينتهى الامر ولا تظهرى شيئا من نفورك لئلا يزداد الخرق اتساعا »

فقالت ارمانوسة : « كيف أستطيع الرضا بهذا الحكم الجائر ؟ وكيف اذهب وانا أخشى الا اعود ؟ » . قالت ذلك واخذت فى البكاء ، فضمتها بربارة الى صدرها واخذت تطمئن بالها وتعدها بانقاذها من كل شر تخافه وأن تدبر ذلك بنفسها . وكانت ارمانوسة شديدة الاعتماد عليها فأجابت طلبها وذهبت الى فراشها ، ولكنها لما خلت بنفسها عادت اليها هواجسها ولم تستطع الرقاد تلك الليلة الا قبيل الفجر

اما بربارة فذهبت الى غرفتها وهى تعجب لما وقفت عليه من أمر ارمانوسة ، وقد خافت عليها من وطأة الحب ، ولا سيما أن حبيبها من اعداء ابيها ، والبلاد فى حالة حرب لا تتيح لها السعى فيما تريد ، ولكنها وطنت النفس على بذل ما فى وسعها خدمة لسيدتها

وكانت بربارة ذات راى صائب وحيلة محكمة ، وسيطرة على من فى القصر من الخدم ، لأنها من أكثر الناس تقربا من المقوقس الذى كان يحترمها ويصغى الى مقالها . وكانت هى تحب ارمانوسة كثيرا ، فلما اقبل الصباح جاءت الى سيدتها وقد استيقظت من رقادها فأعدت لها ثيابها وامرت الخدم أن يهيئوا معدات السفر فأعدوا المراكب وانزلوا فيها المؤن ، وجاءوا بقارب خاص لأرمانوسة وحاشيتها . ومضى ذلك اليوم فى الاستعداد وأرمانوسة لم تذق طعاما . فلما جن الليل أظلمت الدنيا فى عينيها ، وهاج بلبالها لعلمها انها تاركة قصر والدها فى الصباح وقد لا تعود له ، فقضت الليل فى البكاء

خفية ، واهل القصر فرحون بسفرها للاقاة خطيبها ، وهم لا يعلمون بمكنونات قلبها الا بربارة فانها سألتها قائلة : « اآذهب معك ام ابقى هنا لاستطلع امر أركاديوس ؟ » . قالت : « ان ذهابي وحدي يشق على كثيرا اذ ليس بين هؤلاء من اركن اليه فابثه شكاتي ، ولكنني كذلك أود ذهابك الى الحصن لترى اركاديوس ، لعله اذا علم بما سيحل بي شاركك في تدبير وسيلة لانقاذي ، وانا اعلم انه باسل اذا اراد امرا لم يرجع حتى يناله . وها انى ذاهبة الى عين شمس لأرافق ابي الى بلبيس ، وسأنتظر خبرا منك قبل وصول ذاك الذي لا أحبه ولا أريده . فاذا ابطأ الفرج فقد تسمعين ما لا يسرك ! » . قالت ذلك وترقرقت الدموع في عينيها . فبكت بربارة لبكائها وهونت عليها قائلة : « لا . لا سمح الله بأن يحدث غير ما يسرك ، فاذهبى على بركة الله وعلى تدبير الأمر .. »

وفي صباح اليوم التالي ، ارتدت ارمانوسة افخر ثيابها ، واحاط بها الخدم والجواري ، وانزلوها الى زورقها الخاص بين الالحان والانغام ، وهى تجر ذيل ثوبها المزركش بألوان تبهج الناظرين ، وقد ضفرت شعرها وزينته ، وتقلدت حليها الفاخرة وفيها رأس الثعبان المرصع على راسها ، والاقراط في آذنيها ، وجعلت على صدرها قلادة من الذهب تتدلى منها زوائد من الذهب ، وفي يدها سواران من الذهب الخالص كذلك على شكل ثعبانين ملتفين على معصميها ، وفي موضع عيونهما حجارة من الزمرد الثمين ، وتمنطقت بمنطقة من الحرير المزركش بالقصب النقي ، وارخت طرفيه الى جنبيها

فلما وصلت الى الزورق اجلسها البحارة في مكانها ، وجواريها بين يديها فيهن الحبشيات والنوبيات وبعض الروميات ، ونزل الرجال في زوارقهم وقد نشرت الشراع وتحركت المجاديف ، حتى اذا مرت الزوارق بالقرب من حصن بابل وقفت برهة ريثما يفتح لها الجسر الموصل بين الحصن وجزيرة الروضة وهو مصنوع من قوارب مشدود بعضها الى بعض ، تغطيها الواح غليظة من الخشب فتلفتت ارمانوسة نحو باب الحصن الجنوبي لعلها ترى حبيبها مارا او واقفا ولكن القوارب مرت دون أن تراه

أركاديوس

مكثت بربارة بقية ذلك اليوم فى القصر ، وهمت فى اليوم التالى بالمسير الى الحصن قبل قدوم الجيش ، فركبت سفينة حتى أتت الجسر الممتد بين الجيزة والروضة فقطعته على قدميها الى الجزيرة ، ثم عبرت الجسر الآخر الممتد بين الجزيرة والحصن ، فدخلت من بابه الجنوبى الكبير فلم يعترضها الحرس لأنهم يعرفونها ، فصعدت الى كنيسة المعلقة فلاقتها الراهبات هناك واحتفين بقدومها لما يعلمن من منزلتها عند المقوقس ، فتظاهرت برغبتها فى زيارة الكنيسة وتقبيل الايقونات ، ثم اخذت تفكر فى طريقة توصلها الى مرامها ، فلما كانت الظهيرة انتشر خبر قدوم الجنود فى الحصن ، واخذت الراهبات يتساءلن عن سبب ذلك ، فلما علمن بحقيقة الحال جعلن يصلين ويتضرعن الى الله تعالى ان يلطف بهن ويهيىء ما فيه الخير . ورأت بربارة ان تمكث هناك تلك الليلة تنتظر ما يكون ، فلما كان المساء وصل الجنود مدججين بالسلاح ، وفى مقدمتهم موكب يرأسه أركاديوس بن الأعيرج وعليه لباس قواد الرومانيين ، فلما رأته خفق قلبها قلقا على سيدتها ومكثت تلك الليلة ساهرة تدبر الحيلة ، بينما الجند يعدون معدات الدفاع من هدم وبناء، والراهبات يتضرعن الى الله أن ينجيهن من عاقبة تلك الحرب

ولما خيم الغسق ، سمعن طرقا عنيفا على باب الدير ، وجلبة وقرقعة نصال ، ففزعت الراهبات ، وذهبت احداهن لفتح الباب وفرائصها ترتعد، فلم تكد تفتحه حتى دخل منه جماعة من الجند الرومان يتقدمهم شاب فى لباس فاخر على رأسه الخوذة الرومانية والى جانبه السيف الصقيل ، وقد تقلد الخنجر فى منطقته وارتدى طيلسانا يجر ذيله وراءه ، فلما رأته بربارة عرفت أنه أركاديوس ، وسمعتهم يكلمونها بلسانهم فلم تفهم مرادهم . ثم تقدم واحد منهم وكلمها بالقبطية قائلا : « ان القائد يأمركن باخلاء هذا المكان ليجعله معقلا لفرقة من الجند لأنه واقع فوق باب الحصن » . فنادت بربارة رئيسة الدير وافهمتها الأمر ، فتضرعت هذه اليهم ان يختاروا مكانا غير الدير لانهن لا يعرفن مكانا يلتجئن اليه سواه ، ولكنهم أصروا على عزمهم ، ولم ينتظروا رضاءهن بل جعلوا ينتهرونهن ويصيحون بهن فخرجن يولولن ويصحن باكيات . وخرجت بربارة معهن ، ولم يكن أحد من هؤلاء



« وذهبت احداهن لفتح الباب ولم تكد تفتحه حتى دخل جماعة من الجند الرومان »

الرومانيين يعرفها ، ولو عرفها أركاديوس أو عرف ما جاءت من اجله لاذعن لما ارادت . فذهبت الراهبات وبربارة معهن الى ماوى تحت الكنيسة كن يدخرن فيه مؤونتهن من الطعام والشراب ، فجلسن هناك وقد علا صياحهن وعويلهن ، فدنت بربارة من الرئيسة وخاطبتها على انفراد ، ووعدتها باعداد وسيلة تنجيهن من تلك الحال .

فقالت الرئيسة : « وما الوسيلة وقد أصبح هؤلاء الجند ابغض الينا من عدو يغتالنا ؟ أما كفانا ما يسوموننا من الخسف والجور واهانة رجالناوقتل بطاركتنا ، حتى جاءوا يخرجوننا من هذه الكنيسة ليجعلوا أماكن العبادة معاقل وحصونا ؟ »

فقالت بربارة : « طيبى نفسا ولا بد من أن يقتص الله من أهل الجور والفجور ، ولا بد لحكمهم من نهاية ، وارجو أن يكون ذلك بخروج هذه البلاد من أيديهم ، وما على الله أمر عسير »

فوقفت الرئيسة وقد خنقتها العبرات ، وقالت وهى تمسح دموعها بمنديلها : « أطلب من الله بكرامة العذراء مريم صاحبة هذا الدير أن يسقط فى أيديهم ويخرجوا من هذه البلاد على اعقابهم فان اية أمة تحكمنا بعدهم أخف وطأة علينا منهم » فقالت بربارة : « آمين ، وكل آت قريب »

وكن اثناء ذلك يسمعن جلبة الجند فوقهن ، ينقلون العدة والذخيرة وادوات الحرب ، اما بربارة فما فتئت تفكر فى وسيلة تضمن لها الفوز بقضاء مهمتها ، وتذكرت سيدتها والحالة التى فارقتها عليها فانفطر لها قلبها ، وجعلت تبحث عن طريقة توصلها الى أركاديوس . ثم رات أنها ان وصلت اليه فلن تستطيع مخاطبته لانها لا تعرف اللغة اللاتينية ، ثم تذكرت انه ربى فى مصر وتعلم لغتها وهو يفهمها ويحسن التكلم بها ، خلافا لبقية أبناء جلدته فقد كانوا يحتقرون لغة الوطنيين وينفرون ممن تعلمها ، أما هو فكان ميالا الى معرفة تاريخ البلاد ، كما كان يحب اهلها اكراما لحبيبته ، ولكن كيف تصل اليه وهو فيما هو فيه من الانهماك والتأهب للحرب ؟

وقضت معظم الليل فى هذه الهواجس لا تستطيع رقادا

أما اركاديوس فقد دخل الكنيسة مع رجاله ليجعلوها معقلا لهم وتركهم ينزعون الايقونات، ويحطمون كل ما فى طريقهم من الآنية ايا كان نوعها وأخذ هو يهيىء منازل رجاله ويرتب فرقهم ، فجعل كلا منهم فى موقفه بسلاحه ، ثم نزل الى الاماكن الأخرى يرقب الجند بالنيابة عن ابيه الى منتصف الليل . فلما انتهى من مهمته هذه عاد الى كنيسة المعلقة . وكان الجند قد اعدوا فيها غرفة مشرفة على النيل من نافذة صغيرة ، فدخل الغرفة ونزع خوذته وسلاحه ، وجلس بجانب النافذة واطل على النيل وهو

يجرى بجانب الحصن من غربيه ، ويحيط به من الجهات الاخرى البساتين والغياض ، وفيها شجر النخيل والكرم ، وقد امتد شجر الدوم على ضفاف النيل يتخلله البردى . ومد بصره الى البر الثانى عن بعد فأشرف على ضفته الغربية ، بر الجيزة وما وراءها . وكانت الليلة مقمرة كما قدمنا فوقع نظره على الهرم المدرج فى جهات سقارة بقرب منف فاستأنس به لقربه من مقام حبيبته ، فتذكر حاله معها وحبه لها . فهاجت عواطفه ، وود لو كانت له أجنحة تحمله اليها ، وهو على يقين انها تحبه مثل حبه لها ، ولولا ما بين ابيه وابيها ، وبين طائفته وطائفتها من النفور لهان عليه الأمر . ولكن المركب خشن ودون بلوغ المنى خرط القتاد !

□

لبث أركاديوس على تلك الحال حينا لا يتحرك ، وقد هدأ الجو ورق النسيم ، واستولى السكون على الحصن فلم يكن يسمع فيه صوت غير خرير الماء وملاطمة مجراه لجدار الحصن من جهة ، وحفيف سعف النحل على ضفاف النيل من جهة أخرى . ثم هب من غفلته بغتة فتذكر صديقه ارسطوليس شقيق أرمانوسة وما بينهما من الود والألفة ، فقال فى نفسه : « لماذا لا اكاشف هذا الصديق بما فى قلبى من لواعج الغرام لعله يفرج كربتى أو يرفع عنى اثقال هذا الكتمان ، فاذا عرف قوة حبى لأخته فقد يأخذ بيدى وينصرنى » . وفيما هو فى تلك الهواجس اذ سمع وقع أقدام قرب الغرفة واذا القادم واحد من رجاله جاء ليخبره بأن القائد أرسطوليس بالباب ! .

فعجب لهذه المصادفة وأذن بدخوله ، فلما دخل تصافحا وتعانقا ، ثم سأل اركاديوس صديقه أرسطوليس عن سبب مجيئه فى ذلك الوقت ، فقال : « انما جئت ايها الصديق ملتمسا منك أمرا لا يصعب قضاؤه »

قال : « قل ما شئت ، انى فاعل ما تريد »

قال : « جاءنى بعض من كن فى هذا الدير من الراهبات يشتكين مما قاسينه من الاهانة باخراجهن من بيتهن ، وأنت تعلم انهن محترمات لانقطاعهن للعبادة والتقشف ، وقد كان فى امكانكم حفظ كرامتهن ، فأرجو أن تخلى لهن مكانا يقمن فيه او يخرجن من هذا الدير باكرام »

فقال أركاديوس : « ولكننا لم نخرجهن الا لنتخذ هذا المكان حصنا ندفع به الأعداء عنا وعنهن ، وهن اذا بقين فيه لا يعملن عملنا أو يدفعن مهاجما ؟ »

قال : « لا يدفعن مهاجما ولكن كدرهن ونقمتهن على الجند لما لاقينه من

الاهانة ، ودعاءهن على المسىء اليهن ، يقف عثرة فى سبيل دفاعنا فاننا نعتقد أن دعاءهن مجاب »

قال : « نحن لا نرى ذلك ، ولكنى على استعداد للقيام بما تشير به ، على شرط الا يكون فى ذلك ضرر على الجند . اما هذا المكان الحصين فلا نتخلى عنه لأحد ، فاذا رأيت أن يخترن لهن مكانا غيره فانى أساعدهن فى الحصول عليه »

قال : « سأستخيرهن فى مكان يخترنه غير هذا المكان ، واذا راين الخروج من الحصن فانى أرسل معهن من يوصلهن الى حيث شئن »

ثم امر أركاديوس باخلاء مكان لهن بالقرب من الدير أقمن فيه ، وعاد الى صديقه فقال : « وانت ماذا فعلت ؟ هل اعددت العدة لجندك ؟ »

قال : « اعددت كل شىء تقريبا ومتى جاء والدانا فاننا نتم تدبير الأمر . فمتى يأتيان ؟ »

فقال أركاديوس: « اما ابى فأظنه يصل الى الحصن غدا . واما أبوك فلا أدرى يوم مجيئه ، ولا ريب أنك أعلم منى بأمره ، ولا أراه الا مترددا فى شأن هذه الحرب ، ولم يغرنى منه التظاهر بالاستعداد وادخالك فى هذه الحملة ، ولا أنه يونانى الأصل ، فان ماضى أعماله يخالف كل ذلك ، فهو قبطى المشرب قائم بدعوة الوطنيين ، لا يريد لنا سلطانا عليهم ! »

فوقف ارسطوليس بغتة وهو يحاول دفع هذه التهمة عن أبيه فقال : « كيف تقول ذلك وابى اول مدافع عن دولتنا ، فحالما سمع بقدوم العدو اخذ فى التأهب للدفاع ، ووجودى فى جندكم اكبر دليل على رغبته هذه ؟ »

فتبسم أركاديوس مستخفا بتلك الحجة ، وقال له : « مهلا ايها الصديق ! فأنت تعلم حبى لك ، ولا تجهل انى أحترم قدر أبيك ، ولا انكر عليك تحامل رجالنا ودولتنا على جماعة الاقباط ، وما أنا بناس نفورهم لأن نفور أصحاب البلاد من فاتحيها أمر طبيعى لا مفر منه ، وبخاصة اذا لقوا منهم ما لقى أهل مصر من تحامل بعض حكامنا ، وما سبب ذلك الا الاختلاف فى المذهب الدينى الذى تعلمه . ولكننى لا أسلم بأن والدك المقوقس غير قائل بقولهم ، وأنه يود من صميم فؤاده خروج هذه البلاد من حوزتنا ودخولها فى حوزة غير [illegible] مهما يكن جنسهم . اما دخولك فى جندنا فلا نتخذه حجة لدفع هذه التهمة عنه بل قد يكون مؤيدا لها . ولكن ما لنا ولذلك الآن ، فسوف يظهر الحق ويزهق الباطل . اما نحن فسندافع عن هذه البلاد جهد طاقتنا الى آخر نسمة من حياتنا ، وفى أيدينا أوامر مشددة بالمحافظة على هذا الحصن ودفع العرب عنه ، واظنهم يحسبون الظروف تساعدهم هنا كما ساعدتهم

فى بلاد الشام وبيت المقدس ، ولو كان فى رؤوس حامية تلك البلاد الشهامة الرومانية ما سلموا منها حجرا ، ولكنهم فسدوا وغدروا ولم يكن عندهم مثل هذا الحصن المنيع ولا رجال مثل رجالنا » . قال ذلك وكأنه شعر بما يتخلل عبارته هذه من الحدة فصمت برهة ريثما خفت حدته ، ثم عاد فخاطب ارسطوليس قائلا : « اخبرنى الآن هل انفذت الرجال لعمل التحصينات كما اخبرتك ؟ »

قال ارسطوليس : « وقد بدأوا بعملها منذ وصولنا ، ولكنهم ناه الآن التماسا للراحة ولا يقبل الصباح الا وهم قيام على اتمامها . وقد جئ بكل معدات التحصين وفى جملتها حسك الحديد لنبذره فى قنوات الخندق فلا يستطيع البدوى عبوره قبل أن تدمى قدماه ويعجز عن المشى ، هذا اذا لم نقتله بسهامنا عند الأسوار قبل وصوله الى الخندق »

فقال أركاديوس : « واين هم الأعداء الآن ؟ »

قال : « انبأنا الجواسيس انهم قاموا من العريش بعدتهم ورجالهم ، ولكن دون وصولهم الى هذا الحصن خرط القتاد »

وكان ارسطوليس عالما بمقاصد ابيه حق العلم ، وقد تحقق ان الحامية لا يمكنها دفع العرب ، وكان يحب أركاديوس كثيرا فأراد أن يكاشفه بذلك لئلا يكون فى جملة من تقع عليهم المكيدة ، ولكنه خاف افتضاح الأمر قبل اوانه فتضيع اعمال والده سدى فابقاه مكتوما الى حين ، ونهض فودع صديقه وخرج يلتمس الرقاد بقية ذلك الليل فودعه اركاديوس وعاد الى مقعده فعادت اليه هواجسه

اما ارسطوليس فتحول عن الغرفة الى السلم وهو يفكر فى شأن ابيه مع الرومانيين ، وقد حمل سيفه بيده لئلا يصطدم بجدران السلم فيوقظ أحدا من الجند . فلما بلغ آخر درجة منه سار فى زقاق ضيق مظلم قاصدا الى غرفته ، فسمع صوتا منخفضا يناديه من جانب الزقاق ، فنظر فاذا شبح قادم اليه امسك بيده وهو يقول : « لعلك سيدى ارسطوليس ؟ » . فجذب ارسطوليس يده قائلا : « نعم ، ومن انت ؟ » . فسمع صاحب الصوت يقول : « أنا خادمتك بربارة يا سيدى ! » . وعرف صوتها فقال لها : « وما الذى جاء بك الى هنا ؟ وكيف تركت البيت ؟ » . قالت : « جئت بأمر ذى بال سأطلعك عليه اذا اذنت لى بخلوة » . قال : « تعالى معى الى غرفتى »

وسارا حتى دخلا بعض جوانب الحصن وارسطوليس يحاذر ان يراها أحد خوفا من وقوع الشبهة عليه ، فلما دخلا الغرفة واضاء المصباح تأمل فى وجهها فاذا هى هى بعينها فقال لها : « ما خبرك ؟ »

قالت : « جئت بالامس لزيارة كنيسة المعلقة كعادتى ففوجئت بالجنو
يدخلون الحصن ويخرجون من فى الكنيسة من الراهبات فخرجت معهن
يا سيدى ، وكان من امرنا ما قد علمت ، فلبثت فى ذلك الممر انتظ
الصباح لأعود الى منف . وفيما انا اخاطب رئيسة الدير اخبرتنى ان راهب
جاء فى صباح الأمس يسأل عن سيدى المقوقس ومعه كتاب ، فسألتها عن
ذلك الراهب فذكرت انه خرج من الكنيسة فى ضحى هذا اليوم ولم تعل
تراه ولا تعلم اين هو ، ولكنه من رهبان دير فى برية تيبايس يحمل كتاب
من البطريق بنيامين الذى فر من بطريق الاسكندرية الى هناك ، ولما علم
بقدوم الجنود الرومانيين الى الحصن خاف أن يفتضح أمر الكتاب ، فدفعه
الى الرئيسة لتخفيه ريثما يستطيع حمله الى ابيك ، فاخفته فى صندوقها
بين ثيابها ولم تكن تعلم انهم سيخرجونها مع الرهبان ، فلما جاءوا الدير
واخرجوهن منه لم تستطع لسرعتها ودهشتها أن تخرجه ، فبقى فى
الصندوق واخاف ان يصل الى ايديهم وربما كان فيه ما يؤاخذ سيدى
عليه ! »

فلما سمع ارسطوليس كلامها سكت لحظة وهز راسه كانه ادرك المرا
من قدوم الراهب بذلك الكتاب ، ولكنه خاف سوء العاقبة فاختلط عليه
امره وقال لبربارة : « وما السبيل الى الحصول على الكتاب الآن وانا
لا استطيع ان اطلبه من اركاديوس صريحا ؟ »

قالت : « اذن اعطنى كتابا الى اركاديوس تقول فيه ان رئيسة الدير تود اخذ
ايقونة من صندوقها للصلاة ، وتطلب منه ان يأذن لى فى الدخول الى
الكنيسة لاخراج تلك الايقونة فقد تنفع هذه الحيلة »

فسر ارسطوليس بحيلتها واخرج قطعة من ورق البردى كانت معه ثم
ناولها اياها بعد أن كتب عليها ما اشارت به عليه ، وقال لها : « لا تطيلى
الغيبة فانى فى انتظار رجوعك » . فقالت : « طب نفسا ان غيابى لا يتجاوز
فجر الغد »

وهنا تذكر ارسطوليس شقيقته ، فاستوقف بربارة وقال لها : « هل سافرت
سيدتك ارمانوسة الى بلبيس ؟ » . قالت : « نعم يا سيدى »

قال : « ولماذا لم تذهبى معها ؟ » . قالت : « استأذنتها فى البقاء بضعة
ايام لأفى نذرا على ثم الحق بها » . وودعته وذهبت مسرعة

ولبث ارسطوليس بعد ذهابها وحده ، فنزع خوذته وسلاحه وتوسد
مقعدا يلتمس الراحة بعد ما قاساه من التعب فى تصفيف الجند اثناء النهار
واخذ يفكر فى امر الراهب وكتابه فادرك ان الكتاب مرسل من بنيامين بطريرك
الاقباط الى والده ، يحثه فيه على مسالمة العرب وبذل الجهد فى التخلص
من نير الرومانيين

اما بربارة فسارت توا الى الرئيسة فتناولت منهـا مفتـاح صندوقها ومضت الى كنيسة المعلقة فاعترضها الحراس فأرتهم كتاب ارسطوليس الى أركاديوس فأذنوا لها فى المرور

وكان أركاديوس لا يزال غارقا فى هواجسه وقد أطل من النـافذة على النيل يفكر فى محبوبته ويبحث عن وسيلة توصله اليها ، وظل مترددا بين اليأس والأمل لا يدرى كيف يبلغها قصده ، وكان اكبر همه ان يطلعها على شدة حبـه لهـا ، ويقنعها ان ما بين ابيه وابيها لا يحول دون اقترانهما اذا بادلته هى حبـه . على انه كان يخشى عاقبـة أمره اذا اطلـع أباه على ذلك لعلمه بما فى قلبه من الضغائن على المقوقس ، وما بين الأمتين من النفور . ولـكن الحب سهل عليه كل عسير حتى انه احب امة الاقبـاط كلها من أجل محبوبته ، ومال الى التشيع لهم رغبة فى مرضاتها ، ونقم على الساعة التى ولد فيها رومانيا ، وعلى الأحوال التى جعلت اباها يتشيع للأقباط ، لأن كلا الأمرين حائل بينه وبينها

وفيما هو فى ذلك اذ دخل عليه أحد رجاله يخبره بأمر بربارة وكتابها فعجب لأمرها وقال : « هات الكتاب منها » فقال : « انها لا تريد ان تسلمه الا بيدها » . قال : « فلتدخل » . فدخلت وحدها وقبلت يد اركاديوس فحالما رآها استأنس بمنظرها ، وخيل اليه انه رآها مرة من قبل ، ولكنه لم يتذكر اسمها ولا الموضع الذى رآها فيه ، على انه ابتسم لهـا وتناول الكتاب منها وسألها عن أمرها فقالت : «نسينا الأيقونة يا سيدى فى الصندوق، وهذا هو المفتاح ، فهل تأذن لى بفتحه واخراجها ؟ » . فلما سمع اركاديوس كلامها ازداد استئناسا بها ، وأحب استطلاع حقيقة حالها فقال لها : «كيف تدخلين وحدك بين الجنود وهم يملأون الغرف ؟ »

قالت : « وماذا يخيفنى اذا كنت قادمة الى سيدى اركاديوس ؟ »

وكانا يتخاطبان باللغة القبطية ، فقال لها : « لعلك من أهل هذا الدير ، ولكنى لا أرى عليك لباس الراهبات »

قالت : « انما انا نزيلة جئت للصلاة ووفاء بعض النذور ، فلما جاء الجنود خرجت مع الراهبات ، وقد كلفتنى رئيسة الدير ان آتيها بالأيقونة »

فقال : « ولماذا لم تأت بنفسها أو ترسل احدى راهباتها ؟ »

قالت : « انها لا تجرؤ على مخاطبة سيدى ارسطوليس فى شأنها ، فبعثت بى لأكلمه فى شأنها ، فاعطانى هذه التوصية »

فقال : « وكيف تجرأت انت على ذلك ؟ »

قالت : « لأنى من بعض خدم قصره »

فلما سمع أركاديوس ذلك خفق قلبه ، وتوسم الخير من حديثها ، فعول

على تنسم اخبار محبوبته منها فقال : « واى قصر تعنين ؟ »

قالت : « قصره بمنف ، لانى وصيفة لشقيقته سيدتى أرمانوسة »

فلما سمع اسم محبوبته هشت لها جوارحه ، لكنه تجلد وقال : « لعلك خادمتها الخاصة ؟ »

قالت : « نعم يا سيدتى ، بل انا مربيتها ، واذا شئت فقل انى بمنزلة والدتها »

فتنهد حينئذ اركاديوس ودعا بربارة الى الجلوس فجلست واخذ يخاطبها همسا لئلا يسمعه احد ، وهى تناجى نفسها : « ها قد قربت من بلوغ المرام! »

فقال اركاديوس : « قد أصابت أرمانوسة باتكالها عليك ، لانى قرات صورة الاخلاص على محياك .. فهل عندك للسر مكان ؟ »

قالت : « انى جعبة أسرار عميقة ، فقل ما بدا لك ولا تخف »

قال : « هل تعلمين من تخاطبين ؟ »

قالت : « نعم يا سيدى انى اخاطب اركاديوس بن الأعيرج قائد الجيوش الرومانية فى مصر »

قال : « وهل تعلمين ما بين الرومانيين والأقباط فى مصر ؟ »

قالت : « اذا كنت تعنى غير النفور بينهما فربما لا اعلم »

قال : « لا بل اياه اعنى ، ويظهر لى انك تعلمين من الاسرار ما لا يعلمه اعاظم رجالنا . فهل تعلمين بما فى قلب أرمانوسة ؟ »

قالت : « نعم اعلم انها تحب اباها ووطنها »

قال : « لا تخيبى ظنى فيك ، فأنا لم اسألك عما يخالج صدر كل قبطى، ولكنى اسألك سؤالا ارجو أن تجيبينى عنه جوابا يفسح لى مجالا للكلام معك فيما لم اكلم به احدا بعد »

قالت : « وما الداعى للتحفظ فى الكلام ؟ قل وافصح ولا تخف فان نفسى فى قبضة يدك ، واقسم لك بحبيبتى أرمانوسة أن سرك لا يتجاوز هاتين الشفتين الا باذنك »

قال : « قد أحسنت الجواب ، فاعلمى أن لى مأربا عند سيدتك أرمانوسة، وقد احببتها حبا شديدا . فهل تعلمين شيئا من ذلك قبلا ؟ »

قالت : « واى شيء تعنى ؟ »

قال : « الم تخبرك بامر هذا الحب ، او لمحت من حديثها انها تحبنى ؟ »

قالت : « يجدر بى ان اكون السائلة هذا السؤال »

قال : « وماذا تعنين ؟ »

قالت : « اعنى انك اعلم منى بذلك ، فهل تشعر انت انها تحبك ؟ »

قال : « اراك تحاولين اخفاء الحقيقة ، فأنا لم أسألك اذا كنت أنا احبها ولكني سألتك اذا كانت هي تحبني »

قالت : « وهذا ما أردته من سؤالي لان قلب المحب دليله كما يقال ، فاذا كنت تحبها حبا حقيقيا ، فلا شك فى أنها هى ايضا تحبك ! »

قال : « اني احبهـا وعلى هذا فهي تحبني ـ وهـذا ما كنت اظنـه ، وقد أحسنت الدفاع عنها وكتم حبها خوفا مما يخافه أهل الهوى فى مثل هذه الحال . اما وقد تحقق ظنى فأنا أعترف لك اعترافا قلبيا أنى أحب ارمانوسة حبا جما يهون على كل صعب »

فقالت : « ما الفائدة من حبك لها وانت تعلم ما يحول دون الوصول اليها، ولا اظن أن اباك يرضاها لك لما قدمت من الأسباب ، فما الفائدة من هذا الحب ؟ »

فهز رأسه وتنهد ثم قال : « لا ارى دون الوصول الى ارمانوسة صعبا لا يذلله حد هذا السيف » . وأشار الى سيفه

فقالت : « أنا اعلم ان عزائم الرجال تذلل الصعاب ، ولكن الأمر أمر حقوق قد تكون ارهف حدا من الصوارم . فهل تعصى اباك يا سيدى ؟ أرى الا تعرض نفسك لغضبه ، فانك أدرى بما ينجم عن ذلك . ولكن هبأنك ذللت كل هذه المصاعب فماذا تصنع بقسطنطين ؟ »

فأدرك مرادها وكان قد سمع بخطبتهـا له ولم يصـدق فقال : « وأى قسطنطين ؟ »

قالت : « قسطنطين بن هرقل الامبراطور »

قال : « وما علاقته بهذا الأمر ؟ »

قالت : « يا للعجب كيف تتجاهل شيئا لا يجهله احد من أهل مصر ؟ »

قال : « وما هو ؟ قولى ! »

قالت : « الا تعلم انها مخطوبة له ؟ »

قال : « مخطوبة ؟ . هذا شيء عجيب ، وهل قبلت هى ؟ »

قالت : « لا ادرى ، ولكننى أعلم أنها سارت فى صباح الأمس من قصرها تصحبها الحاشية مع ابيها الى بلبيس لتكون فى انتظار خطيبها »

فلما سمع أركاديوس ذلك نهض عن كرسيه بغتة وصاح بها : « ويحك . . ماذا تقولين ؟ »

قالت : « اقول الصدق يا سيدى ، فانها برحت القصر قبل ان ابرحه انا ، وهى الآن فى طريقها الى بلبيس »

فاشـــتد غضـــبه وجعل يخطر في الغرفة ينظر تارة الى بربارة وطورا الى النافذة ، ثم يتشاغل بفتل شاربيه واخيرا وقف بغتـــة وقال لها : « يلوح لى انها قبلت قسطنطين ، فكيف تقولين انها تحبنى ؟ لعل قسطنطين اقرب الى قلبها منى ؟ »

فقالت : « لم اقل ياسيدى انها احبته او آثرته عليك ، ولـكننى قلت انها سارت مع والدها الى بلبيس ، واظنهـــا فعلت ذلك اذعانا لأمره ، وهـــو لا يستطيع مخالفة الامبراطور . ومهما يكن من أمر فانها الآن فى طريقها الى بلبيس ، ولا تدرى متى يأتى خطيبهـــا للاقتران بها . ها انى أخبرتك بالأمر كما وقع ، واما قلبها فاسأل قلبك عنه »

فنظر اليها مغضبا وقال : « اما قلبى فيحدثنى بأنها لا تميل الى سواى ولو ادى ذلك الى عصيان أبيها »

فقالت : « كيف تتوقع منها ذلك وهى فتاة ، وقد رايتك وانت شاب باسل تتردد فى مخالفة أبيك اذا منعك منها »

فحملق وقد احمرت عيناه وقال : « كيف تقولين انى اتردد وانا اقول لك انه لا شىء يمنعنى من نيلها الا الموت » . ووضع يده على قبضة حسامه وقال : « ما دام هـــذا الحسام الى جانبى فلن يحولنى شىء عن ودها ولو قاومنى قسطنطين ، بل لو قامت على جنود أبيه برمتها ، نمـــا انا براجع عن عزمى الا اذا كانت هى راضية به . . ولكن من يخبرنى بما فى ضميرها »

فأدركت بربارة أنه مصمم على الاقتران بها ولو حالت دونه المصاعب فقالت : « وما الفائدة اذا عرفت ما فى ضميرها ؟ »

قال : « ان فى معرفته حلا لهذه المشكلة »

قالت : « هب انها لا ترضاه وانها باقية على حبك ، فما عقبى ذلك ؟ »

فالتفت اليها وقد استل حسامه وهزه قائلا : « أما اذا تحققت بقاءها على ودى فانى أحارب فى سبيل الوصول اليها جنود هرقل كلها ، ولا انفك حتى أنالها أو أقتل ! »

قالت : « خفف عنك ، واعلم أن ليس دون ذلك جنود هرقل فقط ، ولكن دونه ايضا غضب ابيك وابيها »

فقال : « ولكن اذا كان قلبها مثل قلبى فاننا لا نخشى شيئا ، ولو قامت علينا جيوش الدنيا كلها ! فاخبرينى عن كنه نيتها ، وليكن فى كلامك هـــذا القول الفصل : فاما ان أوطن النفس على ارمانوسة واناضل عنها بحد هـــذا السيف ، واما ان اقول عليها وعلى الدنيا السلام . قولى ولا تطيلى الكلام »

فلما رات ما هو فيه من الغضب نظرت اليه مبتسمه وقالت : « اذا كنت تحب ارمانوسة فتفضل واجلس لانبئك بمكنون قلبها »

فأجابها وقد هدأ غضبه : « نعم انى أحبها .. قولى اذن » . وجلس

فقالت : « اعلم يا سيدى أن أرمانوسة تحبك حبا ليس بعده غاية
ستريد . اما قسطنطين فهى لا تعرفه ، ولا تريد أن تعرفه ، وما كان سيرها
ى والدها الا اذعانا لامره واحتراما له ، ولكن قلبها عالق بأركاديوس البطل
ـمام . ولم آت هذا الدير الا لأستطلع مكنونات قلبك وأعلم مقدار حبك
ا . اما وقد عرفت ذلك فقد هان الصعب وخاب قسطنطين ، لن يدرك
ـعرة من راسها . وها انذا قد اخبرتك الحقيقة فتدبر الامر ، ولا ريب
ـدى أنها ثابتة فى حبك ولا ترضى عنك بديلا ، مهما يكلفها ذلك من المشاق،
بخاصة اذا علمت بما دار بيننا قبل مجيئى اليك . وقد فارقتها على أن
ى اقابلك ونتواطأ على وسيلة تنقذها من مخالب ذلك الرجل »

فأبرقت اسرة اركاديوس ونظر الى بربارة وقد فرح قلبه وأشرق وجهه
قال : « اما والحال على ما تقولين فلا نخاف احدا ، وأنا لها وهى لى ، ولا
برة بما يسعى فيه الناس ، فهم انما يضربون فى حديد بارد . اما
ـسطنطين فاذا لم يؤخذ بسيوف العرب فى حرب الشام فانى قاتله بحد
ـذا الحسام ، ولكننى احب ان تعلم ارمانوسة ذلك لتزداد ثباتا حتى يقضى
، امرا كان مفعولا . وما عليك الآن الا ان تذهبى اليها وتخبريها بعزمى
تقولى لها ان اركاديوس حبيب ثابت فى محبتك ثبات الجبال ، فاثبتى انت
انتظرى الفرج من عند الله ومن سيف اركاديوس »

فقالت : « اما اخبارها بهذا فعلى أنا العاجزة التى تتعهد ببذل نفسها فى
ـبيلكما ، فطيبا نفسا وقرا عينا ، وغدا ان شاء الله أدبر حيلة فى الذهاب
ـيها وأطلعها على ما دار بيننا واعلمك بما سيكون ، فقد سرنى كثيرا ارتباط
ـبيكما »

ثم فكرت قليلا وقلبها فرح بما علمت فرات ان تثبت قوله بالعمل وتعود
ى سيدتها بما يحقق أملها فقالت : « ولكن يا سيدى ما الذى يثبت قولى
ا ويوطد علاقة المحبة بينكما وانتما الى الآن لم تتشافها صريحا ؟ »

قلبت اركاديوس يفكر ثم قال : « صدقت .. ولكن ماذا عساى أن أرسل
ـيها ، وما انا على استعداد لذلك ؟ ثم مد يده الى خاتم فى بنصره يريد
ـتراجه ولكنه توقف هنيهة ممسكا بالخاتم كأنه يهم بسحبه ويعترضه
ـاطر فيمنعه ، واخيرا نزعه وقدمه الى بربارة وقال : « خذى هذا الخاتم
ـنه خاتمى ، وقد نقش عليه النسر الرومانى واسمى ، وسلميه اليها يدا
ـد ، واحذرى ان يعلم احد بذلك . واعلمى انى قد سلمتك شرفى ، ووضعت
ـك ثقتى ، وهذه هى اول مرة خاطبتك فيها فلا تخيبى املى . واطلب
ـنك أن تحفظى ما دار بيننا ، واحذرى ان تفوهى به أمام احد . فانك اذا
ـصغيت الى مقالى وسلكت مسلكا يرضينى نلت خير الجزاء . اما اذا بحت

بالأمر او خالفت وصيتى فأنت تعلمين جزاءك »

فتناولت الخاتم وقبلته وقالت : « طب نفسا وقر عينا ، فانى الخادمة الأمينة لك ولسيدتى التى هى اعز لدى من روحى »

ثم نهضت فقبلت يده وطلبت اليه أن يأمر بمن يوصلها الى صندوق رئيسة الدير ، والا يتعرض لها احد بشيء ، فنادى خادمه الخاص وأوصاه أن يرافقها الى حيث تريد ، فسارت وأخرجت الكتاب خلسة وتظاهرت بحمل الايقونة ، ونزلت حتى اتت مقام الرئيسة والراهبات فأعطتها الايقونة ، واخبرتها انها أطالت المكث هناك حتى تمكنت من تدبير الحيلة لاخراج الكتاب وكانت قد خبأته فى جيبها ، وأرادت الذهاب به لتوها الى سيدها أرسطوليس ولكنها خافت ان تقع فى أيدى الحراس فيفتضح الأمر ، فلبثت بقية ذلك الليل حتى اذا اقبل الصباح ذهبت بالكتاب اليه ، فاذا هو فى انتظارها على مثل الجمر ، فلما رآها مقبلة نهض لملاقاتها وأدخلها غرفته وسألها عن الكتاب ، فمدت يدها الى ثوبها وأخرجت اسطوانة من القصب الفارسي دفعتها اليه ، فتناولها وقد علم ان الكتاب فى داخلها ففتحها من احد طرفيها وأخرج الكتاب فاذا هو رق من جلد مطوى ، اذ كان أكثر استخدام الرق للكتابة فى بلاد العرب وعند سائر اهل البادية ، أما المصريون فكانوا يكتبون على البردى ، ففض الكتاب وقراه فاذا هو مكتوب بالقبطية من البطريرك بنيامين الى المقوقس فتلاه وهاك ترجمته :

« ولدنا بالرب يوحنا قرقت حاكم مصر

« قضى على بالانزواء فى هذا الدير ، وانت تعلم انى انما ابعدت اليه ظلما وعدوانا بأمر أعدائنا دينا ووطنا ورئيسهم البطريق الأسكندرى ، لانهم ضلوا سواء السبيل وحرفوا كلام الله عن مواضعه . ولست انا أول من صبر على هذا الاضطهاد ، فأنت تعلم ان كثيرين من البطاركة ذهبوا ضحية هذا الضلال . وانا لا أطلب لهم الا الهداية الى الحق ، ولا ادينهم ولكن الله يدينهم . وأما ما اوجب كتابة هذا اليك فهو انني علمت عن ثقة أن العرب الذين قد ظهروا بالدعوة الى الاسلام والجهاد فى سبيله قد حاربوا الروم فى العراق وفارس وسورية وفلسطين وتغلبوا عليهم ، واخذوا البلاد من ايديهم . والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء من عباده . وقد علمت انهم قادمون الى مصر لانتزاعها من ايدى أعدائنا ، وانا أعلم انك لا تستطيع المجاهرة بالانحياز اليهم كما اخبرتنى غير مرة ، لئلا يعود ذلك علينا بالوبال ، وقد اعجبني ذلك منك لانه دليل على الحزم والدراية ولكننى واثق بثباتك مع سائر اولادنا

جماعة الاقباط الذين اثقل الدهر كاهلهم بالاستبـداد والعسف ، وقد مضت عليهم قرون وهم يئنون من وطأة هذا الظلم ولا مجير لهم

« وقد رأيت في ليلتي هذه حلما تفاءلت منـه خيرا ، وعلمت أن هؤلاء العرب ارسلهم الله لانقـاذنا من أيدى الروم . على اننـا لو اردنا دفعهم ما استطعنا اليه سبيلا ، لأن الله منحهم النصر فيما قاموا به ، فلم يهاجموا حصنا الا فتحوه ، ولا نازلوا جندا الا هزموه ، ولا يخفى عليك ان الروم قد دالت دولتهم ، ولو اراد الله نصرهم ما خرجت بلاد الشام من ايديهم . واعلم ايضا أن هؤلاء العرب قد قاموا يدعون الناس الى دينهم ، فاما أن يقبلوا الدعوة أو يحاربوا الى آخر نسمة من حياتهم او يستسلموا ويدفعوا الجزية . اما انا فلا أرى أن تخرجوا من دينكم الذى ولدتم عليه ، ولكن الاستسلام ودفع الجزية لهؤلاء العرب اولى بنا واقرب الى خلاصنا من الظلم . فاذا كنت لا تزال على ما اعلم فافعل وانقذ البلاد من الشر ، واحذر أن تتحول عن عزمك ، وها انى أصلى ليلا ونهارا وادعو الله ان يأخذ بيدك ويلهمك ما فيه خيرك وخير البلاد

« واخيرا اهديك البركة وادعو لك ولسائر ابنائنا واخواننا بالروح . والرب يحفظكم

البطريرك بنيامين »

فما جاء على آخر الكتاب حتى كلل العرق جبينـه ، وتذكر ما قام بين القبط والروم من الضغائن وما قاساه الأولون من الاستبداد والجور ، ثم لف الكتاب وخبأه فى مأمن وقال لبربارة : « اذهبى بسلام واذا رأيت أبى فاخبريه بأن له معى كتابا اريد اطلاعه عليه » . فقبلت يده وعادت تريد الخروج فناداها فرجعت فقال : « الى اين تذهبين الآن ؟ » . قالت « الى الدير » فقال : « لا تطيلى مقامك هنا لئلا تستبطئك سيدتك فيضطرب بالها لما نحن فيه ، فأسرعى بالرجوع وأخبريها أننا فى خير »

قالت : « ولكننى أخشى الا ادركها فى عين شمس فيصعب على المسير وحدى الى بلبيس »

فقال : « وما العمل اذن ؟ »

قال : « الراى رايك يا مولاى ، وحبذا لو اذنت أن يرافقنى اثنان من رجالك الى عين شمس ، فاذا كان الركب لا يزالون هنـاك انضممت اليهم وعاد الرجلان ، والا رافقانى الى بلبيس ، والأمر أمرك »

فقال : « هل علمت أن ابى سار برفقة ارمانوسة ؟ »

قالت : « بعث الينـا ونحن فى منف أن نسير بسـيدتى الى عين شمس حيث يكون هو فى انتظارها فيرافقها الى بلبيس »

قال : « الارجح انك ستشاهدين سيدك فى عين شمس ! فاليك هذا الكتاب

وادفعيه اليه يدا بيـد واحذري أن يراه أحد غيره » . ومد يده واعطـاها الاسطوانة وفيها الرق المعهود

فتناولته وقالت : « واين اخبئه ؟ فانى أخاف اذا رآه احد من الروم أن يأخذه منى وينكشف الأمر ! »

قال : « اجعليه فى ثيابك وهم لا يفتشونك لأنك امرأة ، فضلا عن أنك من خدم ابى »

ثم أمر باثنين من رجاله ، فأتيا ، فأوصاهما بأن يرافقاها الى عين شمس وهى على مسيرة ساعتين أو ثلاث من الحصن ، فاذا ظفرا بركب والده هناك تركاها وعادا ، واذا كان الركب قد أقلع رافقاها الى بلبيس . وأعطاهما كتابا الى اركاديوس ليأذن لهمـا بالخروج من الحصن ، وأمر لهمـا بمركبـة يجرها ثوران قويان ، فأخذا الكتاب وسارا الى دير المعلقة ، وكان اركاديوس هناك يفكر فى بربارة وارمانوسة فلما جاءه الجنديان بكتاب ارسطوليس أذن لهما ، ونظر الى بربارة بطرف خفى كأنه يوصيها باتمام الأمر مع ارمانوسة والعودة اليه بالجواب حالا ، فأشارت اليه بعينيها مجيبة

▭

خرج الثلاثة من الحصن وقد مالت الشمس الى المغيب وليس فى طريقهما الى عين شمس الا الغياض والبساتين من الكرم والجميز والنخيل وبعض الأبنية ، ومعظمها كنائس واديرة ، وفى بعض هـذه البقعة مما يلى جبل المقطم بنيت بعد ذلك الفسطاط والقاهرة

وركبت بربارة المركبة وتناوب الجنديان الركوب على الثورين فمروا بتلك الحقول ، وما زالوا يجدون السير حتى دنوا من عين شـمس وكانوا قد عرفوا مكانها من مسلتها التى تشاهد عن بعد ، والمدينة اذ ذاك قد تداعت الى الخراب وتهدم سورها سوى جزء صغير منه ، أما هيكلها الذائع الصيت فبعد ان كان مدرسة تتسابق اليها الأمم من سائر أقطار العالم لاقتباس علوم المصريين وفلسفتهم وكهانتهم اصبح خرابا بلقعا ينعق فيه البوم ، ولم يبق منه الا بعض الجدران والأعمدة . وأما المسلتان العظيمتان عند بابه فكانتا لا تزالان قائمتين شامختين تناطحان السحاب ، يكلل رأس كل منهما تاج من النحاس قد صدىء واخضر فلما نزل عليه المطر سال الصدأ على ما تحته ، اما الاصنام الهائلة التى كان المصريون القدماء يعبدونها ابان دولتهم فكانت لا تزال قائمة ، وقد غشاها الذل وغطاها التراب ، على أن ضـخامتها ما برحت داعية الى الرهبة

فلما بلغوا المدينـة ترجلوا واجتازوا السور فاذا بالمدينـة خالية خاوية ،

فأرادوا الاستفهام عن أمرها فشاهدوا بيوتا حقيرة قائمة على انقاض السور من الخارج فتقدم الرجلان الى بيت منها وهما فى لباس الجند ، فلما رآهما اهل البيت ذعروا وفروا وتركوا البيوت وشأنها . ثم سمع الجنديان نباح الكلاب وشاهدوا كلبين كبيرين هجما عليهما ينبحان نباحا شديدا فناديا اهل المنزل فلم يظهر أحد ، ثم سمعا خوار الثورين فالتفتا فاذا بهما قد ذعرا لنباح الكلاب فخافا ان يفرا بالمركبة ويتيها بين الاشجار ، فرجع احدهما وأمسك الثورين وشدهما الى شجرة بحبل من الياف النخيل ، وعاد الى رفيقه وبربارة وكانا قد مشيا وهما يحاذران ان يعضهما كلب حتى بلغا بيتا منها فاذا بالباب مغلق فطرقاه فلم يجبهما أحد فعجبا لذلك ، وخافا ان يكون فى الأمر خطر ، فمضيا الى بيت آخر والكلاب تنبح ، فلاقاهما رجل شيخ يتوكأ على عصاه وقد حناه الكبر وكلله الشيب ، وأرسل شعر حاجبيه على عينيه وتدلت لحيته على صدره ، فتقدما اليه وسلما فحياهما وجلس الى حجر يلتمس الراحة ، فسألوه عن سبب ما شاهدوه من نفور هؤلاء الفلاحين وفرارهم فقال : « وهل أنتم من جند الروم ؟ » . قالا : « بل نحن من جنود مولانا المقوقس ، وما سبب سؤالك ؟ »

قال : « ان على سؤالى هذا يتوقف جوابى ، أما وقد علمت أنكم من اخواننا القبط وتحققت ذلك من لهجتكم فأخبركم أن سبب نفور هؤلاء الناس منكم أنهم رأوكم بلباس الجند فظنوكم من جنود الروم . ولا يخفى عليكم ما آلت اليه حالنا من معاملتهم لنا بالقسوة والجفاء ، وكم مروا بنا مثل مروركم هذا وكلفونا ما لا طاقة لنا به من الأثقال حتى كانوا اذا رأوا عندنا متاعا أخذوه ، أو حيوانا ساقوه ، أو طعاما أكلوه . وآخر ما لاقيناه منهم منذ بضعة ايام اذ مر جماعة منهم يريدون قصر الشمع فلم يغادروا شيئا فى طريقهم الا افسدوه ، فداسوا الزرع ، وساقوا الماشية ، ونهبوا البيوت ، ولما كلمهم ابنى وتضرع اليهم أن يشفقوا على حالنا أوسعوه ضربا ولكما ! فلا لوم على قومنا فى الفرار ، وأنا والله لولا عجزى عن الركض ما وقفت أمامكم . فالحمد لله على ما حصل ، واعلموا أننا رهن اشارتكم فى كل ما تريدون ، فانزلوا على الرحب والسعة »

قال احد الجنديين واسمه مرقس : « الى هذا الحد تخافون رجال حكومتكم ؟ » . فتأوه الشيخ تأوها عميقا ورفع نظره اليهما وقد بل الدمع عينيه ، وقال : « كأني بكما لغضاضة شبابكما وحداثة سنكما لم تذوقا ما ذاقته هذه الشيبة ، ولا قاسيتما ما قاساه هذا الشيخ ! الحق ان حالنا مع هؤلاء الروم يتفتت لها الصخر ، وقد مضى على ثمانون عاما لم اذق فيها الراحة يوما ، ولا سمعت خبرا مفرحا . وقد وقعت فى الخطر مرارا ، وذقت العذاب ألوانا . وكم تمنيت ان يملك بلادنا هذه اهل البجة او اهل

الحبشة ، فانهم اقرب الى الشفقة والرحمة من هؤلاء . ويلوح لى ان الزمن المنتظر قد اقترب ! » . وكان يكلمهما وهومطرق لانحناء ظهره وهما مصغيان لكلامه حتى شغلا عن سيدهما والسؤال عنه . ولكن بربارة ذكرتهما بما جاءوا من أجله ، فقال مرقس للشيخ : « لقد سرنا حديثك ولذ لنا كلامك الذى هذبته الايام وحنكته السنون ، ولكننا نسألك قبل اتمام الحديث عن ركب مولانا المقوقس ، هل مر بكم من هنا ؟ »

قال : « نعم انهم باتوا البارحة هنا واصبحوا فجر هذا اليوم وأقلعوا شرقا وهم الذين بشرونا بقرب الفرج »

فلما راى الجنديان الا بد لهما من الذهاب الى بلبيس مع بربارة ، وان الشمس قد مالت الى المغيب ، عولا على المبيت حيث هم ، فاذا أصبحوا ساروا الى بلبيس . فمكثوا وقد طاب لهم حديث ذلك الشيخ وقال له مرقس : « هل تاذنون لنا بالمبيت عندكم الليلة ؟ »

قال : « على الرحب والسعة يا ولدى » . ونادى أولاده فظهروا من وراء الجدران حيث كانوا مختبئين ، وأسرعوا مهرولين ، بعضهم قد ركب على ثور ويجر خلفه حمارا يحمل بعض البرسيم ، وآخر يسوق امامه الماشية ، وفيهم شاب قد ربط يده الى عنقه ، وكان مع ذلك يحمل بيده الاخرى عصا طويلة يسوق بها سربا من الأوز ، فالتفت الشيخ الى مرقس وقال : « هذا هو أصغر اولادى الذى أشبعوه ضربا كما أخبرتك » . فتقدم الأولاد وهموا بتقبيل يدى الجنديين وهم يرتجفون خوفا ، فابتدرهم والدهم قائلا : « انهما يا أولادى من رجال المقوقس ، فلا تخافوا » . وأمرهم أن يعدوا لهما طعاما ومقاما للمبيت ، وأن يقدموا علفا للثورين ويربطوهما بعمود بالقرب من البيت

فقال الجنديان : « هلم بنا يا شيخنا ندخل هذا الهيكل فنتم حديثنا هناك ، واذا تعبت أسندناك » . فنهض على عكازه واعانه بعض اولاده فدخلوا جميعا من ثغرة فى السور حتى بلغا الهيكل فاذا بآثار خيام وطعام واقدام ، فعلموا أنها آثار المقوقس وحاشيته ، ثم جلسوا على أحجار ملقاة هناك وكانت من أحجار الهيكل فسقطت وفى جملتها قطعة من مسلة ، وقد قام فى صحن الهيكل شجرة من الجميز هائلة تظلل ذلك المكان ، فجلس كل منهم على حجر وأخذوا بأطراف الحديث والشمس قد آذنت بالزوال . وأخذ الشفق فى الظهور واستولى السكون على تلك الخرائب حتى يكاد الرجل يخشى رهبة المكان ، واذا التفت حوله فلا يرى الا انصابا عظيمة تناطح السحاب ، واصناما ترعب قلوب الأبطال ، ولولا ذلك ما دان لها الفراعنة العظام !

فلما استتب بهم المقام قال مرقس للشيخ : « رايناك تبشرنا بقرب الفرج ، فماذا عنيت ؟ »

قال : « قلت يظهر ان الفرج قد اقترب واعنى ان الله قد اراد انقاذنا من هؤلاء الظالمين . ولكننى اتكلم الآن واخاف ان يسمعنى واحد منهم » . فقال الجنديان : « قل ولا تخف ، ليس منهم احد هنا »

فقال الشيخ : « سمعت من بعض جالية الشام انه ظهر فى بلاد العرب رجل عظيم دعا الناس الى دين جديد ، والتفت حوله عصابة قوية من الرجال الأشداء ، حاربوا الروم فى بلاد الشام وغلبوهم ، ويلوح لى انهم لا يقعدون عن طلب مصر فانها اخصب بلاد الروم وأكثرها نتاجا ، ولا اظنهم يلاقون فى فتحها مشقة . وقد سمعت بالأمس من بعض رجال مولانا المقوقس ان هؤلاء العرب قد عولوا على القدوم الينا ، والظاهر انهم لا يزالون بعيدين »

فقال مرقس — وكان افصح من رفيقه جرجس واكثر منه جراة : « ما الموجب لظنك بعدهم ؟ »

قال: « لأنى ارى سيدى المقوقس ذاهبا بموكبه يهتم بتزويج ابنته ارمانوسة بقسطنطين بن هرقل ، وهذا ما علمته ايضا من هؤلاء ، فلو كان العدو على الابواب ما حمل ابنته الى بلبيس وهى فى طريق العدو اذا جاء من ناحية الشام»

فقال مرقس : « ان المصائب قد كتبت علينا ولا ندرى عاقبة هذه الحروب ، ولكنا نرجو النصر لنا ، لأن حصوننا ومعاقلنا منيعة ، وليس هؤلاء العرب الا فئة قليلة من البدو يركبون الجمال ويرعون الماشية ، وأما جنود الروم فرجال محنكون ، واما هرقل فانه شديد البطش . وقد حدثنى ابى انه هو الذى اخرج الفرس من مصر بعد ان ملكوها ورسخت اقدامهم فيها »

فهز الشيخ راسه ومشط لحيته بأصابعه كأنه تذكر امرا ساءه ، ونظر الى مرقس وقال : « لقد ذكرتنى يا ولدى أمورا كادت تذهب من ذاكرتى . نعم ان هرقل اخرج الفرس من مصر بالقوة ، ولكنه لا يستطيع دفع العرب عن بلاده . والظاهر لنا من حاله وحالهم أن دولته قد دنا اجلها لأن النصر مرافق لهؤلاء القوم ، فلم يهاجموا مدينة الا فتحوها ، حتى ملكوا الشام والقدس والعراق واليمن وغيرها ، ولم تستطع جنود الروم الوقوف امامهم ، وما ذلك الا لما اراده الله من انقسامنا وقيام بعضنا على بعض ، والا ما كان العرب ولا غيرهم يقوون على جندنا . وكيف يستطيع هرقل دفع هذا العدو عن بلاده وهو على ما تعلم من حاله معنا ؟ اتظن القبط اذا جاءهم العرب محاربين يقاومون حبا فى الروم ؟ ! بل اقول لك وانا احد الاقباط انى افضل اية دولة تحكم هذه البلاد على دولة الروم لما قاسيناه من جورهم واستبدادهم ! نعم انهم مسيحيون مثلنا ولكن الوثنى خير منهم ، اسألوا هذه الشيبة فتنبئكم

بما قاسيناه من ذلك ، فكم هدموا من كنائسنا ، وأهلكوا من بطاركتنا ، وجردونا من املاكنا ! أهذه اعمال مسيحيين ؟ . انظروا الى هذه البساتين فاني اعمل فى فلاحتها مع أولادي واحفادي فنزرعها كرما ونخيلا فلا يبقى لنا من النخيل الا بعض القطع نجعلها سقوفا لبيوتنا ، وقليل من التمر ناكله ، ولا يكاد يبقى لنا من الكرم الا بعض العنب نصطنع منه شيئا من الخمر ، واما الباقي فياكله المارون من جند الروم ويغتصبه الجباة وغيرهم ، فضلا عما يسوموننا من الخسف والذل . اما ماشيتنا فنصيبها مثل نصيب الزرع ايضا ، وبعد أن كانت ثيراننا عشرة نستخدمها للركوب او لجر الأثقال لم يبق لنا منها الا هذا الثور . وقد سمعت من رجل قدم من الشام حديثا ان العرب بعد أن فتحوا الشام أمنوا النصارى على أموالهم وأعراضهم، واباحوا لهم الصلاة فى معابدهم لا يعارضهم احد فى ذلك ، اليسوا اذن خيرا من الروم ؟

« ولكن آه من حظنا نحن المصريين فان الشقاء قد كتب علينا ! واذكر يوم جاء الفرس بلادنا منذ اربعين سنة ــ وقد كنت كهلا ، وكان مقامى فى الاسكندرية اتجر فى الغلال والذرة وكنت فى سعة من العيش ــ اننا سمعنا أن دولة الفرس قامت على الروم ، وكان ملك الروم اذ ذاك يدعى (فوقا) وكان ضعيفا فحاربوه وفتحوا الشام وقدموا مصر . وكان ملك الفرس يدعى كسرى وقد اشتهر بشدة البأس ، فلما سمعنا بقدوم جنده الى مصر قلنا فى انفسنا عساهم أن يكونوا خيرا لنا من الروم فننجو من جورهم ، ولكن وا اسفاه ، لم يمض زمن حتى علمنا بدخولهم بلادنا ، وكانوا كلما دخلوا بلدة قتلوا أهلها وخربوا كنائسها ، وكسروا نخيلها ، وقد أحصى عدد ما احرقوه من الأديار فبلغ ستمائة ، فاسقط فى يدنا وخفنا عاقبة امرهم الى أن وصلوا الى الاسكندرية وأخذوها ، فاظهروا لنا فى بادىء الأمر أنهم يريدون بنا خيرا ، ولكنهم عاملونا بعدئذ معاملة لم يعاملنا بمثلها الروم ، وذلك انهم دعوا اهل المدينة الى الاجتماع زاعمين انهم يريدون الانعام عليهم واكرامهم ، فتقاطر الناس أفواجا الى مكان الاجتماع ، ولم استطع الذهاب اليه لبعده وانشغالي بعملي . وكان اجتماعهم فى قاعة كبيرة منيعة السور ، فى المكان الذى كان أجدادنا المصريون يعبدون فيه الصنم سرابيس. وحكاية هذا الصنم تذكرني بما أتاه أباطرة الرومان القدماء من الخير لبلادنا . وما جاء به هؤلاء المتاخرون من الشر !»

المسيحيون ومظالم الرومان

قال مرقس للشيخ وقد حلا له حديثه لكثرة ما افاد منه : « وما حكاية الصنم سيرابيس يا سيدى ؟ » . فقال الشيخ : « لايخفى عليكم يا اولادى ان اجدادنا المصريين كانوا يعبدون الاصنام التى ترون بعضها امامكم، وأمثالها كثير فى انحاء القطر ، وبعد أن ظهرت الديانة المسيحية ودخلت هذه الديار تنصر اجدادنا الأقباط وبقى حكامنا الروم على اعتقادهم الوثنى ، واذاقونا العذاب والاضطهاد الوانا ، وأشد تلك الاضطهادات ما هو معلوم بيننا من أمر الإمبراطور دقلديانوس المشهور بظلمه ، وهو الذى قتل الشهداء منذ ثلاثة قرون او اكثر فكان ذلك شر ما جناه الروم علينا ، حتى اذا ما تولى قسطنطين الأكبر اعتنق الديانة المسيحية وحمى المسيحيين . وكانت أمه القديسة هيلانة التى ذهبت الى بيت المقدس وعثرت على صليب المسيح كما تسمعون

« غير أننا ما زلنا نقاسى الاضطهاد ممن خلفوه الى أن تولى العرش الأمبراطور الطيب الذكر ثيودوسيوس الأعظم منذ قرنين ونصف قرن ، وكان حسن الايمان فأفرج عن الأقباط ، وبعث الى مصر بهدم الهياكل الوثنية وبناء الكنائس على رغم الشعب الرومانى . وكان فى الأسكندرية هيكل اسمه هيكل (سيرابيس) فيه صنم هائل كسروا فكه بالفؤوس فتراكضت منه اسراب من الفيران كانت تعيش فيه فسقطت منزلته لدى الوثنيين انفسهم . ومن عهد ثيودوسيوس هذا ثبتت الديانة المسيحية وأخذت تنتشر ، وعمد المصريون الى اقامة الكنائس حتى قام ما قام من الانشقاق بين لاهوتيى الأسكندرية ولاهوتيى القسطنطينية بسبب مسألة الطبيعة والطبيعتين ، مما جر علينا هذا البلاء ، والبقية تعرفونها »

قال مرقس : « وماذا كان من امر الفرس واخواننا الاقباط بعد ان جمعوهم فى مكان واحد؟ » . قال الشيخ : « سمعنا انهم قتلوا الآلاف منهم صبرا ، فلما سمعت بالواقعة حملت أولادى واهلى وما خف حمله من المال ، وخرجت حتى جئت هذا الموضع واقمت به ، وقد خسرت كل ما ملكت يداى ، ورضيت بالفقر والمسكنة تخلصا من الموت . اما الفرس فانهم تمكنوا من دخول القسطنطينية وهى عاصمة الروم كما تعلمون ، ثم علمت أن الروم لما رأوا ضعف ملكهم (فوقا) عزلوه ونصبوا (هرقل) هذا ، وكان قبلا واليا

على افريقية ، فجاء القسطنطينية وقتل فوقا واخوته ، وحارب الفرس مرارا ، ثم يئس من الفوز ، فعزم على أن ينقل مقر ملكه الى تونس ، ولكن ذلك عظم على الروم ، وقام البطريرك اذ ذاك وشد ازره ، فرجع الى محاربة الفرس ، فمكنه الله منهم حتى دفعهم عن بلاده ، وعادت مصر الى حوزته ، ولكنه عاد الى ما كان عليه اسلافه من الاستبداد بنا واضطهاد بطاركتنا ، وكان على الأسكندرية البطريرك بنيامين التقى الورع فاضطهده واستبدل به بطريركا اسمه كورش ، واراد هذا القبض على بنيامين ففر من الاسكندرية الى برية اسقيط ، واقام فى (تيبايس) حيث يكثر نصراؤه وهو هناك الى الآن

« على أن هرقل لم يكتف بهذا العمل ، فلما فاته القبض على البطريرك قبض على أخيه مينا ، وكان لا يزال فى الاسكندرية وأرسله مغلولا الى القسطنطينية . وقد سمعت ان هرقل تملقه استجلابا له حتى يسلم برأيه وهو التعليم بالمشيئة الواحدة والطبيعتين ، فلم يذعن له ؛ فأمر به فطرح فى النار حتى كاد يحترق ، ثم اخرجه منها وجعل يلكمه على فكيه حتى سقطت أسنانه ، وامر بكيس فملىء رملا ثم وضعه فيه وامر بالقائه فى البحر حيث مات شهيدا ! »

وسكت الشيخ قليلا ، ثم استأنف حديثه فقال :

« هذه حكايتنا يا ولدى حكيتها لكم كما شاهدتها ، وتحدثنى النفس احيانا ان هؤلاء العرب يعاملوننا معاملة الفرس والرومان فتكون البلية الثانية شرا من الأولى ، ثم تخطر ببالى معاملاتهم للبلاد التى افتتحوها الى الآن فاراهم افضل لنا من الروم »

ولم يستطع الشيخ أن يتم حديثه لشيخوخته وضعفه ، وكان الجنديان وبربارة وسائر الحضور مصغين اليه وقد ارتاحوا الى حديثه واستأنسوا به ، فالتفت مرقس اليه وقال : « قد سرنا حديثك ايها الشيخ ، ولك شكرنا على ما جئتنا به من الفوائد ، وقد صدقت فى قولك بأننا خلقنا لنشقى ، ولكننا نتوسم فى قدوم هؤلاء العرب خيرا . اما اذا غلبتهم الروم فاننا فى حوزة الروم نحارب بسيفهم ، لنا ما لهم وعلينا ما عليهم ، والا فاننا نكون مع الغالب »

ثم نهض من مجلسه ودنا من الشيخ وهمس فى اذنه قائلا : « ان مولانا المقوقس مصمم على ما ذكرت ، فاذا راى الغلبة للعرب انحاز اليهم ، وهو سيدنا ووالينا ، ولولا الحامية الرومية المراقبة لأعماله لفتح للعرب صدر بلاده ولم يرم عليهم نبلا »

فقال جرجس ــ الجندى الآخر ــ وكان يسمع حديثهما : « ولكن كيف يكون هذا عزمه ويزوج ابنته لقسطنطين بن هرقل ويحملها بنفسه الى بلبيس ؟ ! »

فقطع الشيخ عليه الكلام قائلا : « لا تتجاهل يا ولدى الحقيقة . كيف تستغرب ذلك وانت تعلم أن تمنعه يجر وبالا على جميع الأقباط ، وهو يود كتمان هذا الامر عن كل انسان الى أن يقضى الله ما يشاء »

اما بربارة فكانت مستأنسة بالحديث فلما ذكرت حكاية ارمانوسة وقسطنطين تذكرت سيدتها وما تحمله اليها من الاخبار المهمة ، وخافت أن يسبق السيف العدل فيأتي قسطنطين ويأخذ سيدتها قبل وصولها اليها بخبر اركادبوس ، فقالت للشيخ : « اسمح لى أن أتطفل عليك بالسؤال عن امر يهمنى ، سمعتك تقول خلال كلامك انك عرفت رجلا قادما من الشام ، وهو الذى اخبرك عن معاملة العرب لأهلها ، فهل أخبرك بشيء عن مجيء قسطنطين ؟ »

قال الشيخ : « أظنه قال لى ان قسطنطين قتل فى بعض المواقع ، ولكننى لم اتحقق الخبر »

فلما سمعت بربارة ذلك اختلج قلبها فى صدرها من الفرح ، واحبت ان ترى المخبر فقالت : « ان الخبر اذا تحقق كان من الاهمية بمكان ، اذ يترتب عليه عودة سيدتى ارمانوسة الى منف »

فقال جرجس : « هل تظنين أنها تحزن اذا مات قسطنطين ؟ »

قالت : « لا ادرى يا سيدى ، فقد تحزن لأن اقترانها بابن امبراطور الرومان شرف عظيم ، ولكن الله يفعل ما يشاء ، وأود كثيرا ان اعرف الحقيقة لأن ارمانوسة سيدتى وأنا وصيفتها ، ويهمنى هذا الخبر كما يهمها، فهل أستطيع لقاء ذلك الرجل ؟ واين هو ؟ »

فقال الشيخ : «لا اعرف ، ولكنه كان هنا منذ بضعة أيام وقد سافر لزيارة بعض الأديرة ، ولا أدرى اين هو الآن . على أن الخبر اذا كان صحيحا فلا اظنه يخفى على مولانا المقوقس والمواصلات جارية بينه وبينهم ، والجواسيس منبثة فى سائر الانحاء . ويغلب على ظنى أن العرب اشاعوا هذا الخبر تثبيطا لعزائم الروم ، وعلى كل حال فلا خفى الا سيظهر »

وبينما هم فى الاحاديث اذ جاء أحد أبناء الشيخ حاملا علبة من الخشب قدمها الى الشيخ وفيها شيء من الخمر المصنوعة من التمر ، فتناولها الشيخ وأعطى الجنديين اياها قائلا : « اليكما قليلا من الخمر فانها من بقايا غلة نخيلنا هذا العام ، وهى لذيذة » . فتناولا العلبة وشربا قليلا واعطيا الشيخ فشرب

ثم قال الغلام : « ان الطعام قد حضر ، فهل تتفضلون بتناوله؟ » . فنهض الجميع وكان الجوع قد أخذ منهم مأخذا عظيما ، وعادوا الى البيت فاذا بمصطبة صغيرة قد مد عليها سماط بسيط عليه بعض الأطعمة فى آنية من خشب الجميز واقداح من الخزف وبعضها من الخشب ايضا فيها بعض الخمر،

والمصطبة مصنوعة من الخزف الملون ، وقد مد فوقها سقف من جذوع النخل وسعفه ، قائم على دعائم من خشب السنط

وجعل الشيخ يعتذر لضيوفه عن تقصيره فى ضيافتهم ، فتناولوا ما حضر وقضوا هزيعا من الليل فى الاحاديث الى ان جاءهم النعاس فناموا

▭

فلنتركهم نياما ولنذهب بالقارىء فى رفقة موكب المقوقس الى بلبيس . اما الموكب فكان مؤلفا من عربة المقوقس وهودج ارمانوسة ، ورجال الحاشية وفيهم الراكب والراجل، وكان يحمل الهودج ستة من العبيد : اربعة من الوراء واثنان من الامام ، ووراء المركبة رجل يحمل مظلة من ريش النعام . ومركبة المقوقس يجرها فرسان من جياد الخيل عليهما السروج الفضية يقودهما سائسان فى زى خاص بهما ، وكلما مر الموكب بقرية أو بلدة خرج أهلها لاستقباله بالزهور والرياحين ، وكانوا قد برحوا عين شمس فى الفجر على أن يدركوا بلبيس مساء ذلك اليوم ، فمالت الشمس نحو المغيب وقد اشرفوا على بلبيس ، وهى قائمة على أرض مرتفعة قليلا ، وفى منتصفها قصر شامخ اعدوه لاستقبال العروس ، وما دنوا من المدينة حتى خرج حاكمها وجندها ورجال حكومتها بالازهار والموسيقى فاستقبلوا الموكب ، وتقدمت جماعة من الجوارى تتقدمهن نساء الحاكم باكاليل الازهار الى خارج السور، فرافقنه حتى اقترب من القصر فأنزلن العروس من هودجها ، ودخلن الحديقة بين عزف الموسيقى وترتيل المرتلين ، حتى وصلن الى القاعة المعدة لاستقبالها ، وهى مفروشة بأحسن الاثاث من الخز والديباج ، ومزينة بأحسن الرسوم . ثم جاءت جواريها يعددن لها ملابسها لتغيير ثياب السفر بعد أن قدمن لها المرطبات والمنعشات ، وكانت امراة الحاكم تعد نفسها سعيدة لنزول تلك الضيفة عليها

اما الحاكم فاستقبل المقوقس وحاشيته وانزلهم على الرحب والسعة ، وقد اووا الى الفراش مبكرين التماسا للراحة من وعثاء السفر . وفى الصباح اوصى المقوقس حاكم بلبيس خيرا بابنته وودعها على أمل اللقاء قريبا ، فبكت هى لفراقه بكاء مرا ، خوفا من أن يكون الوداع الاخير لعلمها بما هى فيه وما قد أعد لها من الشقاء ، وجلست بعد سفره وحيدة تفكر فى حالها ، وقد هاج بلبالها ، وهى لاتستطيع بث شكواها لأحد وشعرت بافتقارها الى بربارة خادمتها الامينة اذ كانت لا تعلم بما جرى لها بعددخولها الحصن، ولما تصورت الحصن تذكرت امرها مع اركاديوس وقسطنطين ، فاشتد عليها الحزن حتى بكت وهى تحاذر أن يراها احد

قضت سحابة ذلك اليوم فى تلك الهواجس لايهدأ لها بال ، ولا تنفك مطلة

تارة من هذه النافذة وطورا من تلك ، تنتظر مجيء بربارة ، وتحسب شجر النخيل عن بعد أشباحا آدمية لفرط قلقها

اما بربارة فقد باتت والجنديين فى عين شمس على نية التبكير الى بلبيس ، فلما اصبحوا أعدوا المركبة واطعموا الثورين علفا كافيا ، ولكنهم خافوا الا يكونوا على بينة من طريقهم فسألوا الشيخ : هل يعرف احداولاده الطريق؟ فقال : « ان ولدى هذا يعرفها جيدا ، وكثيرا ما ذهب لابتياع بعض الاقمشة وبيع ما يفيض عندنا من غلة ارضنا » . ثم ناداه فحضر فقال : « عليك يا ولدى بمرافقة اصحابنا الى بلبيس راكبا الثور ابيس فتصل بهم اليها ثم تعود بلا ابطاء لئلا نقلق عليك »

فلما سمع مرقس اسم ابيس تذكراسم العجل الذى كان المصريون يعبدونه قديما فقال : « اراك دعوت ثورك باسم اله المصريين القدماء » . فضحك الشيخ ثم قال : « انما دعوناه بذلك لحكاية غريبة اتفقت لنا وكانت سببا لنفع عظيم ! »

قال : « وما هي حكايته ؟ » . فقال : « ان هذا الثور قوى العضل ، قد عودناه المناطحة ففاق جميع الثيران ، ولا يخفى عليكم ان مناطحة الثيران عادة قديمة فى هذه البلاد ولكنها نادرة اليوم ، أما هذا الثور فقد حافظ على تقاليد أجداده من اتقان هذا الفن ، فاتفق ان بعض الناس ممن يأتوننا للمبادلة على الغلة بالكرم كان عندهم ثور مناطح ، وكانوا معجبين ببطشه ، فطلبوا الينا ان نراهنهم على مناطحته ثورنا فراهناهم على بقرة نأخذها منهم اذا غلب ثورنا او نعطيهم غلة نخيلنا هذا العام كلها اذا غلب ثورهم ، فقبلنا الشروط ، وتناطح الثوران ، وكانت الغلبة لهذا الثور ، اذ كسر قرن ثورهم ، واستولينا على البقرة ، ودعوناه من ذلك الحين (أبيس) اشارة الى براعته فى المناطحة مثل اجداده ثيران المصريين القدماء ! »

فعجب الجنديان لهذه الحكاية ، ثم اسرع المسافرون بالرحيل بعد أن تناولوا شيئا من الطعام ، وحملوا معهم التمر الجاف يتناولونه فى اثناء الطريق اذا جاعوا لئلا يمتنع عليهم الطعام فى طريقهم ، وملأوا قربتين من الماء ، وساروا يتقدمهم ابن الشيخ راكبا الثور أبيس وقد كممه لئلا تخطر له المناطحة فى الطريق مع الثورين الآخرين ، وودعوا الشيخ والقرية وساروا

وما انفك الجندى مرقس منذ برحوا الحصن فى شغل شاغل ، وكان قد تمنى عند خروجه من الحصن الا يجد المقوقس فى عين شمس رغبة منه فى الشخوص الى بلبيس لحاجة فى نفسه بالقرب منها ، ولكنه أسرها ولم يخبر بها أحدا . فلما جاءوا عين شمس وعلموا باقلاع المقوقس سر كثيرا ، وعند ركوبهم فى الصباح عزم على أن يمر بالبلدة التى له فيها ذلك الغرض دون أن يعلم رفيقه

فساروا سحابة يومهم ، وبربارة قلقة خوفا من تأخر الرسالة ، فلما كانت الظهيرة وقفوا للاستراحة والغداء بالقرب من مزرعة لبعض الفلاحين ، فيها ساقية تظللها جيزة كبيرة ، ثم نهضوا وواصلوا سيرهم حتى ادركهم المساء وهم على مسافة طويلة من بلبيس ، فأرادت بربارة ان يواصلوا السير حتى يصلوا اليها ولو ليلا ، فقال مرقس : « الافضل ان نبيت الليلة فى هذه البلدة ونصبح بلبيس فى الغد . لأن الطريق لا يخلو من الخطر » . فاستحسن الرفاق رايه وعرجوا على بلدة بالقرب منهم ، وطلبوا مبيتا فى منزل قسيسها فرحب بهم وبخاصة لما عرف انهم من جند المقوقس ، فنزلوا عنده ، واقامت بربارة فى دار النساء فبالغن فى اكرامها وهن لايعرفنها ، أما صاحب ابيس فاستأذنهم فى العودة لاستغنائهم عنه فأذنوا له وحملوه السلام لوالده

□

سر مرقس كثيرا لنجاحه فى مأربه ، وماكادوا يصلون الى بيت القمص حتى ترك رفيقه هناك وسار الى طرف البلده الآخر ، حتى بلغ منزلا على ترعه صغيرة ، وقد خيم الغسق ، ووجد الباب مقفلا وعليه بعض الجند ، فلم يعبأ بهم بل طرق الباب طرقا خفيفا فناداه مناد من الداخل : « من الطارق ؟ » . فأجاب : « انا مرقس . افتحوا ! » وكان ينتظر منهم انهم حالما يسمعون صوته يتهللون فرحا ، ويبادرون الى الباب يرحبون بالقادم ، ولكنهم تباطأوا وسمع لغطا وبكاء . ثم فتح الباب واذا بصاحب البيت وهو رجل شيخ يخرج وفى يده مصباح . فلما رآه مرقس سلم عليه وهم بتقبيل يديه ، فقبله الشيخ فى عنقه ، فشعر مرقس بدموعه تتساقط فبغت ونظر اليه وسأله عن سبب ذلك فقال : « ادخل يا ولدى لأنبئك بما جرى » . فدخلا الى غرفة الاستقبال واقفلا الباب وراءهما . فاذا بامراة جالسة حزينة ، ومنديلها بيدها تمسح به دموعها . فازداد ذهوله والح فى السؤال عن السبب وقال : « ما بالك ياخالة ؟ ماذا جرى لكم ؟ واين هى مارية ؟ » . فقالت المراة وقد علا بكاؤها : « واية مارية تعنى يا ولدى ؟ » . فأجاب وقد بغت : « أية مارية ؟ اين هى مارية ؟ قولى لى » . قالت وقد خنقتها العبرات : « ان مارية ياولدى سيأخذونها بعد يومين ، ولن تراها عيوننا . آه منهم ! » . قالت ذلك وشرقت بدموعها

فصاح مرقس وقد ثارت فيه الحمية : « والى اين يأخذونها ؟ ومن هم ؟ » قالت : « سيأخذونها منا ويقدمونها ضحية للنيل يا ولداه ! »

فعلم مرقس ان الاختيار قد وقع عليها فى هذه السنة لتلقى فى النيل كما هى العادة عند المصريين ، اذ كانوا يلقون كل سنة فى النيل فتاة بحلاها استدرارا للغيث ورغبة فى الفيضان ، وتحقق لديه ان حبه لها وخطبته اياها قد ذهبا ادراج الرياح ، ولكن الحب غلب عليه فنادى بأعلى صوته : « انهم لن

ياخذوها واني لافتديها بروحي ومالي .. اريد ان اراها الآن »

قالت : « واين تذهب بها ؟ الم تر الشرطة واقفين بجوار البيت يترقبون حركاتنا وسكناتنا ؟ فاذا اتينا امرا فانما نجني على انفسنا »

فقال : « ولكن العادة الا ياتوا هذا الامر الا برضاء ابيها ، فهل رضي عمي بذلك ؟ »

فقطع عمه عليه الكلام قائلا: « كيف ارضى بهذا الامر؟ لقد حاولوا ارضائي فابيت ، فارادوا اخذها بالعنف بدعوى انهم ينفذون قضاء الله وان القرعة في السنة الماضية وقعت على فتاة اسرائيلية ، وفي هذه السنة وقعت القرعة على مارية »

فصاح مرقس : « لا فاض النيل ولا ارتوت الارض اذا لم يكن ذلك الا بهذه الطريقة ، اطمئنوا والقوا الامر علي وانا انقذها . اين هي لاراها ؟ »

فقالت امها : « هي في غرفتها تندب وتبكي يا ولداه وتابى ان تكلم احدا او تر احدا »

قال : « اريد ان اراها فلعلي استطيع تعزيتها ، وانا اعلم اني قادر على انقاذها » . وكان قد تذكر بربارة ، وانها مقربة الى المقوقس ، فبدا له ان يستنجدها ، فتذكر امر مارية للمقوقس او ابنته فيصدر الامر باستبدال اخرى بها . فقال : « اروني اياها ولا تياسوا من رحمة الله »

فامسكته امراة عمه وقادته الى غرفتها وهي ترتعش كيدا وحزنا ، ولما سمعت الفتاة وقع اقدامهما نادت بصوت ضعيف كالانين من فرط ما ناحت وبكت وقالت : « آه انقذوني من مخالب الموت ، او اروني مرقس قبل مماتي » . ثم خنقتها العبرات فأجابها مرقس قائلا: « لاتخافي يا مارية ها انذا قدجئتك جاءك الفرج من عند الله »

فلما سمعت صوته نهضت لساعتها ، وارتمت على قدميه قائلة : « آه ان مارية لم يبق لها في هذه الدنيا الا يوم وليلة ، فأشفق على ضعفي وانقذني اذا كان ثم امل في الحياة . انقذني . يا ابتاه ويا اماه : انتشلاني من مخالب الموت ، اشفقا على صباي . آه من الحياة : ما أحلاها وما امرها ! »

فلم يتمالك مرقس نفسه عند سماع كلامها عن البكاء ، ثم تجلد واخذ بيدها ، فاذا هي باردة كالثلج ، وكانت الفتاة قد اغمي عليها فرشوها بالماء حتى افاقت فأجلسوها ، وعينا مرقس لاتفارقانها وقلبه يكاد ينفطر ، ثم نظر اليها وقال : « لا تخافي يا مارية ، فاني قد دبرت وسيلة لانقاذك ، وانا واثق بأن الله لايحرمني من قربك »

فلما سمعت الفتاة كلامه عادت اليها قواها وتجلدت ، وجلست وهي تنظر اليه بعينين مملوءتين بالدمع ، وقد ذبلت جفونهما وتكسرت اهدابهما ،

وامتقع لون وجهها ، ولكن الجمال بقي متجليا فيه ، فازداد هيام مرقس بها حتى هان عليه الموت في سبيل انقاذها ، ثم رأى الوقت يكاد ينفد ، ولم يبق لميعاد اخذها الا يوم وبضع ساعات ، فوقف ونظر الى الفتاة وقال : « قلت لك لا تخافي يا ملرية ، فان الذي انقذ يوسف من البئر ودانيال من جب الاسود ، قادر على أن ينقذك من مخالب الموت ، وها انذا ذاهب لأنظر في الامر وارجع اليكم في الغد ان شاء الله »

قال ذلك وهم بالخروج فامسكت الفتاة بثوبه وقالت : « لا . لاتذهب لأني لا ارى حيلة تستطيعها لانقاذي ، وقد قدر الله أن اذهب فريسة العادات والطقوس ، فدعني أتمتع برؤيتك هذه الساعات القليلة »

فازداد هيام مرقس ، وثارت المروءة في صدره ، واستسهل كل صعب وقال : « تشجعي ياعزيزتي وخففي عنك ، فقد قلت لك اني قادر على انقاذك اذا ذهبت الساعة ، أما اذا بقيت هنافالوقت يذهبوتضيعالفرصة من يدنا ، فاستودعك الله الى الغد لأن الميعاد الذي ضربوه لك لاينتهي قبل صباح بعد غد ، وأنا اعود اليكم في ظهيرة الغد »

وخرج فأحست مارية ان قلبها يتبعه ، واما ابوها فرافقه الى الباب وقال له : « احذر ياولداه أن يشعرالحرس بما انت عازم عليه فيشددوا النكيرعلينا ، فاذا كان لنا بقية أمل فيالنجاة قطعوها » . قالذلك وتنهد، ولحقته امراة عمه وهي تقبله وتقول : « اذهب يا ولدي في حراسة الله ، وهو يكون معك ويبارك عملك » . فودعهما وخرج لايكاد يرى طريقه لفرط ما الم به ، وسار قاصدا بيت قسيسالبلدة علىأملان يكلم بربارة تلك الليلة ويتضرع اليها أن تخاطب سيدتها أرمانوسة في الامر ، وهذه تسأل اباها ان يفرج عن الفتاة اما بالعفو ، واما بالاستبدال

وبينما هو في طريقه رأى الحرس وقوفا بالسلاح ، وكان لم يعرهم التفاتا حين مجيئه ، وأما الآن فكان يرتاب في كل احد ، لفرط ما انتابه من الجزع . ولم يبلغ بيت القسيس الا بعد العشاء ، ولم يكن قد ذاق طعاما فطرق الباب فاذا القسيس قد أعد طعام ضيوفه واستبطأ مرقس ، فلما رآه عائدا رحب به واستقبله وقال : « لقد أبطأت علينا يا ولدي ، وها نحن في انتظارك على المائدة » . فشكر له ودخل . وأمارات الكدر والكآبة تلوح في وجهه وهو يحاول اخفاءها ، فلحظ القسيس فيه ذلك فسأله عن سبب كدره فغالطه ودخل معه الى المائدة ، وكان رفيقه جرجس في انتظاره ، وقد قلق لغيابه ، فسلم عليه وسأله عن سبب غيابه ، فذكر انه ذهب لزيارة بعض [illegible] به وعاد

واما مرقس فلم يكن يستطيع الاكل ، واراد ان يكلم بربارة [illegible] م انها مع زوجة القسيس في الغرفة الاخرى تتناولان العشاء ولايستطيع مقابلتها الا في الصباح ، فصبر على مضض وجلس الى المائدة ، وتظاهر بأنه يؤاكلهم ولكنه

كان مشغول البال لايفوه بكلمة حتى كلمه القسيس سائلا : « هل عرفت على من وقعت القرعة هذه السنة لتكون ضحية النيل ؟ »

فخفق قلب مرقس وارتعدت فرائصه عند سماع كلمة ضـحية النيل ، ولكنه تجلد وتجاهل وقال : « لاياسيدى لم اعلم » . وغلب عليه الكدر حتى غص بالطعام ، ولكنه اراد سماع تتمة الحديث فقال : « ولكنك لم تقل لى على من وقعت ؟ »

قال القسيس : « وقعت على مارية بنت المعلم اسطفانوس العسال ، وهى فتاة على جانب عظيم من التهذيب والتقوى والجمـال ، وقد جاء والدها الى بالامس وطلب أن اعاونه على انقاذها فتفطر قلبى لمـا شـاهدته من لهفتـه على ابنته ، ولكن أنى لى أن أعينه ؟ ! »

فقال مرقس وهو يحاول التجلد وتكاد عواطفه تغلبه : « ولـكن ما هذه العادة القبيحة ؟ وهل تظن النيل يعقل حتى يكون لهذه الضـحية تأثير فى مجراه ؟ »

قال : « لا يا ولدى ، انها من العادات الوثنية التى تنفر منها أذواقنا ويأباها الطبع ولا تسلم بها الديانة ، بل تنهى عنها لأنها قتل للنفس »

فقال جرجس : « وا أسفاه على هذه الفتاة ! كيف تكون حالها الليلة ؟ وكيف يأتيها الرقاد ؟ بل كيف حال ابويهـا ، وماذا يصـيبهما اذا نفذ الامر فانهـا وحيدتهما ؟ »

فقال القسيس : « واني لأعجب أيضا كيف يحكمون باختيارها ، وينفذون الحكم فيها بغير رضاء ابيها ، والعادة انهم اذا اختاروا فتاة أرضوا اباها بمال أو شيء آخر حتى يسمح لهم بابنته ، وانا أعلم يقينـا ان المعلم اسطفـانوس لايرضى ببيع ابنته ، فان فى ذلك عارا مبينا »

فقال جرجس : « أى شيء يجرى بيننا ياسيدى على سنة العدل ، ونحن نقاسى كل يوم من الامور ما تنهى عنه الديانة والطبيعة »

فقال القسيس : « قلت لكم انى أعجب للحكم عليها بدون ارضاء والدها ، ولكننى اعترف لكم بأمر عرفته سرا وهو الذى جر عليها هذا الحكم ، فهل تعدوننى بكتمانه اذا أخبرتكم به ؟ »

فتوسم مرقس بابا للخير ، وكان غارقا فى بحار الهواجس ، فقـال : « نعم نكتمه »

فقال القسيس : « علمت ان شيخ البلدة طلب هذه الفتاة زوجة لابنه ، فرفض أبوها ، فحقد عليها ووشى بها الى حاكم بلبيس وحمله على قتلها على هذه الصورة »

فقال جرجس : « ولماذا لايرضى ابوها بابن الشيخ ، وهو خير أهل هذه القرية ؟ »

قال القسيس : « سمعت ان هذه الفتاة عالقة القلب بفتى تحبه هى ويحبه ابوها كثيرا ، وقد عقد النية على تزويجها به ، وهما يعلمان الآن أن سبب هذا الشر رفضهما ابن الشيخ ، وقد سمعت الرواية ولا أضمن صحتها »

فلما سمع مرقس هذا الكلام اقشعر جسمه وهبت الغيرة فيه ، وخنقته العبرات ، فأمسك عن الطعام متظاهرا بانحراف صحته ، ونهض عن المائدة ملتمسا قضاء حاجة له فى حديقة البيت ، فلم يعترضه أحد ، فخرج حتى خلا الى نفسه ، فمسح دموعه واحتار فى امره هل يطلع القسيس على حقيقة شأنه ، أو يبقيه سرا مكتوما ، ولكنه تجلد وعاد يريد سماع تتمة الحديث الى آخره ، فاذا رأى فائدة من الكلام تكلم

فلما دخل الغرفة عاد القسيس الى كلامه فقال : « ومن الغريب ان هذه المسألة لم تجر العادة بالقطع بها الا بعد البحث والتدقيق وموافقة مولانا المقوقس عليها ، ولكننى عرفت انه لم يعلم بها هذه المرة ، ولعل ذلك ناتج عن انهماكه فى امر ابنته وزواجها وبالاخبار التى تواترت عن قدوم العرب على ما بلغنا ، ولذلك فهو لن يحضر الاحتفال بضحية النيل هذا العام ، ولن يحضره الاعيرج ولا رجاله لأنهم فى شغل شاغل كما قدمنا ، ولكن شيخ هذه البلدة سيذهب هو وبعض رجاله ، وهى فرصة انتهزها لانهماك المقوقس ، ونراه مسرعا فى تنفيذها خوفا من فواتها » . ثم اظهر القسيس الملل من هذا الحديث وأراد تحويله فقال : « هل سمعتم شيئا عن العرب ؟ »

فقال جرجس : « أما العرب فقد تحققنا قدومهم لحربنا ، ونرى جنودنا فى استعداد لملاقاتهم ، ولكنهم لم يبلغوا الحدود بعد ، وقد ارسل مولانا المقوقس جانبا من الحامية الى الحدود ، واقام جانبا آخر فى حصن بابل ليدفع بهم الاعداء عن مدينة منف »

فتبسم القسيس متهكما ولم يجب . فقال له جرجس : « وما الذى أوجب تبسمك أيها الاب المحترم ؟ »

قال : « أبتسم لقولك ان المقوقس يعد رجاله لدفع العرب ، والظاهر انكم على كونكم من رجاله لاتعرفون حقيقة مقاصده ! »

فتجاهل جرجس خيفة أن يكون فى مجاهرته ضرر عليه لأنه من الجند . فقال : « وما الذى يعلمنا ؟ وهل لمثلنا أن يعلم بمقاصد رئيسه السرية ؟ نحن نعلم أننا نتهيأ للدفاع عن بلادنا ومحاربة العرب اذا جاءونا ، هذا ما يظهر لنا من غرضه »

فقال القسيس : « اما مقاصده الحقيقية يا أولادى فهى أن يسلم هذه البلاد لأى فاتح كان تخلصا من جور الروم وسوء معاملتهم لنا معاشر الاقباط » .

فبالغ جرجس فى التجاهل لـكى يتحقق ما سـمعه فقال : « ربما كان قولك مبنيا على الحدس ، لأن الظواهر الحالية تنفى هذا القول ، فان المندقورالاعيرج بعدته ورجاله الروم ورجالنا الوطنيين قد تحصنوا جميعـا فى حصن بابل ، فكيف تكون مقاصده كما تقول ؟ »

فهزالقسيس راسه مستهزئا وقال : « يظهر ياولدى انك لم تختبرالدنيا ، اتحسب هذه الظواهر دليلا على حب المقوقس الدفاع ؟ الا تعلم انه انما يفعل ذلك خوفا من الاعيرج قائد الحامية الرومانية ؟ وقد قلت لى فى أثناء حديثك ان جنود الروم فى الحصن مع الوطنيين ، وهل من الوطنيين جند فى مصر؟ »

قال : « أريد حاشية مولانا المقوقس »

قال : « أما حاشية المقوقس فشرذمة لايعتد بها ، انما العمدة على الجند الرومان ، فهم حامية البلاد ، فاذا علموا بسريرة المقوقس قتلوه لا محالة ، وانا اخبرك الخبر اليقين واؤيد قولى بالبرهان ، ولـكننى أطلب منكم حفظ ذلك سرا » . ثم خفت صوته وتطاول بعنقه نحوهما وقال : « ان المقوقس جمعنا نحن القسس الاقباط فى اجتماع سرى لم يعلم به أحد ، واطلعنا على مقاصده الحقيقيةواوصانا بالكتمان، ودربناعلىالطريقة التىنتصرف بها عندالاقتضاء. فما رأيك بعد ذلك ؟ » . فقال جرجس : « اما وقد قلت هـذا فأنت أعلم بالحقيقة ! »

وكان مرقسفى أثناء تلك المحادثةغارقا فى بحارالهواجس، وافكاره مشتغلة بأمر حبيبته ووالديها والطريقـة المثلى لانقـاذها من هـذا الشرك ، فأدرك القسيس ارتباكه فقال له : « مالى أراك صامتا يا ولدى ؟ » . فقال وقد افاق من هواجسه : « انى افكر فى تلك الفتاة وما وقع عليها من الظلـم ، وأرانى شديد الميل لنصرتها واعلم انى اذا فعلت ذلك أنقذت نفسا من القتل »

قال : « نعم يا ولدى وحبذا لو كان ذلك بيدى فلا أتوقف لحظة عناغاثتها ، ولكننى اذا اظهرت هذا الميل وقعت فى شر مثل شرها ، لأن حاكمنا ينتمى الى الروم وهم يصغون الى ما يقوله ويعملون برايه ، وزد على ذلك ان الوقت قد فات ، ولا وسيلة لانقاذ الفتاة الا بأمر من المقوقس نفسه وتصديق الاعيرج عليه ، اما المقوقس فبعيد منا الآن لأنه كان فى بلبيس ، ورأيناه عائدا منها فى هذا المساء جنوبا ، وأظنه يريد منف ولا حيلة فى الامر »

فعظمت المصيبة على مرقس ، ثم تذكر بربارة ودالتها على ارمانوسـة ، فأمل أن ينال بغيته على يدها ، وتمنى لو استطاع ان يكلمها فى تلك الساعة ، ولكنه خاف مغبة الامر فأعمل فكره ، ثم قال للقسيس : « هل تسـمح لى بكلمة على انفراد ؟ » . فقال : « تعال يا ولدى » . فخلا به وقص عليه الخبر كما وقع ، واخبره انه هو خطيب الفتاة ، وانه تعهد بانقاذها منمخالب الموت، وان الموت أهون عليه من التقاعد عن ذلك ، ثم انبأه بامر بربارة وانها خادمة

ارمانوسة الخاصة ، ولعلها تتوسط له عند سيدتها

فقال القسيس : « ولكنني لا ارى ان فى استطاعة ارمانوسة أن تعينك ، فحاكم هذه البلدة ينتمى الى الروم ولا يصدع الا بأمرهم ، ولا سيما أن له مأربا فى قتل الفتاة . ولكني سأدعو لك بربارة لعلها تعرف وسيلة أخرى ». ثم بعث اليها فحضرت ، فقص مرقس حكايته من أولها الى آخرها ، وتوسل اليها ان تبذل جهدها فى الغد لانقاذ الفتاة

فقالت بربارة : « انى اشارككما فى الشفقة عليها ، وسأبذل ما فى وسعى لانقاذها ، والاتكال على الله ، أما سيدتى ارمانوسة فانها تعمل بكل ما اقوله لها ، فاذا كان الامر فى يدها فثقوا ان الفتاة ناجية باذن الله ، والا فالامر له يفعل ما يشاء » . ثم فكرت قليلا كأنها تذكرت بابا للفرج فقالت : « انى أضمن انقاذها ، اننا سنكون فى بلبيس صباح الغد ، وهم لن يأخذوا الفتاة الى النهر الا بعد غد ، وسأجتمع بمولاتى قبل ذلك فندبر الامر

ولما انتهوا من حديثهم ذهب كل الى منامه . أما مرقس فلم يغمض له جفن تلك الليلة ، فبات تتقاذفه الهواجس بين اليأس والامل والخوف والرجاء ، وبكر فى الصباح الى بربارة فاعد المركبة هو ورفيقه وودعوا القسيس وساروا قاصدين بلبيس



الاحتفال بضحيه النيل (١)

كان حاكم تلك البلدة قد هم بقتل مارية انتقاما منها ، فاتخذ أمر ضحية النيل ذريعة لتنفيذ مآربه وسعى جهده لدى حاكم بلبيس حتى أذن له بالنيابة عن المقوقس ان تلقى الفتاة فى النيل بعد غد ذلك اليوم ، وجعل الحرس حول منزلها حرصا على تنفيذ ماربه ، لعلمه انهم اذا تمكنوا من الوصول الى المقوقس عرقلوا مساعيه

وكان الحراس يقضون الليل ساهرين فلما جاء مرقس ودخل المنزل جعلوا يتجسسون ويتسمعون لما يدور من الحديث فسمعوا توعده وعزمه على انقاذها . فلما خرج من البيت ذهب بعضهم الى الحاكم واخبره بما سمع ، فخاف أن تذهب مساعيه عبثا اذا أبطأ فبكر فى الصباح التالى وبعث الى أهل الفتاة أن يعدوا عدتهم لأخذها الى النيل فى ذلك اليوم ، زاعما ان دواعي خاصة الجأته الى الاسراع . وأمر بعض النساء المعدات لمثل ذلك الاحتفال ان يذهبن الى الفتاة فيلبسنها أفخر اللباس ، ويجعلن عليها أحسن ما لديها من الحلى والمجوهرات ، ويهيئنها كما هى العادة مع ضحية النيل . وبعث الى قسس تلك البلدة أن يسيروا معها بالملابس الرسمية

على ان العادة كانت أن يحضر هذا الاحتفال البطاركة والأساقفة والحكام والاعيان والوجهاء . ولكنه أراد الاسراع فى الامر لئلا تفشل مكيدته ، وبعث الى صاحب القارب المعد لحمل الضحية ان يكون على أهبة الرحيل ، وكان قد احضر قاربه بقرب تلك القرية الى ترعة متصلة بالنيل . ثم زينوا القارب باحسن أنواع الزينة كالأعلام والصور الملونة ، وعلقوا فيه أكاليل الأزهار والرياحين ، وجاءوا الى جوار بيت الفتاة ، وفيه الحرس والجند بسلاحهم من الرماح والنبال والسيوف

ولا تسل عما حل بأهل الفتاة عندما جاءتهم النساء ليلبسنها الثياب الفاخرة ، فانهم وقعوا فى وهدة اليأس ، ولم يعد لديهم باب يتوقعون منه

(١) ان القول بضحية النيل عند المصريين لم يثبت وانما جئنا به هنا للاشارة الى مايقال من هذا القبيل وفيه لذة وتسلية أما رأينا فتجده مفصلا فى الجزء الرابع والعشرين من السنة الثالثة من الهلال الصادر فى ١٥ أغسطس سنة ١٨٩٥

فرجا . ومما زاد فى مصيبتهم انهم لم يكونوا يستطيعون البكاء ولا الندب ، لئلا يقال انهم استكثروا الهدية على النيل فيغضب ويمسك عنهم ماءه

دخلت النساء وألبسن الفتاة أحسن رداء عندها من الحرير الأحمر النقى، وجعلن على رأسها وكتفها اكليلا من الازهار تتدلى منه فروع على ذراعيها ، وعلقن على راسها وصدرها كل ما كان عندها من الحلى الثمينة ، وغللن يديها ورجليها بسلاسل من الحديد علقن فيها أشياء ثمينة ، وجللنها بازارمن النسيج الأبيض الرقيق غطاها من راسها الى قدميها ، وانزلنها الى القارب، ونزل معها القسس بالملابس الرسمية يصلون وينشدون ، ونشروا الشراع، فمضى القارب جنوبا قاصدا راس الدلتا عند التقاء فرعى النيل ، وقد غادروا ابويها فى حالة يرثى لها ، على انهما لم يستطيعا البكاء الا بعد أن مضى القارب وأمنا سماع نحيبهما !

أما القارب فسار يخترق عباب الماء ، وقد علقوا على صدر الفتاة صكا ادعوا انه صك الرضاء من والدها ، ومعه الامر الصادر بوقوع الاختيار عليها أن تكون غنيمة باردة لماء النيل . ولما وصلوا فى المساء الى ضفة النيل رسا القارب عند رصيف مبنى من حجارة ضخمة عليه نقوش هيروغليفية ، فأنزلوا الفتاة الى البر ، وقد نصبوا خياما لمبيتهم على نية التبكير فى الصباح التالى لتقديم ضحيتهم

وكانت مارية فى أثناء ذلك بين الذهول والدهشة ، فلما انزلوها الى البر قدم لها بعضهم طعاما فأبته ، وكانت لفرط مابها كلما رات شبحا ظنته مرقس قادما لانقاذها . وباتت تلك الليلة والناس يتأهبون للاحتفال بتضحيتها

وكان ابن الحاكم لايفتر لحظة عن التشفى منها ، فأوسعها لكزا ولكما ، وفى الليل اتى اليها وتهددها قائلا: « اين مرقس الآن؟ ها انت ذى فى قبضة يدى، وغدا تذهبين ضحية النيل » . فصمتت ولم تجبه

وفى الصباح التالى بكروا وحملوها واوقفوها على حافة الرصيف ، وعلقوا بأغلال قدميها ثقلا من حديد للاسراع فى اغراقها ، ووقف القسس بمباخرهم وصلواتهم يتوسلون الى الله تعالى أن تكون ضحيتهم مقبولة لدى النيل . وكان فى نية الحاكم أن يلقيها بغير احتفال ولا صلاة ، فدار القسس حولها دورة يصلون وينشدون ويبخرون ، ثم داروا الدورة الثانية ، وقد أحاط الجند والحرس بالناس وكانوا قدتقاطروا الوفا ، والحاكم يستحث القسس على اتمام الصلاة ، حتى اذا كانوا فى الدورة الثالثة سمعوا صوت نفير عسكرى يأمر بوقف الاحتفال ، فالتفت الحاكم واذا بمركبة مسرعة عليها جنديان يحملان علما عليه صورة المقوقس وكتابة يونانية وقبطية ، فاخترقت المركبة صفوف الجماهير التى كانت تفسح لها الطريق حتى دنت من الحرس فنزل احد الجنديين بأسرع من البرق ، وأخرج رقا من البردى من صندوق صغير

من خشب الصندل ودفعه الى الحاكم . أما الجميع فلما شاهدوا المركبة بهتوا وتطاولت أعناقهم ليروا ما جاء به الرجلان . أما الحاكم فتناول الكتاب وفضه ونظر الى التوقيـــع فاذا هو خاتم أركاديوس ابن الاعيرج فبغت وعلا وجهه الاصفرار ، وجعل يقرا الكتاب ويداه ترتعشان ، فرآه مكتوبا باللغة اللاتينية وهاك ترجمته :

« من اركاديوس بن المندقور الاعيرج ، الى حاكم بلدة (....)

« آمرك باسم والدى المندقور قائدجند الروم بمصر، أن تكف عن الاحتفال الذى اقمته لضحية النيل فور وصول هذا الكتاب اليك ، وعليــك ان تحل عقال الفتاة وترجع بها الى بيت ابيها ريثما يصدر اليك امر آخر ، وان ابطأت فى تنفيذ امرنا وقعت تحت طائلة العقاب ، وقد أمرت حامل كتابى هذا ، وهو من خاصتى ، أن يراقب عملك وينبئنى بما تعمل

«كتبه اركاديوس بن الاعيرج . فى حصن بابل سنة (...) لحكم الامبراطور هرقل»

فلما قرا الحاكم الكتاب أصبح الضياء فى عينيه ظلاما ، وأخذ يتأمل الخاتم ويكرر تلاوته ، فلم ير مندوحة عن العمل به خوف العقاب ، فأمر بحل عقال الفتاة والرجوع بها وبمن جاء معه الى بلدته كاسف البال وقد أسقط فى يده !

اما مارية فلما اخذوا يحلون قيودها ظنتهم يريدون القاءها فى النيل وأن الســـاعة قد دنت ، فجعلت تتوســـل اليهم أن يتمهلوا ، فاخبروها انهم يحلون القيود للرجوع بها الى بيت ابيها فلم تصــدق وحملت ذلك منهم على محمل الخداع ، فازدادت فى البكاء ، ولم تتحقق الامر الا لما رفعوا عنها الازهار، فالتفتت الى الجمع فرأت حبيبها مرقس بالقرب منها ينظر اليها والمركبة الى جانبه وعليها علم المقوقس ، فرجع صوابها اليها ، وايقنت بالنجاة ، وهــدأ روعها ، فأنزلوها الى القارب ونزلوا جميعا ومرقس واقف ازاء المركبة ينظر الى مارية مبتسما وعيناه تدمعان من الفرح ، وهى تنظر اليه وتود أن يرافقها بالقارب ، ولكنها أدركت انها ستلاقيه فى بيت أبيها

وركب مرقس المركبــة مع رفيقــه جرجس وعاد توا الى بلــدة مارية ، وأخبر والديها وأهل منزلها بما كان فطاروا من الفرح ، وشــكروا الله على ذلك ، وخرجوا لملاقاتها على مسافة غير بعيدة من البلد . ولا تسل عن ساعة اللقاء ما كان أحلاها ، وكم بكى الجميع بدموع الفرح

اما الحاكم وابنه فقد ظلا حاقدين ومؤملين تنفيذ مآربهما فى فرصة أخرى ، على أن الحاكم كان عالما بأنه تجاوز حده فأصبح خائفا

ولما نزلت الفتاة فى بيتها اخذت تبحث عن طريقة نجاتها وعيناها لا تتحولان عن الباب فى انتظار قدوم خطيبها لتشكره على مســاعيه . وهى تستغرب حدوث ذلك منه ، وتعجب بشهامته . وكان قد خرج فى حاجة وما لبث أن عاد والتقى بمارية وجلسا يتشاكيان الغرام

ارمانوسه فى بلبيس

تركنا ارمانوسة فى قصر حاكم بلبيس على مثل الجمر فى انتظار بربارة لتعلم ما جرى او ما كان من امر حبيبها ، وكانت جالسة الى النافذة تفكر فى حالها وما هى فيه من الخطر بين ان تذهب ضحية عواطفها أو تسلم نفسها الى من لا تحبه ، فاخذت تتلهى بما يقع عليه نظرها من بلبيس وضواحيها ، فرأت القصر الذى هى فيه ارفع مكان فى المدينة ، ورات الناس يتزاحمون فى بعض الاسواق ، والجند يهتمون فى بناء الاسوار او ترميمها ، وشاهدت على الاسوار ابراجا عليها الاعلام الرومانية ، ووراء الاسوار سهول بعضها رملى وبعضها غياض فيها الاغراس من النخيل والكرم ، تتخللها أبنيــة قديمة أكثرها قد تداعى الى الخراب فهجرها الناس

وبينما هى فى ذلك ، وقد خيم الغسق ، جاءتها احدى الجوارى فوقفت بين يديها فقالت : « ما وراءك ؟ » . قالت : « امراة الحاكم تسأل عن حضرتك وتريد المثول بين يديك» . فتكدرت ارمانوسة من تلك الزيارة لرغبتها اذذاك فى الخلوة لتفكر فى حالها ، ولكنها رات ان تأذن لها لئلا تستنكر امرها أو تحسب ذلك خشونة منهـا ، فقالت : « لتـدخل » . فدخلت وقد تزينت بأحسن ما لديها من اللباس احتفاء بنزيلتها ، وكان لباسها رومانيا مع انها غير رومانية ولا مصرية ، ولكنها من عائلة فارسية قديمة قد شاركت المصريين فى معتقدهم وعاداتهم ، وهى تناهز الاربعين من العمر . فوقفت لها أرمانوسة ورحبت بها وأجلسنهـا الى جانبهـا واخذت تبش لهـا وتحادثهـا ، فقالت المراة : « لقد نزلت اهلا ووطئت سهلا ، ونحن نعد انفسنا سعداء بنزولك بيننا ، ونطلب اليه تعالى ان يتمم اسباب سعادتك باقترانك بابن امبراطورنا المفخم » . قالت ذلك وهى تظن انها تسرها به . فاضطربت ارمانوسة عند سماعها امر الاقتران ، فتجلدت وأظهرت ارتياحها لذلك التلطف بغير أن تجيبها حياء ، ولكنها غيرت الحديث قائلة : « انى اعد نفسى سعيدة ايتها السيدة الفاضلة »

فقالت المراة : « وارجو ان تكونى مسرورة من اقامتـك فى بلبيس ، وأن تتمتعى بما تريدينه ، وتأمرينا بكل ما ترتاحين اليه ، فاننا أوقفنا أنفســنا لخدمتك »

قالت ارمانوسة : « اشكرك شكرا جزيلا فقد استانست بك كثيرا ، واشعر بارتياح كبير الى لطف حديثك ، ولا غرو فان هذا [illegible]

الفرس الذين نعدهم شركاءنا فى السراء والضراء »

فقالت المراة : « وان اكن ياسيدتي فارسية الاصل فاني اعدنفسي وطنية ، اذ قد ولدت فى هذه البلاد وربيت فيها ، وآنست من اهلها رقة ودعة تنسي الغريب بلاده ، وبخاصة ما نلاقيه من مولانا والدك من الانس واللطف والاهتمام بشؤوننا ، وقد سمعت زوجي يقول انه مسرور سرورا عظيما لاختيارك بلبيس موطنا لقدميك ، فانه يزداد فخرا بقدوم مولانا قسطنطين امبراطور الرومان اليها ، وهذا شرف قلما تحصل عليه مدينة ، فنطلب اليه تعالى أن يعجل بمجيئه لنفرح بك ونراك عروسا لابن الامبراطور »

فوقعت هذه الكلمات فى اذني ارمانوسة وقع الصاعقة حتى كادت الدموع تتناثر من عينيها لعظم تأثرها ، فحولت وجهها الى النافذة ولم تبد جوابا . فحملت المراة ذلك منها على الحياء من التكلم فى أمر الزواج ، وارادت ان تبالغ فى ملاطفتها فقالت : « يظهر انك غير مرتاحة أيتها السيدة الى حديث العجائز فهل أدعو لك ابنتي قسطنطينية لتجالسك فانها فتاة فى سنك ترتاحين الى حديثها ولا سيما ان اسمها يشابه اسم خطيبك ؟ »

فازدادت ارمانوسة كدرا لتلك الملاطفة وودت ان ترفض ذلك الاقتراح ، ولكنها لم تستطع الا اظهار الارتياح . فصفقت المراة واذا بجارية حبشية قد حضرت . فأمرتها باستدعاء السيدة قسطنطينية ، فجاءت تجر ذيل ثوبها الارجواني . وكانت قد خاطته خصيصا لتلبسه يوم مقابلة ارمانوسة عندما سمعت بقدومها الى بلبيس . وجعلت عليها كل حليها ، فحيتها ارمانوسة وبشت فى وجهها واظهرت الاستئناس بحضورها ، فجلست الفتاة متأدبة تعد نفسها سعيدة بالمثول بين يدى ابنة المقوقس ، وكانت قد سمعت بجمالها ونعقلها . واخذت تتأملها وتنظر الى ملابسها وحليها ، وكانت تسمع بحسن رى اهل منف ولا سيما ابنة حاكم البلاد

اما ارمانوسة فحالما رات الفتاة وتذكرت ان اسمها مثل اسم من تكرهه نعر قلبها منها ، وتشاءمت من رؤيتها ، وندمت على قبولها دخولها عليها ، ولكنها تجلدت واخذت تحادثها وتلاطفها ، وافكارها مشغوله بأمر بربارة واركاديوس . ثم بدات قسطنطينية حديثها وقد وجهته الى والدتها قائلة : « هل سمعت يا أماه على من يقع الاختيار هذه السنة لتكون ضحية النيل؟ »

قالت أمها : « سمعتهم يتحدثون فى ذلك ، وقد فهمت من ابيك انهم اختاروا المعلم اسطفانوس من قرية (. . .) ، وقد قضى الامر على عجل بغير استعداد »

فقالت ارمانوسة : « وما هذه العادة القبيحة التى جرينا عليها فى هذه البلاد ؟ هل يحسبون النيل ذا عقل يغضب ويرضي حتى يهلكوا بنات الناس من أجله ؟ . انى لم انفك اكلم ابى فى أمر هذه العادة وحثه على ابطالها ، وهو

يعتذر بأنها عادة متمكنة من اهل هذه البلاد فلا يستطيع نزعها ، على انى حينما أتصور ذلك العمل الفظيع يقشعر بدنى »

قالت الفتاة : « الحقيقة ياسيدتى انه عمل فظيع وبخاصة لأن هذه الفتاة مخطوبة وكانت تتأهب للاقتران ، فكيف يكون حال خطيبها اذا علم بأمرها ؟ »

فلما سمعت ارمانوسة ذلك انفطر قلبها على تلك الضحية ، وودت لو تستطيع انقاذها من ذلك المهلك ، ولكنها عادت الى هواجسها ، وارادت قطع الحديث لتخلو الى نفسها وتفكر فى حبيبها على انفراد . فقضت برهة فى مثل تلك الاحاديث حتى آن وقت الرقاد ، فذهبوا بها الى غرفة أعدوا لها فيها سريرا مجللا بالاغطية الثمينة فأوت اليه وهى تخاف الا تستطيع رقادا تلك الليلة لفرط ما بها من القلق وما يتقاذفها من الهواجس ، ولكن تعب الطريق سهل عليها النوم فنامت حتى الصباح ، ولم تفق الا على صوت أهل القصر وهم يرحبون ببربارة ، فنهضت من فراشها مذعورة واخذ قلبها يخفق مسرعا شوقا الى معرفة ماتم من أمر اركاديوس ، ثم سمعت قارعا يقرع الباب فأذنت ، فاذا ببربارة تدخل عليها وهى لا تزال بثياب السفر ، فقالت لها ارمانوسة : « اغلقى الباب وراءك وتعالى » . فأغلقت الباب وأخذت تقبل سيدتها والدموع تسيل من عينيها ، وبشائر الخير تلوح على وجهها !

فقالت أرمانوسة : « أخبرينى يا بربارة عما فعلته فانى قد قلقت لغيابك »

قالت : « لاتقلقى يامولاتى فانى جئتك بالاخبار الطيبة ، وابشرى بنجاتك ونيل مرامك ، فان البطل اركاديوس حبيبك امين فى حبك ثابت على ودك لا يستصعب امرا فى سبيل قربك »

قالت : « أصدقينى الخبر يا بربارة ، واشرحى الحكاية كما هى » . فمدت بربارة يدها الى جيبها واخرجت الخاتم وقالت : « خذى هذه الامانة اولا »

فتناولته أرمانوسة ، ولما قرات اسم أركاديوس عليه جعلت تقبله وهى تقول : « اعذرينى يا بربارة اذا استسلمت الى عواطفى ، وهذا خاتم حبيبى فكيف لا اقبله ؟ ! ولكن كيف سلمه اليك وهو خاتم لاغنى له عنه فى اعماله ؟ »

قالت : « دفعه الى على عجل ، ولم يفكر فى العاقبة ، وقد اراد أن تتخذيه دليلا على ثقته فيك» . وقصت عليها الحكاية من أولها الى آخرها ، وارمانوسة مص[illegible]ة كل الاصغاء حتى نهاية الحديث . فسرت لثبات حبيبها وعزمه على التف[illegible]ى فى سبيل انقاذها وقالت : « أشكرك يا بربارة على هذه الخدمة فانها ثمينة لدى ، وسأكافئك عليها أحسن مكافأة »

فقالت بربارة : « هل تشعرين بأنى عملت عملا يستحق رضاك ؟ »

قالت : « كيف لا وقد غمرتنى بفضلك ؟ »

قالت : « اذا كنت تشعرين بذلك وتحبينني فأرجو أن تساعديني فى انقاذ فتاة النيل . مسكينة ! »

قالت : « ومن تعنين بفتاة النيل ؟ »

قالت : « اعني الفتاة التي سيلقونها في النيل غدا ظلما وعدوانا ، وحكايتها تشبه حكايتك على ما سمعت »

قالت : « كنا فى حديثها أمس ، ولكن كيف تشبه حكايتى ؟ »

فحكت لها كل ما سمعته عن حال مرقس ، واخذت تطنب فى شـ... وتبالغ فى شرح ظلم الفتاة الى أن قالت : « فاذا انقذتها من يد هذا الظالم ين... الله من مصيبتك »

فقالت : « وكيف العمل يا بربارة هل أكتب الى ابى ليأمر بانقاذها ؟ »

قالت : « ان الوقت لايساعدنا على ذلك لأنهم سيحتفلون باخراجهـا غدا صباحا ، وسيدى أبوك قد سافر الى منف على ماعلمت فلانستطيع الوصول اليه والرجوع بأمره قبل فوات الفرصة ، وزيدي على ذلك ان الحاكم رومانى ، وقد لايكتفى بأمر والدك وحده بل يطلب امرا من الاعيرج »

فقالت : « وما العمل إذن لانقاذ هـذه الفتـاة ؟ دبرى الحيلة وانا افعل كما تقولين »

قالت : « اليس هذا خاتم سيدى أركاديوس واسمه عليه ؟ »

قالت « بلى ! هل ابعث به الى الحاكم ؟ » . قالت : « لا . ولكننا نكتب امرا على لسـانه نأمره بايقاف العمـل الى وقت آخر ونختمـه بهذا الخاتم ، فأنت تعرفين اللغة الرومانية ، وانا آتيك بورق تكتبين عليـه الامر ، وانا الضامنة لنجاح الحيلة ، ولا أظن سيدى اركاديوس يعاتبك على استعمال خاتمه فى انقاذ هذه البريئة من القتل »

□

سرت ارمانوسـة لهذه الحيلة ، وكتبت الورقة وختمتهـا وسـلمتها الى بربارة ، فتركت سـيدتها فى الغرفة ونزلت الى الحديقـة ، وكان مرقس فى انتظارها عند الباب وقلبه يتقد قلقا وخوفا لئلا يذهب سعيه عبثا ، فلما جاءته بربارة بالكتاب سر كثيرا وتناوله وشكرها وخرج يريد القرية ، وبينما هو خارج من بلبيس سمع الناس يتحدثون بخروج القسس وبالاحتفال للذهاب بفتاة النيل فى ذلك اليوم ، فعاد الى بربارة وانبأها الخبر فاستأذنت سيدتها ان يركب مرقس ورفيقه مركبتها الخاصة ليدركا القوم قبل فوات الفرصة ، فأذنت لهما فى ذلك ، فركبا المركبة وسارا حتى ادركا الفتـاة كما تقدم

وتذكرت برباره ما سمعته من الشيخ الريفي عن قتل قسطنطين فهرولت الى سيدتها وعلى وجهها امارات البشر وقالت : « تذكرت امرا ذا شان كان يجب أن اطلعك عليه قبل كل شيء ، ولا أدرى ما انسانيه ؟ . . قالت : « وما هو؟ » . قالت : « سمعت ان قسطنطين قتل فى حربه مع العرب فى الشام »

فلما سمعت ارمانوسة الخبر خفق قلبها سرورا وقالت : « ماذا تقولين يا بربارة ؟ » . قالت : « سمعت ذلك يا سيدتى من الشيخ الذى بتنا عنده فى عين شمس ، ولكنه قال انه لم يتحقق الخبر »

فرفعت أرمانوسة يديها الى السماء قائلة : « لا اريد بأحد سوءا يا رباه ، ولكن لا بد لأحدنا من الموت حتى لا نجتمع ، فان كنت قد قضيت على قسطنطين فلتكن ارادتك » . ثم التفتت الى بربارة وقالت لها : « وهل يمكننا أن نتحقق ذلك فان تحققه يهمنا كثيرا »

قالت : « ليس لنا يا مولاتى الا ان نبعث رسولا الى الشام يتجسس الخبر وينبئنا »

قالت : « هلم لنبعث احدا . ومن تظنينه اهلا لذلك ؟ » . فأطرقت بربارة برهة ثم قالت : « أرى ان نبعث الى مرقس ، فانه شهم مقدام ، ولنا عليه أننا أنقذنا له خطيبته من القتل ، فاذا عاد وقد نال مرامه بعثنا به يستطلع الحقيقة ، واظنه أفضل رجل يمكننا الاعتماد عليه فى هذه المهمة »

قالت : « قد اصبت المرمى ، ولكن متى يعود ؟ » . قالت « اظنه يعود غدا » . قالت : « اذا عاد فكلفيه بذلك لعله يزيل هذا العناء ، فتكون خدمته لنا مثل خدمتنا له »

قالت : « حسنا » . ثم تذكرت كتاب الطريق بنيامين الى المقوقس وانه لا يزال معها فقالت : « وقد نسيت شيئا آخر لا ادرى ما ذهب به عن ذاكرنى »

قالت : « وما ذلك ؟ » . قالت : « هذا الكتاب . واخرجته من جيبها ، فتناولته أرمانوسه وفضه وقرأت ما فيه ، وقالت : « هذا يجب ايصاله الى والدى سريعا ، فما العمل ؟ » . فقالت : « نبعثه مع جرجس ، فانى قد اختبرت صداقته ايضا ، ولكنه ذهب مع صديقه لانقاذ مارية »

قالت : « ارسليه بالجواب حالما يعود ولا تبطئى »

قالت : « حسنا » وباتتا تلك الليلة تفكران فى هذه الأمور ، فلما اصبح الصباح لبثتا تنتظران رجوع الرجلين ، وفى الظهيرة كانت بربارة وسيدتها مطلتين من نافذة القصر المشرفة على الطريق ، فشاهدتا المركبة وعليها الرجلان والعلم ، وبعد قليل وقفت المركبة بازاء القصر ، فنزلت بربارة واستقبلتهما وسألتهما عما كان فأخبراها بنجاة الفتاة من مخالب الموت ،

وقال مرقس : « اني غريق فضلك وفضل مولاتنا ارمانوسة ، ولا ادرى كيف اكافئها على هذه المنة ، فلا اكاد اصدق انى رايت ملوية حية »

فقالت بربارة : « هل انت عازم على المكافاة ؟ » . قال : « نعم »

قالت : « تمهل قليلا فأخبرك . وانت يا جرجس تعال معى » فتبعها حتى خلت به فى غرفة من غرف القصر وقالت له : « أتحب مولانا المقوقس؟ » قال : « نعم ، والله يشهد بذلك وانت تعلمين »

قالت : « هل عندك للسر مكان ؟ » . قال : « هـذا امر لا تجهلينه ايضا »

قالت : « خذ هذا الكتاب واعلم انه كتاب سرى عليك الاحتفاظ به جيدا ، وتطلب اليك مولاتى ارمانوسة أن تخفيه بين اثوابك وتحمله الى والدها فى حصن بابل وتدفعه اليه بغير ان يشعر بك أحد ، فهل تستطيع ذلك ؟ »

فأمسك جرجس الكتاب فقبله وقال : « على القيام بأمرك ، وليكن قلبك مطمئنا ، فان الكتاب سيكون بين يدى سيدى المقوقس غدا ان شاء الله »

فقالت : « احذر أن ينكشف امره فان انكشافه يكون سببا لهلاكنا جميعا. افهمت ما أقوله لك ؟ »

قال : « نعم يا سيدتى ، قد فهمته جيدا ، وهل اذهب الآن ؟ » . قالت : « خير البر عاجله ، ولكن احذر يا جرجس ان يطلع احد على السر »

فطمأنها وخرج وقد اخفى الكتاب تحت خوذته وتقلد سيفه وقوسه وسار يريد مقر المقوقس

اما بربارة فنادت مرقس وأجلسته فى غرفة بالقرب من غرفة مولاتها ، ثم دخلت الى مولاتها واخبرتها بما فعلت بشأن الكتاب ثم قالت : « وهـذا مرقس ينتظر أمرك »

قالت : « أريد ان يذهب حالا الى الشـام فاذا لاقى فى طريقـه احدا فليستطلعه الخبر ، وليعد الينا حالا ، والا فليصل الى بيت المقدس . فان العرب الآن فى طريقهم من بيت المقدس الى هنا ؛ فلعله يعثر بهم فى الطريق ، أو يواصل السير الى هناك »

فخرجت بربارة ونادت مرقس فأسرع اليها ، فدخلت به على ارمانوسة ، فقبل الأرض بين يديها ، وتأدب فى الوقوف ، فأذنت له بالجلوس ، فجلس مطرقا . فقالت له بربارة : « أتذكر يا مرقس ان شيخ عين شمس اخبرنا بمقتل قسطنطين بن هرقل ؟ »

قال : « نعم يا مولاتى ، وأذكر انه لم يتحقق الخبر »

قالت : « صدقت ومرادنا الآن تحقيق الخبر على يدك ، لأنه يهمنا كثيرا

موقف مرقس وحني راسه مطيعا وهم بخوذته ليضعها على راسه ويخرج ، فقالت بربارة : « ماذا تفعل ؟ » قال : « انى ذاهب لاستطلاع هذا الخبر ومعرفة حقيقته »

قالت : « بورك فيك أيها الشاب ، وقد أعجبتنى مبادرتك ، ولك على أن احمى مارية من عدوها فى أثناء غيابك ، فسر فى حراسة الله ، ولكن احذر أن يطلع احد على ما أنت ذاهب من أجله ، فانك اذا اطلعت احدا عليه وقع عليك غضب مولاتنا ، وانت تعلم ماذا تكون النتيجة »

قال : « سمعا وطاعة » ، وخرج يدبر وسيلة يسير بها ، غير أنه ما لبث أن أدرك خطر تلك المهمة لأنه سيسير منفردا الى ارض عدوهم ، وهو لا يعرف لغة العرب ولا يفهم كلامهم ولا شيئا من أحوالهم ، ولكنه صمم على تنفيذ الأمر قياما بواجب الخدمة نحو من كانت السبب فى انقاذ حبيبته من القتل ، فمكث بقية ذلك اليوم فى بلبيس يفكر فى الأمر حتى امسى المساء ، فذهب لوداع بربارة ، فحالما رأته بشت له وسألته عما فعله فقال : « ها أنذا ذاهب الليله »

قالت : « لا أرى أن تسير ليلا خوفا عليك من خطر الطريق ، ولكننى قد تذكرت شيئا أقوله لك وأظنه يساعدك كثيرا فى اتمام هذه المهمة »

قال : « وما هو ؟ » . قالت : « ارى أن تستحضر ثوبا مثل أثواب العرب، لأنك اذا التقيت بهم وانت بهذا اللباس قتلوك »

فقال : « ولكننى لا أعرف لباسهم ، ولا اذكر انى شاهدت أحدا منهم »

قالت : « أنا أعرف لباسهم لأنى شاهدت عربيا جاء مرة الى سيدى المقوقس بكتاب ، وكان ملتحفا شملة بيضاء وعلى راسه عمامة من نسيج تلك الشملة . فعليك بثوب من نسيج القطن الابيض او من القباطى وهو كثير عندنا ، وأنا أصنعه لك ثوبا وأعلمك كيف تلف العمامة »

قال : « فأذنى لى بالذهاب الآن لاحضاره » . فأذنت له فخرج وقد ازداد تهيبه لذلك السفر ، وخاف أن يقتل أو لا يرجع الى حبيبته ولا يراها، فرأى أن يغتنم تلك الفرصة لوداعها فسار مسرعا الى القرية ، وكان قد ترك مارية رغما عنه ليلاقى بربارة ويشكرها على صنيعها ويسلم المركبة اليها ، وكانت مارية تنتظر عودته سريعا ، فلما ابطأ انشغل بالها عليه ، وقلق والداها لغيابه ، فلما جاء المساء انقبضت نفس الفتاة ، وجعلت تتردد الى باب الدار، وتطل على الطريق تتفرس فى المارة لعلها تراه قادما ، وكلما رأت شبحا ظنته هو ، وبينما هى كذلك رأت رجلا مسرعا نحو الباب فعرفت من حركاته انه مرقس ، فدخلت وأخبرت والديها ففرحا كثيرا وخف الجميع لاستقباله ، ورحب به والداها وقبلاه . أما الفتاة فبقيت واقفة مطرقة وقلبها يختلج فرحا فحول وجهه نحوها وحياها فمدت يدها تسلم عليه فأحس بيدها

باردة كالثلج ، فشعر كل منهما بقشعريرة الحب ، اما هو فتذكر ما جاء من أجله واضطراره الى الرجوع حالا فانقبضت نفسه ، ولكنه تجلد وأظهر الانبساط ، فدخل الجميع الى غرفة الاستقبال وهم يرحبون بمرقس ويبالغون فى مدحه والثناء على شهامته لما أتاه من الهمة فى انقاذ مارية ، وهو لا يجيبهم خجلا . فلما أكثروا من المدح التفت اليهم قائلا : « يجب علينا جميعا أن نشكر الذى كان السبب الحقيقى فى هذا الخير »

فقالوا « ومن هو حتى نذهب اليه ونشكره ونقدم انفسنا عبيدا له ؟ »

قال : « وماذا يستحق هذا الفاعل عندكم ؟ »

فأجابوا جميعا بصوت واحد : « يستحق كل خير وأمره علينا لا مرد له »

قال : « ان السبب فى ذلك الخير كله مولاتنا أرمانوسة ابنة مولانا المقوقس، فما قولكم ؟ »

فصاحوا بصوت واحد . « لتعش أرمانوسة ، ولكننا لايمكننا مكافأتها لأنها لا تحتاج الينا فى شيء ، وعندها من الخدم مئات مثلنا »

فقال : « ولكن هبوا انها احتاجت الى احدنا فى خدمة فهل نقضيها لها ؟ »

قال الوالد : « نعم هذا فرض واجب حتى لو ادى الى الموت »

فقال : « اذن لا تستعظموا الخبر ، فقد كلفتنى قضاء حاجة بعيدة الشقة وأنا على يقين أن كثيرين غيرى يودون أن تكلفهم أية خدمة يؤدونها ابتغاء مرضاتها لأنها ابنة الوالى الأكبر وزمام والدها بين يديها ، واقتراحها عنده لا يرد فاذا قضيت لها هذه الخدمة فانها تسعى عنده فى ترقيتى ، وربما أنعمت على انعاما يريحنى من شقاء الخدمة العسكرية »

وقد أراد بذلك أن يهون عليهم أمر ذهابه ويرغبهم فيه ، ولكنهم بهتوا ، وامتقع لون مارية خوفا على حبيبها من طول الغياب ، بعد أن كانت ترجو بقاءه عندهم هذه المرة أياما بل أن يبقى دائما ، فأرادت منعه عن السفر ولكنها رأت فى ذلك جراة غير محمودة فضلا عما عاينته من استحسان والديها للقيام بخدمة أرمانوسة فصمتت

أما الوالد فقال : « وما هى هذه المهمة ؟ » . قال : « الى مكان بعيد لا أقدر أن أذكره لكم ، لأنى عاهدت أرمانوسة الا أبوح به الى احد . ولكنكم ستعرفونه بعد عودتى ان شاء الله تعالى ، فأطلب اليكم أن تصلوا وتسألوا الله أن يأخذ بيدى »

فجعل كل منهم ينذر نذرا لدير من الاديار دون أن يعرف أحدهم مانذره الآخر .. وبقى مرقس برهة هناك وقد نسى ما جاء من أجله ، ثم هب بغتة وودعهم جميعا وبخاصة مارية ، فانه شد على يدها عند الوداع كثيرا ، فتناثرت الدموع من عينيها . وأما هو فتجلد وقبل أيدى والديها وخرج

وعيونهم تتبعه ، ولكن الظلام حال بينهم وبينه . فسار توا الى مكان يعرفه، فابتاع قطعة من القباطي وقصد بلبيس ماشيا ، وكانت بربارة قد استبطأته وشغل بالها عليه . فخافت أن يذهب قبل الاستعداد . ولكن بينما هي جالسة الى سيدتها وقد مضى هزيع من الليل اذ جاءها بعض خدم القصر ينبئونها بقدومه . فنزلت واستطلعته الخبر . فأراد التظاهر بحيلة ، ثم حدثته نفسه ألا يلوث ضميره بالكذب وهو سائر الى غربة وخطر . فأخبرها بجلية الخبر فعذرته . ولكنها قالت له : « اعلم أن نيل خطيبتك معقود بتنفيذ هذه المهمة » . واخذت الثوب منه فقصت منه قطعة جعلتها مثل العمامة ، وقطعت القطعة الاخرى على مثال الشملة . والبسته اياها وقالت : « فلتكن هذه الثياب معك مطويه حتى تدرك مكان العرب ، فتخلع لباسك هذا وتلبسها . اما اذا لبستها منذ الآن فستكون في خطر من جندنا ، وربما انكشف أمرك »

قال : « ولكن ربما سئلت في الطريق عن سبب سفرى وعلى لباس الجند، فبماذا أجيب ؟ » . قالت : « قل انك ذاهب بأمر من السيدة ارمانوسة الى حاكم الفرما في حدود مصر شرقا . فاذا تجاوزت الفرما قليلا دخلت حدود الشام . فاذا التقيت بالعرب وتمكنت من طريقة لاستطلاع حالهم فافعل . أما خبر قسطنطين فأنفذه الينا حالا »

▭

بات مرقس تلك الليلة في مكان بالقرب من بلبيس استعدادا للسفر باكرا . فلما طلع الفجر نهض وسار حاملا ثياب البدو وبعض الزاد ليتغذى به اذا جاع ، وفيه تمر جاف وبعض الخبز . فقضى سحابة ذلك النهار وبعض ليله سائرا ، وبات في احدى القرى ، وبكر في الغداة ، وما زال حتى أمسى عليه المساء وقد علم انه على مقربة من الفرما ، فتردد بين أن يبيت تلك الليلة حيث هو ثم يصابح البلدة ، أو أن يواصل السير حتى يصل اليها ليلا . فجلس في ظل نخلة يتناول بعض التمر من جرابه ، فلاحت منه التفاتة في عرض تلك الصحراء فاذا بنار تضيء ، فجعل يفكر في أمرها فخيل له أنها نيران بعض أهل هذه الناحية ، فقال لعلى اذا ذهبت اليهم اسمع منهم خبرا أو أبيت عندهم الليلة . فنهض ، وسار طويلا قاصدا النار وهو يحسبها قريبة ، وقد خيم الليل وهدأ الجو واستولى السكون على تلك الأنحاء ، فخاف أن يعترضه حيوان مفترس في ذلك الخلاء ، ولكنه تشجع وواصل السير حتى سمع صوتا استغربه ، فأصاخ بسمعه فاذا هو صوت حيوان لم يذكر انه سمعه من قبل ، فخاف أن يكون وحشا ضاريا ، فوقف صامتا ، والتجأ الى شجرة من السنط فاذا بالصوت قد انقطع ، ثم عاد فسمعه ،

فأخذ يتفرس فى الأفق من جهة الصوت لعله يعرف نوع الحيوان فلم يفلح ، وفيما هو ينظر فى عرض الصحراء لاح له شبح هائل عن بعد ، فدنا مرقس من الشجرة واستلقى على الرمال ، وجعل يحدق بعينيــه فى الافق ، فرأى فارسا راكبا حيوانا غير الجواد طويل العنق لا يسمع لوقع اقدامه صوت ، فكاد أول وهلة يظنه زرافة لأنه رآها فى حديقة المقوقس فى منف ، ولـكنه لا يعهدها تصلح للركوب ، فتربص برهة واذا بالفــارس يقترب من تلك الناحية وظهر له من جهة قدومه انه آت من مكان النار وكان سيره حثيثا، فما عتم أن وصل الي الشجرة ، ومرقس لا يزال منبطحا على الرمال ، ولم يكن يريد النهوض ظنا منه أن الفارس يمر ولا يراه ، فاذا به قد ناداه عن بعد بلسان الروم قائلا : « من الرجل ؟ »

فلم ير مرقس بدا من الاجابة ، وبخاصة لما سمعه يخاطبه باللغة اليونانية ، وكان مرقس يعرفها جيدا ، فنهض وقال : « جندى . ومن انت ؟ » . قال : « وانا كذلك » . ثم سمعه ينيخ مركبه بصوت كالشخير . واذا بالحيوان قد توسد الارض جثوا واخذ بالجعير ، فتأمله فاذا هو الهجين ، ولم يكن رآه . لان الهجن والجمال لم يكن يعرفها المصريون ولا رأوها الا مع العرب اذا جاءوا مصر فى قوافلهم . وكان قدوم القوافل الى منف نادرا ، ولكن مرقس شاهد الهجين مرة ، وقد جاء عليه رسول بكتاب من بلاد العرب الى المقوقس ، فلما رأى ذلك الرجل قادما على الهجين علم أنه آت من معسكر العرب ، ولكنه عجب لتكلمه اللغة الرومية ، فأوجس خيفة واعد خنجره للدفاع اذا اقتضت الحال ، ثم رأى الرجل قد شد حبلا عند ثنى ركبة الهجين ومشى نحوه ، فناداه : « قف عندك وقل من انت قبل ان تقرب » . فقال : « اذا كنت من جند الروم بمصر فلا تخف فانى من جندهم فى بلاد الشام » . واقسم له بالمسيح والقديسين انه لا يؤذيه ، فدنا منه مرقس وهو لا يزال يحاذر ، فاذا العربى بلباس الجند الرومانى . ولـكنه ما برح مرتابا فى امره لركوبه الهجين . فقال له : « كيف يكون انك رومانى واراك راكبا هجينا ؟ » . قال : « سأقص عليك خبرى متى جلسنا » . فدنا منه، ولم يستطع تمييزه جيدا لشدة الظلام ، ولكنه تحقق من ملامحه انه رومانى . وبخاصة لما رأى لباسه وسمع كلامه

فلما اقتربا سلما فسأله مرقس : « ما اسمك وما حرفتك ؟ انى لا ازال مستغربا ركوبك الهجين وهو خاص بالعرب ، ولم يدخل الى بلادنا الا قليلا ، وانت من جند الروم ولسانك يشهد عليك »

فأمسكه بيده وجلسا على حجر وقال له : « أما اسمى فهو بروقس ، وأنا جندى من جنود البطريق يوقنا عامل الروم على حلب الشهباء ، وأما ركوبى الجمال فله أسباب سأقصها عليك متى اخبرتنى من انت »

قال : « انى رسول من مولاى المقوقس ، ذاهب الى الفرما بمهمة خاصة»

قال : « لعلك جاسوس ؟ »

قال : « لا . ولكننى رسول كما اخبرتك »

قال : « لا فرق عندى مهما تكن مهمتك ويكفينى انك من جند الروم ، واشكر الله لانى التقيت بك هنا فأستفيد منك امورا ربما كفتنى مؤونة المسير الى بلبيس »

قال : « لعلك كنت ذاهبا اليها ؟ »

قال : « نعم كنت ذاهبا اليها برسالة الى ارمانوسة بنت المقوقس »

فلما سمع اسم ارمانوسة استأنس بالرجل واستبشر خيرا فقال : «ومن ارسلك بهذه الرسالة ؟ فانك قد وقعت على خبير ، لأن أرمانوسة سيدتى ، وقد كنت عندها أول البارحة ، فما غرضك منها ؟ »

قال : « اما مرسلى فالبطريق يوقنا صاحب حلب ، وهو الآن فى هـذا المعسكر عند هذه النار ، واما رسالتى فهى لا علاقة لها بالحرب »

قال : « وما الذى جاء بكم الى هنا وأنتم من حامية حلب ؟ »

قال : « لما استولى العرب على حلب أخرجونا منها ، فالتقى سـيدى بقسطنطين ابن الامبراطور وهو فى قيسارية ، فبعث به مع جماعة من جنده ليحمل اليه خطيبته ارمانوسة »

فقال : « وأين قسطنطين الآن ؟ » . قال : « هو قادم فى بحـر الروم بمراكبه التى سترسو عند دمياط ، حيث يكون فى انتظارنا ليحمل خطيبته الى القسطنطينية »

فاتضح الأمر لمرقس وعلم انه اصاب ضالته عفوا فقال : « اذا كانت الحال كما ذكرت فأخبرك بالحقيقة انى رسول مولاتى ارمانوسة لا مولاى المقوقس، وكل ما تريد ان تعلمه عنها أطلعك عليه لأنى عالم بكل شىء »

قال : « هل هى فى خير ، ومستعدة للمسير الى مولانا ؟ »

قال : « نعم انها كذلك ، وقد جاءت بلبيس منذ أيام فى انتظاره ، ولـكنك لم تخبرنى عن سبب ركوبك هذا الجمل وانت رومانى »

قال : « اراك تدقق السؤال ، ولكننى قد استأنست بحديثك وتوسمت فيك الصدق ، فأخبرك انه لما فتح العرب حلب امسكوا مولاى . قنا وجماعة من رجاله ، وفى جملتهم انا ، فبقينا نؤاكلهم ونشاربهم ونرافقهم سفارهم ، فتعودنا ركوب الجمال والهجن ، لأننا رأيناها أسرع عدوا من الخيل ، فعولنا عليها فى السفر السريع »

فقال مرقس : « وهل فى معسكركم هذا جند من العرب ؟ » . قال : « لا »

فقال : « وهل علمتم شيئا عن عزمهم على غزو مصر ؟ »

قال : « علمنا أنهم قادمون اليها بحملة ، ولعلهم الآن فى العريش »

فبهت مرقس واخذ يتأمل ما سمعه من بروفس ، فلم يره منطبقا على احكام العقل ، ولم يفهم كيف انهم خالطوا العرب وآكلوهم وعاشروهم حتى تعلموا ركوب الجمال ، وكيف أنهم قادمون لحمل ارمانوسة الى قسطنطين . فقال له : « وهل اعتنق مولاكم يوقنا ديانة هؤلاء العرب ؟ »

فتوقف بروفس عن الجواب برهة ثم قال : « قد اتهمه بعضهم بذلك ، ولكنه برىء منه »

فأدرك مرقس أن الحكاية ليست بالحال التى تصورها ، واساء الظن فيما سمعه من الرجل ، ولكنه خاف اذا اظهر الارتياب أن يغدر به ، فتظاهر بتصديق كلامه ثم قال : « ولكننا سمعنا خبرا كدرنا كثيرا عن قسطنطين » . واراد اتمام الكلام فابتدره بروفس قائلا : « أما اذا اردت ما اشاعه العرب عن قتله فهو خبر عار عن الصحة ، لأن مولانا قسطنطين فى خير وسلامة ينتظر وصول عروسه »

فقال مرقس : « الا تخافون أن يلقاكم العرب فى عودتكم من بلبيس ، وأنتم تقولون انهم قادمون وقد وصلوا الى العريش فلا يلبثون أن يكونوا هناك قريبا ؟ »

فقال بروفس وقد ارتبك فى الجواب : « لا . لا ارى علينا بأسا ، لانهم يعتقدون فينا الاخلاص لهم »

فقال مرقس فى نفسه : « قد تحققت بقاء قسطنطين حيا ، فهل ارجع بالخبر أو أواصل الاستقصاء عن حال العرب وقوتهم لعلى أعود بشىء مفيد لسيدى المقوقس فأنال حظوة فى عينيه ؟ » . فرأى أن يواصل السير فى الحديث، فقال لبروفس : « انك اذا قدمت الى سيدتى ارمانوسة ، وانبأتها ببقاء قسطنطين حيا ، تسر بك كثيرا . فعجل بالمسير ، واخبرها بأننى قد علمت ذلك منك ، وانى ذاهب لاتمام مهمتى فى الفرما » . وقد أراد ان يتمم استقصاء أخبار العرب ، ولكنه رأى ان يغتنم تلك الفرصة لكى يدخل الى معسكر يوقنا فيستفيد منهم شيئا يساعده على مرامه فقال لبروفس : «هل لك ان ترافقنى الى مولاك يوقنا لعله يريد أن يستخبرنى ، أو يسألنى شيئا ؟ »

فقال : « لا أستطيع العودة معك ، ولكننى أعطيك شعار الليل ، فاذا وصلت الى المعسكر وسألك احد من انت ؟ قل له : « السلام عليكم »

وأفهمه نطق هذه اللفظة بالعربية ، وهو لا يفهم معناها ، فظنها اسما لرجل أو بلد . ولو فهم معناها لأدرك انها كلمة تدل على اسلام قائلها أو انتمائه للمسلمين ، فكررها مرارا على سمعه حتى حفظها . ثم تأمل مرقس فى ثياب بروفس فاذا هى تختلف عن ثيابه ، فخاف اذا دخل معسكر يوقنا بثيابه ان ينكشف أمره ، فأراد أن يحتال على بروفس ليأخذ ثيابه فقال : « الا تخاف يا أخى اذا مررت بثيابك هذه أن يرتاب فيك المصريون ؟ » . قال له : « ولماذا ؟ » . قال : « لانهم يرونك غريبا ، فربما أوقعوا بك شرا ، وبخاصة وانت لابس هذا اللباس . وبما أنك سائر الى سيدتى أرمانوسة أرى أن أخلع لك ثيابى هذه فتلبسها ، وهى لباس جند مصر ، فاذا مررت فى البلاد لا يستغربك أحد »

قال : « وانت ماذا تلبس ؟ » . قال : « أعطنى ثيابك فألبسها »

فاستحسن بروفس الرأى ، وتبادلا الثياب ، وقد فرح مرقس فرحا لا مزيد عليه بنجاح حيلته. ثم نهض بروفس وركب هجينه وودع مرقس ، وأخبره ان فسطاط يوقنا بالقرب من تلك النار ، وسار قاصدا بلبيس

اما مرقس فظل ناظرا اليه حتى توارى عنه ، فجعل يفكر فى حاله وما سمعه منه ويقيسه ويطبقه بعضه على بعض ، فأدرك ان فى الأمر خداعا أو مكيدة ، فقال فى نفسه : « فلأذهب الى معسكر يوقنا لعلى أعلم دخيلة الامر »

وسار قاصدا تلك النار حتى كاد يقترب منها ، فسمع هدير الجمال عن بعد فخيل له انه ذاهب الى معسكر العرب لا معسكر الروم ، ولكنه توكل على الله ومشى ، واذا بفارس قد اعترضه قائلا : « من أنت ؟ » . فأجابه مرقس : « السلام عليكم » . فاخلى سبيله ، وقال له : « اين كنت ؟ » . قال : « خرجت من المعسكر لأمر وعدت »

قال : « ادخل » . وقد ظنه من معسكرهم وبخاصة ان لباسه كلباسهم فمشى مرقس وهو يتأمل المعسكر ، فاذا هو مؤلف من عشرات من الخيام بعضها بدوى وبعضها رومانى ، فجعل يخطر بينها ينظر فى حال الجند ، فاذا هم من الروم وفيهم بعض البدو ، فاستغرب ذلك واختلط بهم وتظاهر أنه واحد منهم كان قد تخلف فى الطريق ثم لحق بهم . وما زال سائرا حتى أتى خيمة البطريق ، فرأى الحراس محيطين بها بسلاحهم ، وكانت فسطاطا كبيرا يتسع لجماعة . فقال : « لأنتظرن الى الغد لأرى ماذا عسى أن يكون »

ثم عرج الى خيمة فيها جمع كبير ، فدخل بينهم وتناول الطعام معهم ، فظنوه من جندهم ولا عبرة بلونه وملامحه المصرية ، فقد كان ذلك الجند خليطا من الروم وأهل حلب وما جاورها ، وربما كان فيه بعض المصريين ، لأن هرقل استنجد المقوقس فى اثناء حروبه مع العرب فى الشام ، فأرسل المقوقس اليه مددا وفيهم بعض القبط

فبات تلك الليلة وهو يسمع الأحاديث ويحفظها،فاستنتج منهم ان يوقنا فى حلف مع العرب ، وأن العرب قد أصبحوا على مقربة من هناك

ولما اقبل الصباح بكر مرقس الى فسطاط يوقنا ، فاذا بالحراس وقوف عند بابه ويوقنا جالس فى صدره وعليه رداء غير رداء الرومان ، فتأمل الرداء فاذا هو يقرب شكله من الملابس التى جـ ـها معه ، ولكنها أحسن حالا ، وفوق الرداء جبة ، وعلى رأسه عمامة ، وسمع الناس اذا ذكروه سموه باسم غير اسمه الاصلى ، فرجح لديه أن الرجل قد اعتنق الاسلام ، او هو فى خدمة المسلمين ، وأيد ظنه هذا خلو المعسكر من شعائر النصرانية، واهمها الصلبان . كان الروم يتخذونها شعارا لهم فى الحروب ، فيحملونها مع الأعلام فى مقد الجند ، فاذا عسكروا نصبوها بجانب الأعلام

ثم تحول عن الخيمة وجعل يطوف بالمعسكر يتفقد حاله لعله يقف على شيء من أمر العرب ، فوصل الى اطراف الخيام فشاهد رجلا جالسا على ربوة بالقرب من المعسكر ينكت الارض بعصا بيده كأنه يفكر فى أمر اقلقه ، وقد قبض فى احدى يديه على شيء يشبه الرق ، فوقف مرقس عن بعد يتأمل فى حركاته وسكناته ، فاذا بالرجل فى لباس جند يوقنا ، ينكت الارض تارة وينظر الى ذلك الرق طورا ، وهو يحاذر ان يراه أحد ، ثم التفت الى جهة المعسكر فرأى مرقس فعجل باخفاء الرق وتظاهر بأمر يتشاغل به

وأمعن مرقس النظر فى وجهه فاذا هو ليس رومانيا ولا مصريا ، فعجب لأمره ، وأراد الدنو منه لعله يقف على خبر جديد فخاف أن تحول جرأته هذه بينه وبين ما يريد ، فتجاهل وتحول عن المكان ، ودخل المعسكر على أن يغتنم فرصة اخرى ليجتمع به ويستطلعه حاله ، وما برح يراقبه حتى رجع الى المعسكر فى المساء واختلط بالجند ، فلما أمسى المساء التقى به فى بعض الخيام يتناول العشاء مع الجند ، فتأمل وجهه فتذكر انه يعرفه ، ولكنه لم يذكر أين شاهده ، ولا ما اسمه ، فبقى صامتا ينظر اليه تارة ويتشاغل عنه تارة أخرى لئلا يلحظ منه ذلك . ثم رآه ينظر اليه كأنه يريد التعرف به ، فتجاهل مرقس هذه النظرة خيفة انكشاف أمره ، ولكنه كان كثير التشوق الى معرفة حاله وما هو قادم من اجله ، فلبث ريثما مضى وقت العشاء ، واخذ الناس يتفرقون ، فاذا بذلك الغريب قد خرج من تلك الخيمة ومشى الى خيمة من خيام العرب ودخلها وجلس الى بعض من فيها وجعل يكلمهم بلسانهم ، فعجب مرقس لمعرفته اللغة العربية فضلا عن اليونانية ، وازداد تشوقا لمعرفة حكايته ، ولم يعلم كيف يبادئه الكلام ، فصبر ينتظر خروجه من الخيمة ، فمضى هزيع من الليل ولم يخرج ، ثم كان منتصف الليل فقال فى نفسه : « لننتظر الى صباح الغد» . ثم ذهب الى منامه

عمرو بن العاص

وكان اليوم التالى فاستيقظ مرقس على ضوضاء الجند ، ونهض مذعورا ، واذا به يراهم قد تجمهروا وخرجوا من المعسكر ينظرون الى جهة الصحراء ، ثم رأى غبارا يتصاعد والناس يتطاولون بأعناقهم ، وقد علا ضجيجهم ، وفى مقدمتهم « يوقنا » يجر حسامه وراءه تيها ، وقد أحاطت به حاشيته ، وكلهم ينظر الى جهة الغبار . فسأل مرقس عن ذلك فقيل له : « ان العرب قادمون » . فأظهر انه عالم بقدومهم لئلا يسيئوا الظن به ، ثم علم ان القادمين هم جند عمرو بن العاص القادم لفتح مصر فلبث واقفا فى جملة الواقفين ، وقد نسى رجل الامس ، على انه حاول أن يراه فيمن حوله من الناس فلما لم يره ، عول على أن يستطلع مكانه بعد ذلك

ونظر الى موكب البطريق يوقنا فاذا هو مؤلف من حاشيته ، وكلهم فى اللباس الرومانى الا هو ، فقد لبس العمامة وتقلد الحسام ، وسمع الناس ينادونه باسم عبد الله ، فتحقق لديه اذ ذاك أنه اعتنق الاسلام لا محالة ، وبخاصة لمارآه مستبشرا بقدوم جيش العرب

ثم جيء الى يوقنا بجواد ركبه وركب معه بعض رجاله ، وخرجوا للقاء العرب ، فلبث مرقس واقفا ينظر الى موكب يوقنا ذاهبا ، وجند العرب يتقدم حتى انكشف الغبار عن جند عظيم يتقدمهم الفرسان على خيول عربية تسابق الرياح ، والأعلام تخفق فوق رؤوسهم يحملها القواد ، وفى المقدمة رجلان على هجينين فعلم أنهما الدليلان يقودان الجند ، ومن ورائهما الفرسان ، وفى مقدمتهم فارس على جواد من خيل اليمن ، وعليه العدة والسلاح ، وفى ركاب الفرسان جماعة من العبيد يسوسون الخيل ، فلما التقى الفريقان ترجل يوقنا ، وترجل فرسان العرب ، وتقدم يوقنا الى كبيرهم وتصافحا وتعانقا ، ثم سلم على الآخرين وعاد معهم وقد اخذ كبيرهم بيده . فسأل مرقس عن اسمه فعلم أنه البطل الشهير عمرو بن العاص ، وكان قد سمع به كثيرا فتفرس فيه جيدا ، فاذا هو قصير القامة وافر الهامة ادعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن بها الذهب يأتلق، ومنهاحلة وعمامة وجبة .

وقد أحاط به وبيوقنا رجال من كبار العرب يهللون ويكبرون ، فتنحى مرقس جانبا ليرى مقدار الجند ، فاذا هم يملأون الصحراء ، وفيهم الفرسان



« فلما دخل جيش العرب ، تقدم يوقنا إلى عمرو بن العاص وتصافحا .. »

والهجانة والمشاة وحملة الأعلام ، وقد لبس كبارهم العمائم الخضر ، وتقلدوا السيوف والخناجر . واما المشاة ففيهم نقلة الرماح والنبال . ثم أخذوا يتفرقون كل جماعة الى ناحية يتقدمهم علم خاص بهم ، ينصبون الخيام ويضربونها . واول خيمة ضربت فسطاط الأمير ، وهو خيمة كبيرة مبطنة بالحرير الاحمر نصبوها على أعمدة من القصب الهندى ، وضربوا أطنابها وفرشوا أرضها بالبسط والطنافس وهيأوها لاستقبال الأمير . أما عمرو فسار مع يوقنا حتى دخلا خيمته للاستراحة ، فلبث مرقس ليشاهد بقية الجند ، وقد اراد أن يعرف مقدارهم فعلم أنهم يزيدون على اربعة آلاف ، وبعد أن تفرق الجند فرقا ونصبوا الخيام جماعات ، وصلت جمال الساقة ومعهم الهوادج والأحمال ، وفى الهوادج النساء والأولاد ، وهم يصيحون

وتحول مرقس الى خيمة الامير فرآها قد شغلت بقعة كبيرة من الارض ، ولكنه لم يشاهد فى فرشها كرسيا ولا مقعدا كما كانت الحال بخيام الروم اذا نزلوا ، وشاهد أمام الخيمة علما هائلا عليه رسوم كأنها كتابة باللسان العربى لم يفهمها . اما جند الروم فكانوا يهللون ويرحبون بجند العرب ، كأنهم كانوا على موعد ، ففهم من ذلك انهم كانوا فى انتظار وصولهم

ثم تحول نحو خيمة يوقنا فرأى عمرو بن العاص قد خرج منها وسار نحو خيمته يصحبه كبار قواده ، فاقترب منها جهده فاذا بعمرو قد جلس فى صدرها على وسادة من الحرير ، وقد وضع السيف على فخذه ، والى كل من جانبيه رجال من العرب فى مثل لباسه ، ويوقنا بين يديه يرحب به ، وبينهما ترجمان كان قد شاهده مع عمرو يحمل العلم ، ثم علم أن اسمه « وردان » اذ سمع عمروا يدعوه به

وبعد هنيهة سمع قراءة باللسان العربى وترتيلا ، فنظر فراى رجلا عربيا جالسا فى بعض جوانب الخيمة يقرأ عن ظهر قلبه بنغم مطرب ، والناس جلوس ووقوف يصغون ويطربون لسماع ذلك النغم ، ثم التفت بغتة الى من حوله فاذا بالرجل الذى كان قد شاهده بالأمس واقفا الى جانبه ، فأراد أن يخاطبه فسأله عن اسم الرجل الجالس فى صدر المكان فقال باليونانية : « هو الامير عمرو بن العاص » . فأدرك مرقس من لهجته انه دخيل على [illegible]ان الرومى ، فخاطبه بالقبطية وسأله عن ذلك الترتيل فقال : « انهم [illegible] كتابا عندهم اسمه القرآن وهى عادة يتبركون بها » . فأدرك مرقس أن اللسان القبطى ايضا ليس لسانه ، فرغب فى الاستفهام عن حاله فقال له : « وبأى لسان يقرأون ؟ » قال : « باللسان العربى » فقال : « وهل تفهم لسانهم ؟ » قال : « نعم أفهمه جيدا وهو لسانى ، وأنت ما لسانك ؟ » . فقال : « انى من جند الروم »

قال : « ولكننى أراك تتكلم القبطية ، وملامحك قبطية ، فهل انت من أهل مصر؟ » . فاضطرب مرقس عند ذلك وخاف أن ينكشف امره فقال : « قلت لك انى من جند الروم وفيه من سائر الملل »

فتبسم الرجل وقال بالقبطية همسا : « ولكن قل ولا تخف الحقيقة ، انى لا أريد بك سوءا ، ولعلك اذا صدقتنى أن تنال خيرا »

فتحير مرقس ولم يعلم بماذا يجيبه وسكت لا يتكلم

فأدرك الرجل انه يراوغه ويريد اخفاء امره ، فأعاد سؤاله قائلا : « قل ولا تخف ، فاننى اعرفك ولو أخفيت حقيقة حالك ما خفيت على »

فقال مرقس : « واظننى اعرفك أيضا وكأننى رايتك قبل هذا اليوم فى الاسكندرية »

فقال الرجل : « انت اذن مرقس تابع المقوقس » . فاختلج قلب مرقس فى صدره وخاف عاقبة الأمر ، فقال له الرجل : « لا تخف انى لك نصير ، فهل عرفتك ام أنا مخطىء ؟ »

قال : « اصدقك الخبر ، اننى أنا مرقس ، ولكن أين رأيتنى ؟ »

قال : « رايتك وقد جئت بيت يحيى النحوى الاسكندرى بعد انحيازه لجماعة اليعاقبة مع سيدك المقوقس ، ألا تذكر ذلك ؟ »

قال : « نعم أذكر ذلك جيدا ، فأنت اذن زياد العربى »

قال : « نعم انا هو زياد فلا تخف ، هل جئت هذا المعسكر تتجسس حال العرب ؟ »

قال : « لا والله وانما ساقتنى اليه الاقدار عن غير قصد منى ، وأنت ما الذى جاء بك الى هذا المكان ؟ هل تأذن لى بالسؤال عن ذلك »

قال : « اما مجيئى الى هذا المكان فقد كان لمهمة لا أخفيها عليك ، فانى لا أخافك فقد آنست فيك اخلاصا »

قال : « لقد اصبت ، وانى أعد نفسى سعيدا لاجتماعى بك ، وقد رايتك بالامس وآنست فيك خيرا ، وكنت مهتما باستطلاع حالك مذ كنت جالسا على الاكمة خارج المعسكر مساء الأمس وبيدك الرق ، فأفصح ولا تخف »

قال زياد : « ليس يخفى عليك ان وجودى فى الاسكندرية كان محض اتفاق اذ يندر أن ترى عربيا فى بلادكم ، واما قصتى فساقصها عليك على انفراد لئلا يسمعنا جند الروم نتكلم بالقبطية فيشتوا بنا ، والافضل تأجيل حكايتى الى المساء »

قال : « حسنا فلنتكلم الآن بالرومية ، فانى اريد الاستفهام منك عن

بعض ما أشاهده فى هذا الجيش ، وقد عجبت لحال هذا الأمير وسرنى ما أرى فى وجهه من الصباحة وما يتجلى فى محياه من الشجاعة والشهامة ، ولا عجب اذا ساد العرب الدنيا بأجمعها اذا كانت هـذه حالهم . وهل عرفت شيئا عن حال يوقنا فانى أراه روميا ولكنه يلبس العمامة ويتزيى بزى العرب ، وهـذا جنده فى لباس الروم »

فتبسم زياد كأنه يفتخر بجنس العرب وقال : « ان العرب اهل شهامة واقدام وشجاعة ، ولا غرو اذا فتحوا الأمصار وأخضعوا الملوك . أنظر الى ابن العاص فانه من خاصة رجالهم ، وانا اعرفه مذ كان جاهليا، وهو يعرفنى جيدا ، ولعله اذا رآنى الآن ينادينى باسمى ويرحب بى ويجلسنى الى جانبه، ولـكنى لا اريد أن يكون ذلك بمشهد من النـاس اكراما لمن ارسـلنى ، لأنه يود أن تكون رسالته سرية »

فقال : « ومن هو هذا الترجمان الذى ينقل الكلام بين يوقنا وعمرو ؟ »

قال : « هو وردان مولى عمرو ، ويعرف اليونانية جيدا ، ويعرف القبطية ايضا ، وانا لا أعرفه من قبل ، ولكننى فهمت ذلك من كلامه ، وسأعرف الليلة حكايته وحكاية هذا الجند واطلعك عليها »

فقال مرقس : « أحب كثيرا أن اعرف حقيقة حالك وما جئت من احله لكى يكون كلامنا أكثر ايضاحا »

قال : « تعال ننفرد جانبا » . واخذ بيـده وخرجا من المعسكر والجنـد مشغول بشؤونه ، ولم يلتفت اليهما أحد حتى وصلا الى مأمن فجلسا

فقال زياد : « اسـمع يا مرقس أقص عليك خبرى ، على شرط ان تحكى لى حكايتك وما جئت لأجله » . قال : « اقسم براس سـيدى المقوقس وحرمة الصليب انى أصدقك القول » . ومضى زياد يروى حكايته كما يلى :

كان سبب دخولى الى الاسـكندرية وتمصرى واعتناقى النصرانيـة انى كنت من رفقاء عمرو بن العاص مذ كان فى الجاهلية ، أعنى قبل أن يظهر الاسلام وينتشر، وكانت ديانتنا الوثنية مثل اكثر عرب الجاهلية، وكنت اصحب عمروا حيثما توجه ، وكنا نحمل تجارة على جمالنا الى بيت المقدس فى جماعة من قريش ، فمررنا يوما بضواحى تلك المدينة فاذا بشماس من شمامسة الروم من اهل الأسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس ، فخرج الى بعض جبالها يسيح ، وكنا وعمرو نرعى ابلنا ، تناوبا بيننا ، فبينما عمرو يرعى ابله اذ مر به الشماس وقد أصابه عطش فى يوم شديد الحر ، فوقف واستسقاه، فسقاه من قربة له فشرب حتى روى ، ونام حيث هو . وكانت الى جنبه حفرة خرجت منها افعى كبيرة فبصر بها عمرو فرماها بسهم فقتلها ، فلما استيقظ الشـماس نظر الى الحيـة التى أنجاه الله منهـا وقال لعمـرو : « ما هذه ؟ » . فاخبره خبرها ، فأقبل على عمرو يقبل راسه ويقول : « قد

أحياني الله بك مرتين : مرة من شدة العطش ، ومرة من هـذه الحية، فما اقدمك هذه البلاد ؟ » . قال : « قدمت مع صحبى نطلب الربح فى تجارتنا » . فقال له الشماس : « وكم تراك ترجو أن تصيب فى تجارتك ؟ » . قال : « ارجو ان اصيب ما أشترى به بعيرا ، فانى لا أملك الا بعيرين ، فلعلى اصيب بعيرا ثالثا »

فقال له الشماس : « ارايت دية أحدكم بينكم كم هى ؟ » . قال : « مائة من الابل » . فقال له الشماس : « لسنا أصحاب ابل انما نحن اصحاب دنانير » . قال : « تكون الف دينار » . فقال له الشماس : « انى رجل غريب فى هذه البلاد ، وانما قدمت أصلى فى كنيسة بيت المقدس واسيح فى هذه الجبال شهرا ، وكنت قد جعلت ذلك نذرا على نفسى . وقد قضيته ، وانا اريد الرجوع الى بلادى ، فهل لك أن تتبعنى اليها ولك على عهد الله وميثاقه ان اعطيك ديتين ، لأن الله عز وجل أحيانى بك مرتين » . فقال له عمرو : « اين بلادك ؟ » . قال : « مصر ـ فى مدينة يقال لها الاسكندرية » . فقال له عمرو : « لا اعرفها ولم ادخلها قط » . فقال الشماس : « لو دخلتها لعلمت انك لم تدخل مثلها » . فقال له عمرو : « وتفى لى بما تقول، ولى عليك العهد والميثاق؟ » . فقال له الشماس : « نعم لك على العهد والميثاق أن أفى لك وأن اردك الى اصحابك » . فقال له عمرو : « وكم يكون مكثى فى ذلك ؟ » قال : « شهرا ، تنطلق معى ذاهبا عشرا ، وتقيم عندنا عشرا ، وترجع فى عشر ، ولك على أن أحفظك ذاهبا وأن أبعث معك من يحفظك راجعا » . فقال له عمرو : « امهلنى حتى اشاور أصحابى فى هذا » . وجاء فشاورنا فيما عاهده عليه الشماس . وقال لنا : « تقيمون هنا حتى ارجع اليكم . ولكم على العهد ان أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبنى رجل منكم آنس به » فقلنا : « نعم » . وبعثونى معه . فانطلقنا مع الشماس حتى انتهينا الى مصر فرأينا عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الاموال والخير ، فقال عمرو للشماس : « ما رأيت مثل ذلك » . ومضينا الى الاسكندرية فنظرنا الى كثرة ما فيها من الأموال والعمارة وزخرف بنائها وكثرة اهلها فازددنا عجبا ، ووافق دخولنا الاسكندرية عيدا عظيما يجتمع فيه ملوكهم واشرافهم . ولهم كرة من ذهب يترامى بها ملوكهم ، وهم يتلقونها بأكمامهم . وفيما اخبروا عن تلك الكرة . وفيما وصفها من مضى منهم . انها اذا وقعت فى كم رجل واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم . وأكرم الشماس الاكرام كله ، وكسا عمروا ثوب ديباج ألبسه اياه ، وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة . وهم يتلقونها بأكمامهم ، وانا جالس على حدة ، فرمى بها رجل فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو ، فعجبوا من ذلك وقالوا : « ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة ! اترى هذا الاعرابى

يملكنا ، هذا ما لا يكون ابدا » . ثم مشى الشماس فى اهل الاسكندرية ، واعلمهم أن عمروا احياه مرتين ، وانه قد ضمن له ألفي دينار ، وسألهم أن يجمعوا ذلك له فيما بينهم ، ففعلوا ودفعها الى عمرو فانطلق ومعه دليل يريه الطريق . اما انا فلما رايت الاسكندرية وما هى عليه من العظمة وأسباب الرفاه آثرت البقاء فيها ، فاستاذنت عمروا فى ذلك فانكر على الامر فقلت : « ابقى فان لم أر خيرا عدت اليك» . فتركني ومضى وبقيت أنا . وكان فى جلة من لقينا من رجال الاسكندرية عالم كبير هو يحيى النحوى ، وكان يعرف شيئا يسيرا من اللسان العربى ، فأمسكني عنده لأعلمه لساننا هذا ، أو لعل له غرضا آخر لم اعلمه ، فسررت ببقائى عنده ، واعجبت بزينة الاسكندرية وبذخها وعمارتها ، ولم يمض على زمن طويل فى بيت هذا الرجل حتى تعلمت اللسان الرومي واحببت ديانة النصارى ، وفضلتها على ما كنت فيه من وثنية الجاهلية ، فعمدوني وصرت نصرانيا ، وبقيت فى بيت يحيى هذا ، لأنى علقت به لعظم ما لقيته من حسن سريرته وتقواه وعلمه ، ثم حدث ما حدث بينه وبين جماعة الروم من الاختلاف المذهبى ، وانحاز الى حزب الاقباط اليعاقبة ، فاضطهده الروم اضطهادا شديدا وجردوه من رتبه واملاكه ، فانزوى بنفسه كما تعلم ، وقال لى : « اسمع يا زياد ، ها انذا قد أصبحت مضطهدا ، وربما لا استطيع القيام بما فيه راحتك او لعل فى وجودك عندى ضررا عليك من جماعة الروم ، فاذا رايت ان تذهب اليهم فافعل » . فثارت فى نفسى الحمية العربية وقلت : « والله لأبقين على ولائك ، فانا نحن العرب اذا آكلنا انسانا أوآخيناه كان لنا ما له وعلينا ماعليه ، فأنا باق على ولائك أقوم بخدمتك ما استطعت الى أن يقضى الله ما يشاء » . فبقيت عنده اقوم بخدمته الى أن سمعنا بظهور الاسلام وانتشاره ونهوض رجاله للفتح ، وما فتح الله على أيديهم من الامصار كالشام وغيرها ، وعظمت شوكتهم وتوطدت دولتهم ، ونحن فى الاسكندرية نقاسى العذاب الوانا من جراء الاضطهاد الذى يسومنا اياه الروم ، لأننا على غير مذهبهم كما تعلم ، وكنت قد علقت بيحيى هذا وعلق بى ، وصار يأتمنني على اسراره ويركن الى فى كل شؤونه ، فبعث الى ذات يوم فجئته فقال لى : « ما رأيك يا زياد ؟ » . « قلت : « فيم ياسيدى ؟ » . قال : « انى ارى من ظلم هؤلاء الروم وعسفهم ما تكاد تزهق له روحى ، وقد سمعت بما قام به عرب الحجاز هذه الأيام وما فتحوه من الأمصار حتى اخرجوا الروم من الشام والعراق وغيرهما ، وقد علمت انهم قادمون الى مصر واميرهم صاحبك عمرو ، ويلوح لى انهم سيفتحونها عنوة كما فتحوا غيرها من الأمصار ، وقد اخبرنى بعض الرهبان الذين فروا من وجوههم من دمشق وغيرها انهم اقوام اشداء يصبرون على الحرب صبر الأسود ، لا يهابون الموت ولا يخافون السيوف ، وانهم مع ذلك أهل مروءة وذمام ، فاذا جاءوا مصر فلا شك انهم

يفتحونها ، ولا يخفي عليك ان جماعة القبط يكرهون الروم لما بينهمـا من الاختلاف المذهبي المشهور ، والمقوقس رئيس القبط ، وهو حاكم البلاد ، وقد اسر الي انه يفضل العرب على الروم اذا ضمنوا له حياته وعاهدوه على الدفاع عن القبط ، ولكن المقوقس لا يستطيع المجاهرة برايه هذا ، ولا يرى وسيلة لابلاغه العرب ، وقد وكل الي ان افعل ذلك ، ولا أرى رجلا اثق به واركن اليه غيرك ، ولا سيما انك تفهم لسـانهم وتعرف قائد حملة نفسه ، فانت افضل من ننتدبه لهذه المهمة ، فهل لك ان تقوم بها ؟ وهل تظن العرب اذا عاهدوا على أمر قاموا بعهدهم ؟ » . قلت : « نعم يا سيدى ، ان العرب اكرم الناس اخلاقا واوفاهم عهودا ، ولك في خادمك هذا دليل واضح ، وانا واثق ان العرب اذا عاهدوكم على أمر قاموا بعهدهم » . فدفع الي كتابا مكتوبا على ورق البردي باللسان القبطي ، وهو الذي رايته بيدى امس ، وقال لي : « خذ هـذا الـكتاب ، واذهب به الى معسكر العرب حتى تلتقي بهم فادفعه الى عمرو بن العاص بعد أن تشرح له الحالة شـفاها » .

فحملت الكتاب وخرجت من الاسكندرية ابحث عن العرب ومقامهم حتى علمت انهم قادمون الينـا وسينزلون هـذا المـكان ، فوصلت صباح أمس الى هذا المعسكر فرايته للروم ، وفيـه بعض العـرب ، فاختلطت بهم ، وتظاهرت بأني من عرب غزة ، واني رافقتهم ، وان ثيـابى هـذه سلبتها من عساكر الروم هناك ولبستها ، فعلمت منهم ان عمروا سيصل قريبا الى هذا المكان ، فقلت : « لاصبرن حتى يجيء واقضي مهمتى »

□

فلما سمع مرقس قصـة زياد وثق به وركن اليه ، وعلم انه على دعوته ، وانهما شريكان في الأمر ، ولكنه استغرب حكاية عمرو ، واستبشر بوقوع الكرة في كمه وقال : « يلوح لي يا زياد أن الكرة لم تخطيء موضعها » . ثم عاد الى ما شغل باله من امر يوقنا فقال : « وهل علمت أمر البطريق يوقنا وسبب اسلامه ؟ »

قال : « علمت من بعض رجال العرب هنا انه كان حاكما على مدينة حلب من بلاد الشام ، وانه لما راى فوز العرب وشدة بطشهم وانهم فتحوا مدينته انحاز اليهم واعتنق ديانتهم . واما رجاله فهم مطيعون له في حربه ، ولكنهم في الغالب باقون على ديانتهم »

فتذكر مرقس حينئذ ما قاله رسول يوقنا الذاهب الى ارمانوسة ، فقال في نفسه : « ان الرجل لخادع ممارق ، واظنه يريد بسيدتي ارمانوسة سوءا ،

فهو يتظاهر بأنه قادم بأمر قسطنطين بن هرقل ، بينما يريد حملها لنفسه . والله لاكيدن له كيدا ! »

ثم قال زياد : « ها انذا قد اطلعتك على حقيقة امرى ، فما هى حقيقة امرك ؟ »

قال مرقس : « ارى يا اخى ان بين حكايتى وحكايتك مشابهة ، وما يهم احدنا يهم الآخر » . وحكى له ما جاء من اجله ، ثم قال : « ولكننى فى شغل شاغل الآن بسيدتى ارمانوسة ، ولا ادرى كيف انقذها ، فقد بعث اليها يوقنا يدعى انه مرسل من قبل قسطنطين خطيبها ، وقد علمنا الآن انه انما جاء نصيرا للعرب على فتح مصر ، فما العلاقة بين الامرين ؟ انى لأراه يريد شرا بسيدتى ، وقد اصبحت فى قلق عليها ، فما رأيك ؟ »

ففكر زياد قليلا ثم قال : « لاتبال بهذا الخائن ، فانى على يقين من حسن ذمام العرب ، واذا اخبرنا عمروا بحقيقة الامر وعاهدنا على صيانتها وحفظها فانه يقوم بعهده ، وغدا ان شاء الله ادخل عليه واطلعه على جلية الخبر ، واذا شئت أن تكون معى فانك ترى بعينيك وتسمع بأذنيك ما قلته لك عن شهامة العرب وكرم اخلاقهم ، ولكننى أود ان أدخل عليه بلباس البدو لكى يعرفنى حالما يرانى »

فتذكر مرقس ثياب البدو التى حملها من بلبيس فقال : « ان عندى ثوبا بدويا حملته من بلبيس ، فهل تريد أن تلبسه؟ » . ففرح زياد به وقال : « أود كثيرا أن ادخل عليه به ، فأين هو ؟ » . قال : « قد خبأته فى مكان ما ، وسأعطيكه الليلة »

ثم رجع الاثنان وقد سر كل منهما بالآخر ، وقضيا بقية ذلك اليوم فى فى المعسكر يتفرجان . ثم غادراه فرأيا عبيد العرب قد خرجوا يجمعون الحطب . ولما امسى المساء ظهرت النيران ، فرأيا الأسمطة أمام خيمة كل امير والذبائح قد ذبحت وجلس الناس للطعام

ولما غابت الشمس سمعا المؤذن يؤذن ، وقد قام المسلمون للوضوء والصلاة ، وبعد تناول الطعام اجتمع الأمراء الى خيمة عمرو ، وبين أيديهم قراء القرآن يتلون الآيات ، والناس يذكرون ويكبرون ويشكرون الله على ما آتاهم من النعم ويسألونه النصر على الاعداء . فقضيا تلك الليلة فى عسكر يوقنا ، لانهما كانا فى لباس الروم مثل عسكره ، وفى الغداة لبس زياد لباس البدو ، فالتحف الشملة وتعمم بالعمامة ، وسار هو ومرقس من معسكر يوقنا حتى وصلا الى معسكر عمرو ، فدخلا بين الخيام فاذا بالعرب قد قاموا للصلاة وكلهم ركع يصلون ، وشاهدا على كثير منهم ثيابا رومانية ودروعا وأسلحة وادوات يستعملها الروم فى قضاء حوائجهم ، فقال زياد : « انظر يا مرقس الى آثار النصر وبقايا الفتح ، ان هؤلاء العرب لم

يرتدوا فى حياتهم مثل هذه الالبسة ، ولا راوا مثل هذه الادوات التى غنموها من الروم فى حروبهم بالشام »

وكانا قد شاهدا بين ايدى هؤلاء البدو كثيرا من الاثاث الرومانى كالابسطة والطنافس وعليها رسوم رومانية ، وفيها صور بعض القديسين والأبطال ، قد فرشها العرب على التراب يجلسون عليها او يلتحفونها ، وبين أيديهم طسوت من الفضة ، وصحف من ابدع الصنائع ، وكلها أسلاب من مدن الشام

سار مرقس وزياد حتى وصلا الى فسطاط الأمير فاذا هو قائم على عمد متشامخة ، والفسطاط أبيض من الخارج ، وداخله مبطن بالحرير المزركش ، وفى أرضه البسط والطنافس . وعرفا خيمة عمرو من العلم الأسود والكتابة التى عليه ، وكانا قد شاهداه بيد وردان ساعة وصول الجند ، فلما اقتربا من الفسطاط استقبلهما وردان عند الباب ، وقد عجب لاجتماع هذين الرجلين على تناقض لباسهما ، فسألهما عن غرضهما فقال زياد بلسان عربى فصيح : « نريد مقابلة الأمير ؟ » . فقال وردان : « ومن الرجلان ؟ » . قال زياد : « رسولان يريدان الدخول على الأمير »

فدخل وردان ثم عاد ففتح لهما الباب ، فدخل زياد بعد أن خلع نعليه كعادة العرب ، وعمرو جالس فى صدر الخيمة جلوس العرب فى خيامهم ، لأنها لخلوها من الجدران الصلبة لا يستطاع الاستناد اليها ، فكانوا يجلسون الاربعاء ، أو يجثون قعودا ويلقون أيديهم على الركبتين أو يعقدونها عليهما فيستريحون ، ويقوم ذلك عندهم مقام الاستناد . أما عمرو فكان على ركبتيه سيف طويل صنع اليمن ، وأمراؤه بين يديه وفى مثل جلوسه ، وفى بعض جوانب الفسطاط رجل جالس الأربعاء يتلو القرآن والكل يصغون اليه يرددون ما يقوله بين شفاههم . فلما دخل زياد اراد أن يبغت عمروا بتحية الجاهلية لينبهه الى حاله فقال : « ابيت اللعن أيها الأمير ! »

فبغت عمرو ومن فى مجلسه من هذه التحية ، وقد كادوا ينسونها لاستبدالهم بها بعد الاسلام تحيته : « السلام عليكم » ، فأجابه عمرو على الفور : « أعوذ بالله من كفر الجاهلية ، ما بالك تحيينا بتحية الجاهلية يا اخا العرب ؟ » . قال ذلك ونظر الى الرجل ، فتذكر انه يعرفه ، ولكنه نسى اسمه لأنه قد فارقه منذ عشرين سنة أو تزيد ، وقد كان شابا فاصبح كهلا ، فامعن النظر فيه وزياد لا يزال واقفا ينتظر الأمر بالجلوس ، وكان القادم على الأمير عندهم لا يجلس الا بعد أن يدعوه الأمير الى ذلك ثلاث مرات . فقال عمرو : « من الرجل ؟ »

فأجاب زياد : « ان الرجل اخوك فى الجاهلية ، ورفيقك الى الاسكندرية »

فتذكره عمرو ، فنهض له قائلا : « اهلا بزياد » وعانقه ، وبعد أن تصافحا امسكه بيده واجلسه الى جانبه وهو يقول : « مرحبا برفيق الصبا ! أهلا بالقادم ! أين كنت ؟ وما طلبتك ؟ وما الذى جئت به ؟ »

قال : « هل يأذن لى الامير بخلوة ؟ »

قال : « اجل » . ثم أشار الى أهل مجلسه فخرجوا وبقيا وحدهما

فقال زياد : « لى رفيق لا يزال بالباب ، فهل يأمر الامير بادخاله ؟ »

فامر عمرو وردان فجاء بمرقس ، وفعل مرقس مثل ما فعل زياد ، فخلع نعليه وقبل يد الامير ، فأذن له بالجلوس فجلس وقد هاله الموقف

فقال عمرو : « ومن الرفيق ؟ » . قال زياد : « رسول من رسل القبط ، وساشرح لك حاله يا مولاى »

قال : « قل يا زياد انى والله قد انست بلقائك بعد طول الفراق ، ولكننى آسف لبقائك على جاهليتك ، وقد من الله على خلقه بالاسلام ، وهو الدين الحق الذى سيظهر على الدين كله »

قال زياد : « لست جاهليا ، ولكنى من أهل الكتاب »

قال : « وأى كتاب ؟ » . قال : « النصرانية »

قال : « ان النصارى أهل كتاب حقا ، وقد أوصانا بهم النبى (صلعم) خيرا . قص علينا خبرك يا زياد . انى والله فى لهفة لمعرفة حالك وما كان من أمرك بعد أن فارقناك بالاسكندرية . الا يزال ذلك القسيس حيا ؟ »

فقال : « لا يا سيدى انه مات ، وطالما أثنى على شهامتك وذكرك بالخير »

فقال : « وكيف قضيت هذه السنين بالاسكندرية ؟ »

فقص عليه حكايته من أولها الى آخرها حتى وصل الى الكتاب الذى يحمله فأخرجه من جيبه ودفعه اليه فاذا هو مكتوب بالقبطية ، فقال عمرو : « هل ادعو المترجم ليقرأه لنا ؟ »

قال : « لا ، بل أنا اترجمه »

قال : « وهل تعلمت لسانهم وحفظت لهجتهم ؟ » . قال : « نعم يامولاى »

قال : « اقرأه » . فترجم الكتاب واذا فيه :

« من المقوقس حاكم مصر الى الأمير عمرو بن العاص قائد جند العرب . سلام

» أما بعد فاننا معشر الاقباط قد علمنا مجيئكم الى بلادنا . وقع الينا ما أوتيتم من النصر فى بلاد الشام وغيرها ، وعلمنا ما قدر الله لكم من الغلبة على جماعة الروم حيث حللتم ، وما ذلك الا لما أحبوا من دنياهم وما أحببتم من

آخرتكم . وقد كان نبيكم قد بعث الينا منذ بضع عشرة سنه يدعونا الى الاسلام وان نسلم اليه البلاد . وهذا كتابه مرسل مع حامل هذا الكتاب لتقراوه ، فأجبناه بأن ذلك ليس فى طاقتنا لأننا محكومون وان الامر راجع الى ملكنا هرقل . اما وقد راينا ما عززكم الله به من النصر ، وقد جئتم الى هذه البلاد تريدون فتحها ، فقد بعثت اليكم بهذا الكتاب لأعلمكم اننا نحن الأقباط لسنا أعداءكم ولا نريد محاربتكم ، وانما اعداؤكم هم الروم وجندهم، فهذا قدر لكم النصر ، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء ، فاذكروا أننا فى ذمتكم واوصوا رجالكم الا يؤذونا ، والا يسيئوا الى رهباننا ، أو يهدموا أديرتنا ، فانها بيوت الله . واهلها لا يقومون بأى حرب . ولو كان الامر عائدا الينا ما رميناكم بنبل ، ولا جردنا عليكم سيفا . وجماعة القبط باقون على قولى هذا الى ان يقضى الله بما يشاء

« كتبه المقوقس حنا بن قرقت حاكم مصر »

وكان زياد يقرا وعمرو مصغ اليه ينظر الى الارض ، ويمشط لحيته بأصابعه . فلما اتم قراءة الكتاب رفع عمرو راسه وقال : « واين كتاب نبينا صلى الله عليه وسلم ؟ » . فمد زياد يده فاخرجه ، وكان محفوظا فى صندوق صغير من العاج ، ففتحه واخرج الكتاب منه ، واذا هو من جلد ، فتناوله عمرو ونشره وتأمل موضع الخاتم فاذا هومكتوب فيه «محمد رسول الله » على ثلاثة اسطر

فعرف فيه خاتم النبى ، ونظر الى الخط فاذا هو خط الامام على بن أبى طالب ، وهوأول من تولى الكتابة فى الاسلام ، وكان كاتب النبى ، وتولى الكتابة غيره أيضا ، وكان عمرو بن العاص فى جلتهم . ولما تحقق انه كتاب النبى ، استأنس به وقبله بكل احترام ، وجعله على راسه ثم قراه فاذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام . اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فان توليت فعليك اثم كل القبط . يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . ويلى ذلك خاتم كما يلى :

الله
رسول
محمد

فقال عمرو : « صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما ما يلتمسه المقوقس من رعاية طائفته وحماية الأديرة والرهبان فذلك مما لا نحتاج فيه

الى وصاية لأننا أوصينا به من قبل، فقد حدثني عمر امير المؤمنين انه سمع رسول الله (صلعم) يقول : (ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم فيهم صهرا وذمة) . وقد أوصانا الله خيرا بالرهبان والقسيسين اذ قال فى كتابه العزيز : (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لايستكبرون). ومن وصايا أبى بكر رضي الله عنه قوله يوصي المسلمين وقد ساروا للجهاد : (وستمرون على قوم فى الصوامع رهبان فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم) . فليطمئن القبط ، انهم فى ذمتنا لهم ما لنا وعليهم ماعلينا ، وانما جئنا لمحاربة الروم . فاذا منعونا حصونهم وابوا الاسلام او الجزية وضعنا فيهم السيف حتى يقضي الله ما يشاء وهو خير الحاكمين ، فان الرجل منا ينتظر شهادته ، فاذا نالها أقام فى النعيم وهو خير له وأبقى ، وسأكتب الى المقوقس كتابا فى ذلك »

□

فقال زياد : « اني لأعجب لحال الانسان وتقلبات الزمان يا عمرو ! الا تذكر يوم كنا فى الجاهلية لا نعرف الدين ؟ اني أذكر أياما كنا نعظم فيها أصنام الكعبة ونستخير هبل الأكبر ونذبح الذبائح وعيوننا مغمضة من جهلنا » . فتنهد عمرو وقال : « ان الجاهلية عمى . واني لأحزن على أيام مرت بى قبل الاسلام ، واشعر بعظيم ما ربحت بالهداية التى اهتديتها ، وأود لكل امرىء مثل ما كسبت » . فقال زياد : « وكيف كان اسلامك ؟ » . قال : « أما اسلامي فجاء متأخرا ، وقد كنت من أعداء النبى صلى الله عليه وسلم ، فانه لما قام يدعو الناس الى التوحيد اضطهدته قريش ، وشددوا النكير عليه حتى اضطر اصحابه ان يهاجروا الى النجاشي ملك الحبشة فأمنهم ، ثم أرسلتني قريش ورفيقا لى بهدية الى النجاشي ليسلم لنا المهاجرين ، فأبى وكان عونا لهم علينا ، فعظم عندى أمر صاحب الدعوة ، ووقعت فى نفسي رهبة منه ، لكني بقيت على دين الجاهلية الى السنة الثامنة للهجرة ، وكنت فى اثناء ذلك افكر فى امره صلى الله عليه وسلم، فوجدت أعماله ناطقة بصدق دعوته ، فاجتمعت يوما بخالد بن الوليد ، وعثمان بن طلحة العبودي ، وهما لم يسلما بعد ، فقلت لخالد : (أين يا أبا سليمان ؟) . قال : (والله لقد استقام الميسم ! ان الرجل لنبى ، اذهب والله فحتى متى ؟) . فقلت : (ما جئت الا للاسلام) . فقدمنا على النبى (صلعم) فتقدم خالد فاسلم ، ثم تقدمت أنا ، وكانت أول مرة لقيته فيها وجها لوجه فملكتني الهيبة لمنظره ولما جمع الله فيه من المحاسن »

فاشتاق زياد لمعرفة اوصاف النبي فقال : « وما الذى ارهبك منه ؟ وما هى أوصافه ؟ »

فقال عمرو : « والله يا زياد انى لا انسى ساعة لقيته فيها ، فان صورته لا تزال مرسومة على لوح صدرى منذ رايته يوم جئت التمس الاسلام . وأما صفاته فهو ليس بالطويل ولا بالقصير ، ضخم الراس واللحية ، شثن الكفين والقدمين ، مشرب بالحمرة ، وكان لما لقيته واقفا ، فمشى فاذا هو يتكفأ كأنما ينحط من صبب ، لم أر قبله ولا بعده مثله ، وكان أدعج العينين، سبط الشعر ، سهل الخدين ، اذا التفت التفت جيما ، ولعله كان اذ ذاك قائما من الصلاة ، وقد تحدر العرق على وجهه كاللؤلؤ الرطب . وفوق كل ذلك فان الهيبة كانت تجلله فلم أستطع النظر اليه طويلا . فوقفت بين يديه فقال لى : (ما جاء بك يا عمرو ؟) . قلت : (جئت أطلب الهداية يا رسول الله) . قال : (أتريد الاسلام اذن قل : اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله) . ثم دخل عثمان بن طلحة فقال مثل قولى ، وصلينا جيما ، وقد شعرت والله يا زياد بغشاوة انقشعت عن عينى ساعة الشهادة »

وكان عمرو يكلم زيادا وعواطفه تتكلم معه وقلبه يتهلل فرحا ، ثم قال : « واخذت من ذلك الحين أجاهد فى سبيل الله ، وآخر امر فعلته فتح بيت المقدس ، وأتيت منها الى مصر كما علمت ، وترانا لا نقدم بلدا الا فتحناه عنوة أو صلحا ، وكل ذلك ببركة رسول الله (صلعم) . ولأن يقاتل احدنا العدو رغبة فى الآخرة ويستشهد فى سبيل ذلك ، خير له من الذل ، بل هو خير من الحياة الدنيا ، لأن الدنيا دار فناء والآخرة دار قرار » . وكان عمرو يتحدث والعرق يتصبب منه لتهيج عواطفه وشدة رغبته فى الجهاد

فقال زياد : « لا عجب يا عمرو اذا نصرتم فى حروبكم وقد عقدتم الخناصر واخلصتم النية فى الجهاد ، واما جماعة الروم فانما همهم التفاضل فيما بينهم، وفى قيام بعضهم على بعض ما يحول بينهم وبين النصر ، وكأنى بدولتهم قد دالت وشمسها قد مالت »

وكان مرقس فى اثناء ذلك صامتا لا يفهم ما دار بينهما ، ولكنه كان معجبا بملامح عمرو ، وما يلوح فى وجهه من البسالة ، وما ينبعث من عينيه من أشعة الذكاء ، وكان يود الدخول فيما جاء من اجله ، لانه خاف ان يصل رسول يوقنا الى ارمانوسة فتنطلى الحيلة عليها فيصيبها شر ، على انه لم يكن يجسر على الدخول فى الحديث من تلقاء نفسه

ثم التفت عمرو الى زياد قائلا : « ومن هو صاحبك يا زياد ؟ » . قال : « هو من قبط مصر أيها الامير ، من جند المقوقس ، وقد جاء ليقص عليك حكايته ، ويسالك أمرا لا شأن للحرب فيه . ولكننا قد اطلنا الحديث الآن ،

وأنت قادم من سفر تحتاج الى الراحة ، فلا نثقل عليك أكثر من ذلك »

قال : « ان التعب لا يقعدنا عن حاجات الناس ، فان نبينا صلى الله عليه وسلم انما أرسل رحمة للعالمين »

فقال زياد وقد شعر انه أطال الحديث : « بارك الله فيك ايها الامير ، لا زلت ملاذا للطالبين . اما أمر صاحبنا فليس مما يسرع اليه ، واذا أذن مولاي ان نعود في الغد فعلنا ، وأما الآن فاننا نستأذنه في الانصراف » . قال ذلك وهم بالوقوف ، فوقف مرقس وهو لم يفهم ما قيل ، فوقف عمرو وقد أجاب زياد الى طلبه ونادى وردان فحضر فقال : « هذان ضيفان علينا ، وقد شعرت باستيحاش هذا القبطي لحديثنا لأنه لا يفهمه ، فعليك بمحادثته بلسانه الليلة حتى لا يقول انه رأى في ضيافتنا وحشة »

فقال وردان : « لبيك » ، واصطحب الرجلين وخرج بهما ولما أفهم مرقس ما دار بشأنه وهم خارجون أسف لتأجيل الامر ، ولكنه لم ير مندوحة عن الاذعان

وسار بهما وردان الى خيمته ، وانزلهما على الرحب والسعة ، وقضوا بعض ذلك الليل في الحديث عن الاسلام واخبار الصحابة والفتوحات ، وما عرف به الخليفة عمر بن الخطاب من المناقب الحسان ، وما يروى عن النبي من الأحاديث ، فسحر زياد ومرقس بما سمعاه وقالا معا : « والله ان من كانت هذه مناقبهم وخلالهم لا غرو اذا دوخوا البلاد وفتحوا الأمصار » . وقد أعجبا بنوع خاص بما سمعاه عن عمر بن الخطاب حين جاءه عرفجة بن مازن رسولا بكتاب من أبي عبيدة بما فتح الله على المسلمين ، فوصل عرفجة الى المدينة وعليه قباء فاخر من الديباج ، وعلى راسه مطرف خز مذهب ، وهما من أسلاب الروم ، فترجل عن ناقته ، وسلم الكتاب الى عمر وهو في المسجد يصلي ، فنظر الى عرفجة شزرا وقال : « من الرجل ؟ » قال : « عرفجة بن مازن » فقال : « يا ابن مازن اما كان لك في رسول الله اسوة حسنة ؟ ان هذه ثياب الجبارين ومن جعل الله لهم الدنيا جنة ، وهذا الديباج حرام على الرجال منا ، لأنه لا يصلح الا للنساء ، وهذا الذي عليك تصدق به على فقراء المدينة . أما والله لقد دخلت يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مزمل بشريط ، وليس بين جلده وبين الشريط شيء ، وقد اثر الشريط في جلده ، فلما رايت ذلك بكيت فقال « ياعمر ما الذي ابكاك ؟ » . فقلت : « يارسول الله ان كسرى وقيصر يعيشا في ملك الدنيا وانت رسول الله بهذه المثابة ! » . فقال : « ياعمر ما ترضى أ تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة » . فناوله عرفجة الكتاب وسار من ساعته و... الديباج واهداه الى خالته

وحكى لهما وردان حكايات اخرى كثيرة مثل هذه فازداد اعجابهما ، وكان

يخاطبهما بالقبطية ، وود مرقس لو كان المقوقس معهم ليرى امر العرب وحالهم ، ويزداد كرها للروم ورغبة فى التخلص منهم ، ثم رأى أن يستطلع من وردان امر يوقنا وعلاقته بقسطنطين او المسلمين ، فقال : « وكيف ترون يوقنا ؟ » ، فالتفت وردان الى مرقس وهز راسه قائلا : « انه يدعى الاسلام والقيام بنصرته ، وقد وثق به اميرنا ، ولكننى والله لا اظن به خيرا ، ولا اعتقد صدق ما يدعى ، وقد جاء امام جيشنا ليحاربكم ، ونحن لا نبالى اذا كان معنا او علينا فان سيوفنا تنصرنا حيثما حللنا »

قال مرقس : « وهل قسطنطين بن هرقل يحبه ؟ »

قال وردان : « وكيف يحبه ؟ انه لو استطاع قتله ما تأخر لحظة عن اذاقته الموت الزؤام لأنه يحارب قومه » . ففهم مرقس انه جاء بدسيسة للايقاع بسيدته ، فصبر ليرى ماذا يكون من امره

وباتوا ليلتهم ، وافاقوا فى الصباح على اصوات المؤذن والمسلمون قيام للصلاة ، واذا بيوقنا قد جاء الى خيمة عمرو ، وخلا به برهة ووردان معهما ، ثم خرج وردان فنادى الامراء ليحضروا ، فدخلوا خيمة عمرو ، ولبثوا يتفاوضون ، وجاء فى اثناء ذلك وردان واخبر زيادا ومرقس ان الامير قد عزم على المسير الى الفرما فى ذلك اليوم

فعظم الامر على مرقس لأنه كان يود مخاطبة عمرو فى امر يوقنا حتى اذا كان قد جاء بدسيسة فعليه ان يحبط حيلته ويدبر وسيلة لانقاذ سيدته ارمانوسة بواسطة عمرو ، فبهت برهة ثم قال : « وما الذى حمله على سرعة المسير الى الفرما ، وقد كان فى ظننا انه يستريح بضعة ايام قبل مهاجمتنا ؟ »

قال : « ألم تر يوقنا قد اختلى به فى هذا الصباح ؟ فالظاهر أنه ع... الفرما ما يوجب الاسراع الى فتحها ، ولعل جواسيسه اخبروه ان المقوقس مرسل نجدة اليها فأرادوا معالجتها قبل وصول المدد »

فتحير مرقس وظهر الارتباك على وجهه وادرك زياد فيه ذلك فقال له : « لا ترتبك ، لعلنا نخاطبه بشأن ما تريد غدا بعد وصولنا الى ظاهر المدينة ، فان الجند يصل الى الفرما عند الظهيرة ، ولا بد قبل المهاجمة من الاستعداد »

فصبر مرقس على مضض ، ثم تركهما وردان وذهب الى خيمة عمرو للتأهب ، فخلا زياد بمرقس وقال له : « مالى أراك مضطربا ؟ »

قال : « انى والله خائف على سيدتى بعد ما علمت أن يوقنا هذا أراد بها الغدر ، وانه ليس رسول قسطنطين اليها ، فلعله يريد اختطافها لنفسه ، وقد ارسل رسله لهذه الغاية »

وفيما هما فى ذلك شاهدا هجانا قادما من بلبيس ، فحقق مرقس النظر فيه فاذا هو بروفس رسول يوقنا فقال : « هذا يا زياد رسول يوقنا قد عاد

من بلبيس ، هلم بنا نسأله عن نتيجة مخابرته » . فأسرعا اليه خارج المعسكر حتى لقياه فناداه مرقس ، وقد اظهر ارتياحه لرؤيته ، وسأله عن جواب ارمانوسة فتبسم قائلا : « انها فى خير وقد سرت سرورا عظيما بما اخبرتها به ، واخذت فى التأهب واعداد عدتها للمسير ، وامرتنى ان استعجلك الرجوع اليها ، وقد اهدتنى هدية نفيسة مقابل بشارتى »

قال ذلك وساق هجينه الى خيمة يوقنا . أما مرقس فقال لزياد : « ها ان الحيلة قد انطلت على سيدتى ، ولا ادرى كيف أفعل ؟ وقد طلبت الاسراع فى ذهابى اليها ، ولكننى لا أرى أن اذهب قبل ان آخذ موثقا من عمرو ليدفعن عنها كل سوء »

قال : « اما انا فأرى ان تنتظر الى ظهر اليوم بعد وصول المعسكر الى ظاهر الفرما ، وانا ابذل الجهد فى مقابلة عمرو وعمل المستطاع ، فلنقف الآن على هذه الاكمة لتشهد نظام الجند العربى وتأهبه للحرب ، وسترى انهم سيتركون خيامهم واثقالهم هنا ، ويذهبون بأنفسهم وعدتهم فقط »

فصعدا الى ربوة ووقفا ينظران الى الجند وانتظامه ، فاذا بالاعلام قد تفرقت كل علم الى جهة ، فحمل وردان علم عمرو بن العاص ومشى فى المقدمة ، وحمل اميران آخران علميهما ، ووقف احدهما على الميمنة والآخر على الميسرة ، فاجتمعت الجنود الى هذه الاعلام كل الى اميره . ثم سمعا أصوات المنادين يقولون : « النفير النفير ! يا خيل الله اركبى » . فقال مرقس : « وما هذه المناداة ؟ » . قال : « انهم يدعون الجند ، وهذا شعار لهم يقولونه اذا ارادوا الركوب للحرب » . فقال مرقس : « وكيف تعرف هؤلاء الاقوام ، وهل هم من قبيلة واحدة ، فانى أرى تشابها فى ملابسهم »

قال : « ان الفرق فى لباسهم لايظهر لك لانه طفيف ، ولكنهم ليسوا قبيلة واحدة ، فانظر الى الذين يحملون النشاب ، وهم خفاف سراع ، انهم من رجال اليمن ، وهم مشهورون برمى النشاب »

فقال مرقس : « أرى تنظيم جندهم يشبه نظام جندنا ، فهذه المقدمة والجناحان والقلب والساقة ، ولكنى اعجب لاختلاف الوان راياتهم خلافا لنا ، فان راياتنا متشابهة » . قال : « علمت أمس من بعض العرب ان الراية الصفراء هى فى الغالب راية المهاجرين الذين هاجروا الى المدينة مع النبى ، وهم اول القائمين بنصرة الاسلام ، وترى انهم قد وقفوا فى قلب الجند » . فقال مرقس : « ولكننى أرى راية عمرو سوداء » . قال : « انه ليس من المهاجرين ، فقد اخبرنى امس انه أسلم بعد الهجرة »

ثم رايا الخيالة قد تفرقوا على الميمنة والميسرة وفى المقدمة ، وهم على خيل من الخيول العربية المشهورة . فقال مرقس : « أرى خيولهم ضئيلة ضامرة ، وقد كنت اسمع بجودة خيل العرب » . فضحك زياد وقال : « ان خيل

العرب اجود ، وهى موصوفة بالرقة والسرعة ، ولا عبرة بكثرة اللحم »

ثم نظر مرقس الى مؤخر الحملة فاذا بالهوادج محمولة على الجمـال فقال : « تقول يا اخى انهم يسيرون برجالهم للحرب وتبقى الخيام هنا ، ولكن ها انذا ارى الهوادج محمولة وفيها النساء والاولاد »

قال : « ان العرب اذا ساروا الى الحرب حملوا نساءهم معهم ، فانهن يحرضن الرجال على الحرب ويحثثنهم فيستحيون منهن اذا احسوا بضعف او مالوا الى الفرار »

وفيما هما ينظران الى تنظيم الجند اذا بعمرو قدجاء على فرسه ، ووردان راكب الى جانبه يحمل العلم ، وعمرو يخترق الجنـد ، فينتقل من فرقة الى اخرى، فقال زياد : « تعال نقترب من الجند لنسمع ماذا يقول عمرو فى طوافه»

فنزلا حتى دنوا من المعسكر فاذا بعمرو يطوف فى الرجال يرتب صفوفهم ويحرضهم على الثبات ، فيذكرهم بما نالوه من النصر فى الشام وبيت المقدس ويقول : « يا أهل الاسلام والايمان ، يا حملة القرآن ، يا أصحاب محمـد صلى الله عليه وسلم ، اننا ذاهبون لمقابلة الروم ، فاصبروا صبر الرجال ، وثبتـوا اقدامكم ، و لاتزايلوا صـفوفكم ، ولا تنقضـوا نيتكم ، ولا تخطوا خطوة الا وانتم تذكرون الله ، ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبـداوكم ، واشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرق ، والزموا الصمت الا من ذكر الله ، ولا تحدثوا حدثا حتى آمركم » . ثم تحول الى مكان آخر من الجند وقال : « معاشر العرب انـكم فى بلاد العدو بعيدون عن الاوطان، ولا ينجيكم الا الطعن والثبات فى الحرب ، فاذا صبرتم وجاهدتم ملكتم الرقاب، وان وليتم فليس وراءكم الاالمفاوز والبرارى، وعين الله ترقبكم »

ثم سار الى مكان الهوادج وخاطب النساء قائلا : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ان النساء ناقصـات عقل ودين) . فكن ممّن حافظن على دينهن ، وقدمن فى ذلك النية ، وحرضن أزواجكن على القتـال ، ومن رجع منهم منهزما فاحصبن وجهـه بالحجارة ، واضربن جواده بالعمـد ، واظهرن أولادكن لأزواجكن ، وقلن لهن : (قبح الله وجه رجل يفر عن حليلته ، فلستم بعولتنا اذا لم تمنعونا) حتى يرجعوا » . فلمـا سمعت النسـاء ذلك وقفن متنمرات مرتجزات يقلن الشعر

كل ذلك والناس يوحدون ويهللون ويكبرون ، ثم انتظمت الحمـلة ومشى الجند ، فجعل مرقس ينظر الى خيـام يوقنـا فاذا هى فى مكانها ، ولم يخرج يوقنا مع الجند ، ولم يخرج احد من رجاله

فخاف ان يكون قد اعتزم الذهاب الى بلبيس وتنفيـذ مكيدته على حين غفلة ، فجعل يفكر فى أمره ، ويتردد بين أن يسير الى بلبيس فيطلع سـيدته على ماعلمه من امر يوقنا ، أو أن ينتظر حتى يرى عمرو ، وفيما هو فى تفكيره

التفت زياد اليه وقال : « مالي اراك حائرا في امرك ؟ » . قال . « اني خائف من يوقنا ومكيدته ، واخشي أن يسير الى بلبيس وينفذ مكيدته علي غرة » . فقال : « اذا كنت ترى ذهابك الآن فافعل، وعلى انا آن اري عمرو وآخذ العهد منه ، وابعثه به اليك اما كتابة او شفاها »

فارتاحت نفس مرقس الى هذا الرأى وقال : « بورك فيك يا زياد ، انى والله لا انسي لك هذا الصنيع ، وارى ان ابادر بالذهاب حالا ، ولكننى اتيت ماشيا ، فاذا عدت كذلك اخاف الابطاء ، وربما سبقني يوقنا اليها على خيله ، فلا فائدة من ذهابى » . فقال زياد : « اما الخيل فلا يجود العرب بها ، فان العربي يضحى بنفسه لأجل فرسه ، ولكننا ربما استطعنا الحصول على جمل والجمل اسرع من الفرس احيانا ، فهل تعودت ركوب الجمال ؟ » . قال : « لا والله ، لم اركبها عمري، ولكنى اركبها الآن ركوب المضطر، والاتكال على الله » . ففكر زياد كيف يحصل على جمل ، والجند قد ساروا بخيلهم وجمالهم ، فنظر الي الركب الباقي فاذا فيهم بعض الجمال عليها الزاد والخيام ، فقال لمرقس : « البث هنا ريثما اعود اليك بالجمل». ثم تركه وذهب الى الخيام يجول بينها لعله يرى احدا يعرفه فلم يعثر على احد ، فأوغل فى المضارب ، فلاح له عن بعد جمل سائب فى البرية ، فعلم انه يطلب المرعى ، فحدثته نفسه ان يقبض عليه ويأتى به الى مرقس خلسة ، ولكنه خاف سوء العاقبة ، فوقف برهة يفكر فى ذلك فلم يجرؤ على السرقة ، ثم نظر الى الجمل فاذا به يوغل فى الصحراء ولا يطلبه احد ، فعلم انه منسي ، فعول على اللحاق به ، فاذا اعترضه احد تظاهر بامساكه وارجاعه الى المعسكر ، فسار فى اثره حتى توارى عن الناس ، فامسكه وعقله ، وعاد الى مرقس واخبره ان الجمل معقول هناك، وسارا وهما لا يراهما احد حتى وصلا الي مكان الجمل، فحلاه وقال زياد لمرقس : « اصعد الى ظهره وتشبث ، فانك اذا لم تتشبث جيدا سقطت » . وساعده على الركوب ، واوصاه ان يمسك بالرحل جيدا ، ولم يكد زياد يرفع رجله عن ساعد الجمل حتى وقف الجمل بغتة ، ومرقس لا ينتظر مثل هذا النهوض السريع فهوى عن ظهره ووقع على الارض فشج رأسه وسال دمه

فصاح : « آه . قد قتلت» . اما الجمل ففر راجعا يطلب المعسكر، فأمسك زياد مرقس واسنده الى صدره ، وقد خارت قواه وغاب صوابه ، فحار زياد وأسقط فى يده ، وخاف على صديقه الموت ، وجعل يمسح له دمه

وبينما هو على تلك الحال شاهد فارسا عن بعد ، علم من لباسه انه عربى فناداه . فتحول الفارس نحوه مسرعا ، واخرج قطعة من قماش شد بها رأس مرقس ، ورفعه عن الارض ، وقال لزياد : أسنده ، ثم ركب فرسه وحمل مرقس امامه وقد تدلى رأسه على صدره ، وساق الجواد قاصدا المعسكر ؛ وزياد يتبعه وقلبه يخفق حزنا على ما أصاب صديقه

يوقنا وأرمانوسة

فلنتركهم ذاهبين لمداواة مرقس ، ولنرجع الى ارمانوسة وما كان من امرها ، فانها لبثت فى بلبيس بعد مسير مرقس تنتظر عودته بصبر نافد لتعلم حقيقة خبر قسطنطين ، فمضى يوم وثان وهى فى لهفة وتحرق ، لا يهنأ لها طعام ولا شراب . فلما كان مساء اليوم الثانى بعثت الى بربارة فجاءتها مهرولة ، فقالت لها : « الم يكن من الحكمة يا بربارة أن أبعث بك من قبل الى اركاديوس لابلاغه ما نحن فيه ، فلعله اذا علم أننا متفقان قلبا وقالبا أسرع الى انقاذى من قسطنطين ؟ انى أخاف اذا ابطأت عليه بالجواب ان يظن بى تغييرا فيتغير ، أو يظن بى سوءا فيغضب ، فما رأيك ؟ »

فقالت بربارة : « لا اظنه يستبطئنا اذا تأخر جوابنا اسبوعا لعلمه بصعوبة المراسلات ، واظن ان انتظارنا عودة مرقس اولى حتى نعلم اليقين ، لأننا اذا تحققنا قتل قسطنطين أغنانا ذلك عن مشقات جسيمة ، ويكون فيه القول الفصل ، واذا ثبت انه لايزال حيا باقيا على عزمه عمدنا الى وسيلة للنجاة ، وعلى كلتا الحالين فالرأى لسيدتى ، مرينى أفعل ما تريدين »

فصمتت ارمانوسة مدة ، وكانت متكئة على سريرها فتنفست الصعداء وقالت : « لا أرانى قادرة على الفصل فى الامر ، فأشيرى على بما ترين »

فقالت بربارة : « ننتظر الى الغد ، فاذا لم يأتنا مرقس تدبرنا أمرنا ، والله يلهمنا ما فيه خيرنا » . فباتتا تلك الليلة وقد صلت بربارة صلاة حارة ، ونذرت نذرا لكنيسة المعلقة رجاء انقاذ سيدتها . اما ارمانوسة فكانت لاتفكر الا فى اركاديوس وقسطنطين ، وتقابل بينهما ، فيخيل اليها انهما ملاك وشيطان يمران امام عينيها . وفى الصباح جاء حاكم بلبيس يطلب مقابلة ارمانوسة فى غرفتها ، فأذنت له وقد استغربت مجيئه ، وهو قلما طلب مقابلتها

فلما دخل حياها باحترام فردت التحية ، وهى لفرط ما قاسته من الوجد والهيام قد هزل جسمها وامتقع لونها ، ونظرت الى الحاكم فاذا هو ممتقع اللون ايضا فازداد قلقها فقالت : « ما وراءك أيها الحاكم ؟ »

قال : « قد أتتنا الجواسيس ياسيدتى بنبأ دخول العرب حدود مصر ، وان فرقة منهم وصلت الى الفرما ، فهل ارسل الى سيدى [illegible] بذلك ؟ فانه

اوصانی عندما كان هنا فی زيارته الاخيرة أن استشيرك فی مثل هذه الامور لما يعهده فيك من الحكمة والدراية »

فلما سمعت ارمانوسة قوله خفق قلبهـا ، ولم تعلم بماذا تجيبه . وبعد التـأمل برهة قالت : « لابد من ابلاغه الخبر حالا واسـتنجاده ، فان العرب لايلبثون أن يصلوا الينا ، ولا أظن حامية بلبيس كافيـة لدفعهم » . فقال : « اذا امرت مولاتی انفذت من يطلب المدد» . فقالت : « لابدمن ذلك فافعل» . فخرج مهرولا

ولما خلت بربارة بسيدتها قالت لها : « ربما ذعرت يا سيدتی لهذا الخبر ، ولكنی احسبه بابا للفرج » . قالت : « وكيف ذلك يا بربارة ؟ »

قالت : « لأن سيدی المقوقس فی الحصن الآن، واذا جاءه الخبر ابلغه الاعيرج فيعلم به سيدی اركاديوس ، فاذا كان محبـا لأرمانوسـة حقيقة جاء بنفسه مددا لحامية بلبيس وهذا ما نتمناه »

قالت ارمانوسة : « صدقت يا بربارة ، فافعلی ماتريدين لانی لاأعی شيئا ، وسأنتظر عودة مرقس لأرى ماحدث لذلك الرجل (تريد قسطنـطين) » .

ولحظت بربارة عظم ارتباك سيدتها وقلقها فقالت لها : « هلم بنـا يا مولاتی ننزل الى الحديقة فتنزهين طرفك فی الرياحين والازهار، ولنترك المقادير تجری فی أعنتها ، والله يدبر الامر كيف يشاء »

فقالت ارمانوسة : « انی أفضل الانزواء على التنزه ، لأن قلبی لايسر لشیء ، ولا يرتاح لی بال قبل الوقوف على حقيقة الخبر »

فقالت : « دعی التدبير لله »

قالت ذلك وامسكتها بيدها وانهضتها ، وجاءتها برداء ارجوانی ثمين ألبستها اياه ، وزينتها بحليها وجعلت على رأسها شـبكة ثمينة من اللؤلؤ ، وضفرت شعرها ، ومشت امامها الى الباب ، فخرجت ارمانوسة فی أثرها . ولما علمت نساء القصر بخروج ارمانوسـة أطللن من النوافذ لیشاهدن حسن ريها ، فقد كن معجبات بجمالها وهندامها

فسـارت فی الحديقة تخطر بين الاشجار وهی لا ترتاح الى شیء لتعاظم هواجسها ، فجعلت بربارة تسليها بالحديث وهی لا تنطق ببنت شفة

وكانت الحديقة مشرفة على سهل خارج البلدة ، فلاحت من بربارة التفاتة فاذا بفارس قادم عن بعد ، وعليه لبـاس مرقس فظنتـه هو ، فالتفتت الى سيدتها بلهفة وقالت : « هذا هو مرقس ياسيدتی ، فلعله جاءنا بخبر يسر » . فالتفت ارمانوسة الى القادم ثم قالت : « ولـكنی اراه راكبا جمـلا من جمـال العرب ، فهل ذهب راكبـا » . فنظرت بربارة الى الرجـل وهو يقترب من

البلدة ثم قالت : « لا ليس للجمال عندنا وجود ، ولكن يظهر أنه مرقس ، ولا أعلم من أين أتى بالجمل ؟ »

وما كادتا تتمان الحديث حتى وصل الهجان الى سور المدينة ، فحط رحله الى جذع شجرة ، فخرج بعض حامية بلبيس لاستقباله وسؤاله عن مراده . وجاء أحدهم يقول : « ان القادم رسول من قسطنطين بن هرقل الى المقوقس » . ثم تقدم الى أرمانوسة يسألها هل تريد مقابلته ؟

فلما سمعت ارمانوسة ذكر قسطنطين أجفلت وانقبضت نفسها ، وقالت : « لا . لا أريد مقابلته » . فسارت بربارة الى باب الحديقة ، وأشارت الى الحراس ان يأذنوا له بالدخول ، فدخل فاذا هو جندى من جنود الروم بلباس جند مصر ، وهو لباس مرقس بعينه فقلقت بربارة على مرقس وقالت للرجل : « من انت ؟ »

قال : « رسول من مولاى يوقنا ، صاحب جند حلب ، ارسلنى بمهمة الى المقوقس من الامير قسطنطين »

قالت : « وأين صاحب هذه الثياب ؟ لعلك قد لقيت رسولنا ؟ »

قال : « نعم يا سيدتى ، وهو فى خير ، وقد تركته بالمعسكر معتزما الذهاب الى الفرما بمهمة من السيدة أرمانوسة ، وأوصانى أن أطمئنكم عليه » . قالت : « وأين كتاب الامير قسطنطين ؟ » . فمد يده الى جعبة معلقة بكتفه وأخرج حقا من الفضة ، وقدمه الى بربارة فتناولته ، وقالت للرسول : « امكث هنا ريثما أعود اليك بالجواب »

ثم تركته ، ودخلت بسيدتها الى غرفتها ، وهى لعظم كدرها لا تلوى على شىء . فلما دخلتا الغرفة فتحت بربارة الحق ففاحت منه رائحة العطر ، واخرجت الكتاب فاذا هو من ورق ناعم حسن الصنعة ، فناولته ارمانوسة لتقراه لأنها لم تكن تعرف اللاتينية . فأخذت ارمانوسة الكتاب ويداها ترتجفان ، ونظرت الى مكان الامضاء ، فرات امضاء قسطنطين باسمه ، فاختلج قلبها واغرورقت عيناها بالدموع ، وصاحت : « تبا له الا يزال حيا ؟ » . فقالت لها بربارة : « اقرأيه يا سيدتى لنفهم ما فيه ، فلعل فيه خيرا ، ولو كنت أحسن القراءة لما كلفتك قراءته »

فأخذت أرمانوسة تقرؤه فاذا فيه ما ترجمته :

« من قسطنطين بن هرقل ملك الروم الى المحترم المقوقس والى مصر

« بسم الآب والابن والروح القدس

« أما بعد : فانى قد عزمت على الشخوص الى القسطنطينية بعون الله ، فبعثت محبنا البطريق يوقنا حاكم حلب اليكم لكى تعتمدوا عليه فى ارسال خطيبتنا أرمانوسة ليأتى بها الينا ، ونحن ننتظر وصوله عند سواحل دمياط ،

وقد عهدنا اليه بهذه المهمة لاعتقادنا فيه الاخلاص ، فلا ترددوا فى تسليمه ارمانوسة والسلام »

فلما قراته ارمانوسة خارت قواها ، والقت بنفسهاعلى السرير، واجهشت بالبكاء وهى تقول : « لا . لا اذهب معه ، ولا اخرج من هذه الغرفة قبل أن تخرج روحى من جسدى »

فجعلت بربارة تخفف عنها وتقول لها : « لا تجزعي يا سيدتى ، فلست بذاهبة باذن الله الا مع سيدى اركاديوس ، ولكن علينا أن نستعين فى الامر بالحيلة ، فبماذا نجيبه الآن ؟ »

قالت ارمانوسة ، وقد اظلمت الدنيا فى عينيها : « لا تسالينى امرا فانى لا افهم ما تقولين ولا اعلم بماذا اجيب ، ولكننى اقول لك انى لا اريد الخروج من هذا المكان ابدا ، وافعلى ما يبدو لك »

فتركتها فى الغرفة وخرجت ، وبعثت الى حاكم المدينة فهرول مسرعا ، لانه كان يود أن يخدم ارمانوسة ارضاء لوالدها ، لعلمه بما لها من المنزلة عنده ، فلاقته بربارة وانفردت به ، واطلعته على كتاب قسطنطين وقالت : « ان هذا الكتاب باسم المقوقس ، ونحن لا نستطيع اجراء شيء الا بامره ، فابعث احد رجالك بهذا الكتاب اليه حتى ياتينا بالجواب »

قال : « سمعا وطاعة » . وهم بالخروج فقالت : « قف قليلا » . فوقف فقالت : « هات الكتاب » . فسلمه اليها ، فقالت : « ابعث الى رجلا تثق به لأسلمه اليه واوصيه بشيء آخر »

فخرج وعاد بشاب كان يثق به كل الوثوق وقال : « هذا هو الرسول فأوصيه بما تشائين » . فنادت الشاب وقالت له : « امكث هنا قليلا حتى اعود اليك » . ثم خرجت الى الحديقة وبعثت الى الرسول القادم من يوقنا فدخل فقالت له : « لقد سرت سيدتى ارمانوسة من هذه البشارة ، فأين هو سيدك يوقنا الآن ؟ »

قال : « هو عند الفرما برجاله ينتظر عودتى حتى يأتى ليذهب بالسيدة ارمانوسة حالا ، لان الوقت قصير ، وقد اعد لها كل معدات الاحتفال والزينة » . فقالت : « هل جاء فى جند كبير ؟ »

قال : « نعم ، انه جاء فى خمسمائة من خاصة رجال سيدى قسطنطين حراسا للسيدة ارمانوسة فى مسيرها »

قالت : « بارك الله فيه . اذهب اليه واخبره ان السيدة ارمانوسة تهديه السلام ، وتشكر حسن صنيعه ، وانها تتاهب للمسير معه حالما ياتيها الجواب من سيدى المقوقس » . ومدت يدها ونقدته مالا وقالت : « وستنال تمام المكافأة فيما بعد ، فاذهب بسلام » . فودعها وعاد الى هجينه فركبه ، وسار يطوى البيداء

اما هي فدخلت على سيدتها فاذا بها لا تزال مستلقية على السرير وعيناها تذرفان الدموع ، فدنت منها وقبلتها مبتسمة وقالت : « تجلدي يا سيدتي وتبصري فيما سأقوله ، فان الامر يحتاج الى الحزم ، وثقي جيدا ان قسطنطين لن ينال منك شعرة بهمة سيدي أركاديوس ، انما علينا ان نعلم اركاديوس بما تم حتى يأتي لنجدتك ، ولا شك عندي انه يجيء مسرعا الينا وقد يكون مجيئه في النجدة التى سيرسلها أبوه الى بلبيس ، فكيف نعلمه بذلك ؟ »

قالت : « قلت لك يا بربارة اني لا املك حواسي ، فافعلي ما تشائين ، ولكنني خائفة من سوء العاقبة »

فقالت بربارة : « لا تخافي يا سيدتي ، بل تجلدي، واصغي لما اقوله لك » . قالت : « قولي ما بدا لك ، وافعلي ما ترتأينه »

فقالت : « أين هو خاتم سيدي أركاديوس؟ » . قالت : « هو في جيبي » . فاخرجته ، وجاءت بقطعة من البردي ، وختمتها به ، وكتبت اسم أرمانوسة بالقبطية الى جانب الختم ، واحاطت الاسم بدائرة سوداء . ولفت الورقة وجعلتها في حق صغير ، وخرجت بالحقين الى الرسول وخلت به ، واعطته قطعة من الذهب وقالت : « هذه هدية من السيدة أرمانوسة». فأثنى عليها . فقالت : « خذ هذين الحقين ، فادفع هذا الى سيدك المقوقس حيثما وجدته ، وهذا ادفعه الى اركاديوس بن الاعيرج يدا بيد . افهمت ما أقول ؟ واحذر أن يراك احد ، فان سيدتي أوصت والدها بأن يزيد في عطائك اذا قمت بما أقوله لك» . فقبل الحقين وخبأهما في جيبه ، وخرج الى جواده فركبه وسار قاصدا حصن بابل فرحا بما نال

وعادت بربارة الى سيدتها ، وجعلت تطمئن قلبها ، وتخفف عنها ، فقالت أرمانوسة : « لا شيء يعزيني يا بربارة ابدا ، فان يوقنا اللعين سيأتينا قريبا فبماذا نجيبه ؟ »

قالت : « نقول له اننا لانستطيع اجابة طلبه قبل وصول الجواب من سيدي المقوقس »

قالت : « وما الفائدة من ذلك ؟ فلعل ابي يجيبه الى طلبه ، اليس هو الذى القاني في هذا المأزق ؟ سامحه الله »

قالت : « اراك لا تنظرين الى الحوادث الا من وجهها المظلم ، خلي عنك الظنون لأننا لا ندري ما يكنه القضاء لنا ، واراني شديدة الامل في سيدي اركاديوس ، فانه سيدفع عنك كل غائلة بسيفه ، وانا أقول لك اننا لا نسلم أرمانوسة قبل وصول اركاديوس ، مهما يكن الامر . ومتى وصل كان الامر اليه ، وهو أكثر ميلا للدفاع عنك من كل انسان »

فأحست ارمانوسة عند ذكر أركاديوس براحة ، وسكن روعها ، وهانت

عليها المشكلات . ثم نظرت الى بربارة وقالت : « هل عاد رسولنا مرقس من مهمته ؟ »

قالت : « لا . لم يعد يا سيدتي ، وانا في انشغال بال عليه ، وبالامس جاءني والد خطيبته يسألني عنه ، لانهم ينتظرون مجيئه بفارغ الصبر ، ولا يخفى عليك انتظار الخطيبة لخطيبها اذا كانت تحبه »

فتنهدت ارمانوسة تنهدا عميقا وسكتت . ثم قالت : « ولكني اخاف ان يصيبه سوء لأجلنا ، اذ قد انتهت مهمته ولم يعد »

فقالت : « ولكني كنت أوعزت اليه اذا لقى العرب أن يجتهد في تجسس احوالهم ، فلعله تأخر لهذا السبب »

ومضى عليهما يومان في انتظار ما يكون . وفي صباح اليوم الثالث افاقت ارمانوسة على صوت الناس وضوضائهم ، فأرسلت بربارة تستطلع الخبر ، فعادت تقول : « ان اهل بلبيس في قلق من أمر العرب لأنهم هاجموا الفرما ، وقد وصل الى هنا بعض أهلها فارين من ساحة الحرب ، واستقدم الحاكم بعضهم الى منزله يستطلعهم أخبار العرب سرا ، لأنهم شهدوا حربهم واختبروا قوتهم »

فارتبكت ارمانوسة وزادت هواجسها وقالت : « هذه مصيبة اخرى يا بربارة ، فقد أصبحت بين اربعة عوامل تتسابق الى القضاء على : اولها واشدها وطأة على ذلك الرجل الذى لا أحبه ، وهذا هو رسوله ربما جاءنا غدا ، لكي يحملني اليه بل الى جهنم اعوذ بالله . وثانيها أبي الذى وافقه على هذه الفعلة ، وهو عون له على شقائي . وثالثها هؤلاء العرب الذين جاءونا محاربين ، وهم اشداء على ما يظهر ، وربما ملكوا رقابنا عنوة . ورابعها ، آه من رابعها !. . » وسكتت . فقالت بربارة : « أكملي العدد يا سيدتي ، ما هو رابعها ؟ ربما كنت أنا هو ذلك الرابع » . قالت : « لا يا بربارة ، حاشاك ، انك وحدك تعزيتي في كل هذه النكبات ، أما الرابع فهو قلبي ، هذا الذى قد علق اركاديوس وعصاني في هواه ، وانا بعيدة عنه يائسة من لقائه ، وقد كان لي بقية أمل في رؤيته من قبل ، اما الآن فاراني يئست من حبه »

قالت ذلك وشرقت بدموعها ، فقالت بربارة وقد انفطر قلبها : « دعي عنك الاوهام وتجلدي ، فقد قلت لك : القي حملك على ، فاني ناصرتك باذن الله ، وعلى الضمان ان قسطنطين لن ينال منك شعرة ، وأنك ستنالين من تحبينه رغم الناس كافة ، فاصبري وتدبري الامر بالحزم ، واجلسي حتى اذهب الى الحاكم واسمع كلام الفارين لعلي آتيك منهم بقبس من نور »

وتركتها في الغرفة وذهبت توا الى منزل الحاكم بجوار القصر ، وكان الحراس يعرفونها فلم يمنعوها ، فلما رآها الحاكم وقف لها واستقبلها ، واراد ان يدخلها غرفة الاستقبال فقالت له : « لا حاجة الى ذلك ، فاني جئت لأسمع كلام

الفارين » . فدخل بها الى غرفة فيها رجل عرفت من لباسه انه من ضباط الجند ، ولكنه ليس رومانيا ، وانما أصله من جند أنطاكية ، فلما رأته علمت ماقاساه من انواع العذاب قبل وصوله الى بلبيس، وكان لا يزال في ثياب الحرب، وعليه الدرع ، وقد تلطخت بالدماء ، وفي كفه جرح أصابه من نبال كادت تخترق عنقه لو لم يستقبلها بكفه . فجلست على مقعد من الحرير المزركش ، وجلس الحاكم الى جانبها ، ونادى الضابط فدنا منه فقال : « ارو لنا ما رأيت بلا زيادة أو نقصان »

فقال وهو يتنفس الصعداء : « انى لا أكاد أصدق يا سيدى انى على قيد الحياة لفرط ما قاسيته من التعرض للخطر ، فان هؤلاء العرب أشداء أقوياء ، ولا اظن جندنا يقوى على حربهم »

فابتدره الحاكم قائلا : « اخفض صوتك لئلا يسمعك احد فيقع الرعب فى الناس ، واشرح لنا حالك »

□

قال الضابط : « علمنا منذ ثلاثة أيام بوصول العرب الى ضواحي الفرما بعدتهم وخيلهم ، فأخذنا فى التاهب ، فملأنا الأسوار بالجند ، ورفعنا الأعلام، وأقمنا الصلوات فى الكنائس ، ونصبنا الصلبان على الأسوار ، وظننا انهم يتريثون قبل منازلتنا التماسا للراحة من وعثاء السفر ، ولكننا لم نكد نتم التأهب حتى رأينا غبارهم يتصاعد ، وجموعهم تزحف نحو المدينة ، ثم انكشف ذلك الغبار عن جيش جرار تتقدمه الأعلام والفرسان ، وما زالوا حتى عسكروا امام المدينة ، ولكننا لم نشاهد معهم خياما ولا أثقالا ، فعلمنا أنهم تركوا الخيام بعيدا ، فلبثنا ننتظر ما يكون منهم ، وكنت أنا فى حاشية حاكم الفرما نتشاور فى امرهم ، وبعد الظهيرة بقليل رأينا واحدا منهم يتقدم نحو الأسوار حاملا علما أبيض ، اشارة الى أنه رسول ، فلم نتعرض له ، فلما وصل الى السور أشار بيده أن معه كتابا يريد رفعه الى كبيرنا ، فأمرنى الحاكم فنزلت الى باب السور ففتحته ، واردت تناول الكتاب منه فأعرض عنى ، كأنه لا يريد أن يعطينيه ، وفهمت منه أنه يريد تسليمه للحاكم يدا بيد ، فاستأذنت فى دخوله ، فدخل بقدم ثابتة ، كأنما هو داخل منزله . وكنت فى أول الأمر مستخفا به لرثاثة لباسه ، لأنه كان لابسا شملة ملتحفا بها كأنه متسول ، ولكن تحول احتقارى الى احترام حين اراد الدخول على الحاكم ويده على قبضة حسامه ، فلما أردنا ان ننزع سلاحه ابى ، فأتينا بالترجمان وحاولنا اقناعه بأن العادة عندنا ان يتجرد الرسول، فقال : (لا أنزع السلاح أبدا ، فاذا لم تقبلونى كذلك عدت من حيث اتيت) . فارتفعت منزلته عندنا ، وأذن الحاكم بدخوله كما يشاء

« فدخل ودفع الى الحاكم كتابا مكتوبا على ورق من جلد الشياه وليس من البردي مثل رقوقنا ، فتناوله الترجمان وفسره ، فاذا هو من امير العرب يطلب الينا الاستسلام العاجل حالا ، او الدخول فى دينهم ، أو تأدية الجزية ، أو القتال

« فعظم ذلك علينا ، وقال له الحاكم : (ليس عندنا الا الحرب) . فتحول العربى ، ويده لا تفارق حسامه ، وعيناه تراعيان حركاتنا وسكناتنا كأنه يخاف غدرنا به ، ونزل وعاد الى معسكره ، فصعدت الى مرمى النبال على السور ونظرت الى معسكر العرب فاذا هم قد وقفوا صفوفا ، والفرسان متفرقون بينهم ، فعلمت أن هؤلاء الفرسان انما هم قوادهم . ولم تمض مدة يسيرة حتى انبرى منهم فارس مدجج بالسلاح وعليه درع يمانية ، وكنت قد شاهدت مثلها عند بعض قوادنا ، يوم كنت فى انطاكية ، واغار بجواده حتى دنا من السور مشهرا حسامه ، فخاطبه الترجمان من أعلى السور يسأله عن مراده فقال : (اذا كان لابد لكم من الحرب فاخرجو الينا ، او ليخرج منكم فارس تعتمدون عليه نبارزه ، فاما ان تكون الغلبة لكم اذا غلب ، او لنا اذا غلبنا ، ومبارزة الافراد خير من سفك الدماء)

« فالتفت الحاكم إلى وقال : (ما الرأى؟) . فقلت له : (ان فى المبارزة حقنا للدماء)

« فقال : (ومن يخرج منكم الى هذا الفارس ؟) . فانبرى قائد كبير منا ، وكان ممن حنكته الايام وتمرس بالحروب ، وعليه الخوذة ، والدروع على الصدر والكتفين والذراعين ، وقد غطاها كلها برداء من الحرير المزركش ، وتقلد الحسام والخنجر ، وحمل الترس ، وجاء القسيس فصلى له ورشه بماء المعمودية تبركا وتيمنا ، وعلق على صدره صليبا من الذهب نعتقد فيه الحماية من الضر ، فقبل الصليب والانجيل ، وجاء الى باب السور فركب جوادا سمينا مكسوا بالدروع ايضا ، وبرز الى العربى ، وليس فيه ولا فى الجواد مكان للسيف الا غطته الدروع !

« اما العربى فكانت الدروع على راسه وصدره فقط ، والجواد عار ، وكنت ظننته فرسا ضئيلا لفرط ضعفه وقلة لحمه ، ولكننى شاهدت من خفته فى الجرى ما ذكرنى بما كنت أسمعه عن خيول العرب من الخفة والشدة على قلة لحمها

« واخذ الفارسان يتبارزان ، وابصار الجيشين شاخصة اليهما ، وكل يصلى ويطلب النصر لفارسه ، ثم رايت الفارس العربى يتقهقر كأنه اندحر ، فلحق به فارسنا ، ثم ما عتم أن رجع فكر عليه ، فتقهقرت قلوبنا معه ، ثم عاد الى المبارزة ، واشتد الضرب حتى كدنا نسمع وقع السيوف على الدروع . كل ذلك والاساقفة يصلون ويتضرعون الى الله استمدادا للنصر



« وعلا الصياح من الجانبين ، وحمي وطيس القتال ، وما زلنا فى ذلك حتى انتصف النهار »

حتى امسى المساء ولم يظهر احد منهما على رفيقه ، فافترقا على ان يعودا الى المبارزة فى الصباح !

« فلما رجع فارسنا سألناه عما لاقاه من ذلك العربى ، فاعترف بأنه لو لم يدركه الظلام لذهب فريسة له ، قال ذلك سرا فيما بيننا ، وكان يظهر خلاف ذلك لدى الآخرين ، فاجتمعنا تلك الليلة وتشاورنا فى أمر أولئك العرب ، فاجمع الراى على ان ناخذهم بالحيلة ، فنخرج اليهم فى الصباح مظهرين الوقوف صفوفا لمشاهدة المتبارزين ، ونجعل فرقة من جندنا فى كمين على يسار الجند عن بعد ، ثم نشغلهم فى حربنا ، ويدور الكمين من ورائهم ، ونهاجمهم من كل الجهات فنضايقهم . وكنت أنا فى جملة من سار للكمين . وجعلنا علامة الهجوم دق الأجراس ، فنزلت مع الكمين ليلا واختبأنا وراء اكمة على مسافة من المعسكر . وفى الصباح نزل باقى الجند أمام الفرما ، واصطفوا هناك وقد رفعت الاعلام والصلبان فوق رؤوسهم ، ونزل المتبارزان. وبعد هنيهة سمعنا دق الاجراس فهجمنا على العرب من ورائهم ، وكان باقى جندنا قد هاجموهم من الامام ، وعلا الصياح من الجانبين وحمى الوطيس

« اما نحن فهجمنا عليهم من الوراء ، فما شعرنا الا وقد اغار علينا ساقتهم — وفيهم كثير من النساء — بالعمد والعصي ، وكانت الواحدة منهن تهجم على العشرة والعشرين وفى يدها عصا طويلة تضرب بها ذات اليمين وذات اليسار ، فلاقينا من شدة أولئك النساء اضعاف ما لاقيناه من الرجال . وما زلنا فى ذلك حتى انتصف النهار وخارت قوانا فلم نستطع الثبات ، ثم رأيت نبلة ساقطة على تكاد تصيب نحرى ، فاستقبلتها بيدى فجرحتنى ، وكان الترس قد وقع من يدى ، فخفت على نفسى ، فطلبت الفرار فى عرض الصحراء حتى بعدت عن المعسكر ، وفرت معى جماعة كبيرة ، فالتفت الى الفرما فاذا بالعرب يتسلقون اسوارها . ولا ريب انهم دخلوها واستولوا عليها ، وقد واصلت السير ليلا ونهارا حتى وصلت اليكم وانا لا اصدق أنى نجوت من الموت »

وكان الحاكم وبربارة فى أثناء ذلك يتطاولان بعنقيهما يصغيان الى ما يقول وقلباهما يخفقان . فلما اتم حديثه امتقع لون الحاكم ، ووقع الرعب فى قلبه ، ولكنه اظهر الاستخفاف وقال : « انكم اخطأتم الحيلة ، وكان يجب ان تبارزوهم وجها لوجه » فما هم الا شرذمة قليلة ، وليس لديهم من العدة والسلاح مثل ما لنا ، فلئن جاءوا بلبيس لأذيقنهم العذاب الوانا » . ثم قال للرجل : « احذر أن تطلع احدا من حامية بلبيس على جلية الخ لئلا يستولى عليهم الخوف ، وهذا هو شأن الحرب يوم لك ويوم عليك »

اما بربارة فعادت الى سيدتها وقد استولى عليها الخوف ، فرأتها واقفة

الى النافذة ، وقد اسندت رأسها اليها تنظر الى الحديقة كأنها تتشاغل بها عن هواجسها لعلها تنسى ما هى فيه من الارتباك ، فلم تشعر بدخول بربارة حتى نادتها ، فتحولت اليها وسألتها جلية الخبر فقصت عليها الخبر كما كما سمعته الى أن قالت : « وهذا ما كنا نخشاه فى أول الأمر ، وهو الذى حل سيدى على مسالمة العرب ، فانه تنبأ بظهورهم على الروم حيثما نازلوهم ، ولا يبعد أن يكون قد خابرهم سرا ، وعقد معهم عهدا الا يؤذوا أحدا من القبط . وعلى كل لن تقوم للروم قائمة »

فقالت ارمانوسة : « وما الراى يا بربارة ؟ » . قالت : « الراى ان نتربص لنرى ما يأتى به القدر ، ولا بد من أن يأتينا الفرج اما من أركاديوس واما من مرقس ، الا أن يكون هذا المسكين قد أصيب بسوء »

فقالت أرمانوسة : « لا سمح الله بذلك ، فانى على شدة هواجسى لم تبرح حكايته بالى ، وأرانى فى وجل على خطيبته لئلا يكون قد أصيب بسوء نحن السبب فيه »

□

وقضيتا بقية اليوم فى مثل هذه الاحاديث ، وفى الصباح خرجت بربارة تتنسم الأخبار لعلها تسمع شيئا عن مجىء مرقس ، فرأت الحاكم يسير مسرعا فسألته عن الخبر فقال : « اما رأيت الغبار المتصاعد فى عرض الأفق؟»

قالت : « لا . وما ذلك ؟ »

قال : « اخبرنا الجواسيس أن يوقنا قادم مع رجاله لحمل سيدتى أرمانوسة ، وقد جئت لأبشرها »

فقالت : « أشكرك نائبة عنها ، وسأبلغها هذه البشارة عنك »

ثم تركته وصعدت الى نافذة أطلت منها على ضواحى المدينة ، فرأت الغبار يتصاعد ، وقد دنا القادمون ، فهرولت الى سيدتها وأخبرتها ، ولكنها مزجت الخبر بأمارات الاطمئنان خوفا عليها . اما أرمانوسة فلم تعبأ الا بالحقيقة ، فلطمت وجهها ، وأخذت تفرك يديها كأنها وقعت فى مصيبة ، وبربارة لا تستطيع تخفيف اضطرابها ، ولكنها قالت لها اخيرا : « اننا على موعد مع يوقنا فى انتظار جواب والدك »

فقطعت ارمانوسة كلامها قائلة : « وما خوفى الا من ذلك الجواب ! سامح الله والدى ، فانه هو الذى جلب على كل هذه المتاعب »

فقالت بربارة : « الا تريدين ان تطلى من النافذة لمشاهدة القادمين ؟ »

قالت : « دعينى من النوافذ فانى مقيمة بهذه الغرفة لا أبرحها أبدا »

وبينما هما فى ذلك اذ سمعا قارعا يقرع الباب، فخرجت بربارة لاستقباله، فاذا هو الحاكم يحمل حقا وعلى وجهه أمارات البشر . فسألتــه عن أمره فقال : « ان الحق مرسل من البطريق يوقنا الى السيدة ارمانوسة» . فهمست فى اذنه : « ان سيدتى الآن فى الفراش ولا شك انها ستشكر لك هذه الهمة ، وسابلغها الرسالة متى أفاقت ، وربما دعوتك لمقابلتها »

فشكر لها ومضى . أما هى فاخذت الحق ، وهو صندوق رات فيه قطعة ثمينة من الحلى على مثال النسر ، مرصعة بالحجارة الكريمة من الماس والزمرد والياقوت ، بديعة الصنعة ، والى جانب النسر رق محلي بالذهب مكتوب باللاتينية ، وفى صدره صورة النسر الرومانى ، فعلمت أنه من قسطنطين ، فدخلت على سيدتها والنسر بيد والرق بالأخرى ، وكانت أرمانوسة جالسة على مقعد فى صدر الغرفة وقد اطرقت الى الارض تنتظر عودة بربارة ، فلما رأتها داخلة والرق فى يدها ظنتها تحمل كتابا من اركاديوس فنهضت وهمت بتناول الكتاب منها فى لهفة ، ولكنها ما لبثت أن رمت به الى الارض وقد استحالت لهفتها الى انقباض وقالت : « ما الذى جئت به ؟ وما هـذا الذى بيدك ؟ » . قالت : « ألم تقرأى الكتاب يا سيدتى ؟ »

قالت : « لم اقراه ، ولااريد ان اقراه ، لأنه مذيل باسم الذى تكرهه نفسى»

قالت : « اقرأيه لعل فيه خيرا » . قالت ذلك وتناولت الرق ودفعته اليها ، فاخذت ارمانوسة تقرؤه فاذا ترجمته :

« باسم الآب والابن والروح القدس

« من قسطنطين بن الأمبراطور هرقل ملك الملوك الى عروسنا ارمانوسة الحبيبة

« قد أرسلنا اليك مع عزيزنا يوقنا نسرا رومانيا مرصعا ، ووكلت اليه أن ياتى بك الينا وكتبت أيضا الى أبيك عاملنا على الديار المصرية ، ونحن فى انتظارك بمراكبنا عند بحر دمياط ، فاسرعى فى المجىء والسلام »

« قسطنطين »

وما اتمت قراءته حتى صاحت بأعلى صوتها : « لا . لا . لا أريد ان اذهب اليك ولو كنت ابن رب الارباب » . ورمت الكتاب الى الارض ، وعادت الى المقعد

فوقفت بربارة صامتة لا تدرى كيف تسلى سيدتها ، وقد ازداد الامر اشكالا ، ثم تركتها وذهبت الى الحاكم وقالت له : « قد اطلعت سيدتى على الكتاب ، وهى فى انتظار الجواب من سيدى المقوقس ، لانها لا تقدر أن تبرح المكان قبل وصول جوابه »

فقال : « ان رسول سيدى المقوقس عاد الآن يحمل كتابا الى يوقنا وآخر لمولاتنا ارمانوسة ، فدفع هذا الى وسار لايصال كتاب يوقنــا اليه » ، وقدم لها كتابا كان على مائدة أمامه ، فتناولته وفضته فاذا هو بالقبطيــة يحرض المقوقس فيه ابنته على التأهب للمسير مع يوقنا ، ويعتذر من عدم حضوره بنفسه لاشتغاله فى الحصن باعداد الجنــد لدفع العرب . فتغير لون وجههــا وخرجت، فخبأت الكتاب فى مكانما ، ولم تطلع سيدتها عليه لئلا يزيد يأسها ، ولكنها لبثت تنتظرعودة ذلك الرسول منعنديوقنا ، لتسأله عما فعله بالعلامة التى أرسلتهــا الى اركاديوس ، فخرجت الى الحــديقة وجعلت تتطــاول الى الطريق لعلها تشاهد الرجل قادما فتستطلعه الخبر ، فما لبث أن جاء ، ومعه رسول آخرعرفت من لباسه انه بروفس الذىجاء فى المرة الاولى برسالة من يوقنا ، فاستعاذت بالله منه !

فلما وصلا الى باب الحديقة اســتأذنها فى الدخول ، فأذنت اولا لرســـول اركاديوس فدخل ، فسألته عن كتاب اركاديوس فقال : « وصلت الى الحصن يا سيدتى مســاء ، فسألت عن القائد اركاديوس فقيل لى انه ذهب فىجماعة من رجاله الىخارج الحصن ليقطعوا الجسرالمنصوب بين الحصن وجزيرة الروضة، وهو جسر مصنوع من المراكب يعبرون عليه من الحصن الى الجزيرة ، ومثله الجسر الموصل بين الجزيرة والبر الغربى »

فقالت : « ولماذا يقطعونهما ؟ »

قال : « ارادوا ذلك عندما جاءهم الخبر بنزول العرب بالفرما وعزمهم على الهجوم على الحصن ، فأمروا بقطع هذين الجسرين ليمنعوهم عن منف وسائر البر الغربى »

قالت : « وماذا فعلت عند ذلك ؟ »

قال : « سرت الى سيدى المقوقسفدفعت اليهكتابه فقرأه ، وكان فىشاغل بالاستعداد وتقوية الحصون ، فكتب الى كتابين، واوصانى أن اوصل أحدهما الى سيدتى والآخر الى يوقنــا ، وأمرنى بسرعة الرجوع بهما ، فلم اعلم كيف اوصل كتابك الى اركاديوس ، وخفت اذا تأخرت هناك، وعلم سيدىالمقوقس بتأخيرى ، ان تنكشف حقيقة امرى ، وربما كان فى ذلك ما يغضبك أو يغضب سيدتى ارمانوسة ، فرأيت هناك جنديا كنت أعرفه منذ صباى ، وهوصديق لى ، فدفعت الكتاب اليه واوصيته أن يدفعه الى القائد اركاديوس حالما يعود من مهمته ، فوعدنى ان يقوم بذلك ، وجئت بالرسالتين كما قدمت »

فقالت وقد ذعرت وكادت تيــأس من نجاة ســيدتها : « اذن لم تشاهد اركاديوس ؟ »

قال : « لاياسيدتى ، وقد بينت لك السبب » . وخاف ان يشتد غضبها عليه فسكت

فقالت : « ومن هو هذا القادم معك ؟ »

قال : « هو رسول يوقنا الى سيدتي أرمانوسة ، ارسله يوقنا على اثر تلاوة كتاب سيدى المقوقس »

فعلمت انه أرسل يطلب ذهابها اليه وقد وقعت الواقعة وانقطع الرجاء ، فاشتد بها الاسى ، وترقرقت الدموع فى عينيها ، ولكنها تجلدت وارادت تحقق الخبر فقالت : « ادع الرسول الى » . فدعاه ، فلما دخل تحققت انه الرسول الاول بروفس ، فقالت : « ماوراءك ؟ » . فسلم ودفع اليها كتابين ، فتناولتهما فعلمت أن أحدهما من المقوقس الى يوقنا والآخر من يوقنا الى ارمانوسة ، فأخذتهما ودخلت على سيدتها فرأتها لا تزال غارقة فى بحار الهواجس ، فلما دخلت بربارة ذعرت والتفتت اليها كأنها تسألها ما خبرها ؟ وكانت بربارة مرتبكة ، والدموع ملء عينيها ، وهى تحاول اخفاء الكتب ، فأدركت ارمانوسة ارتباكها فعاجلتهابالسؤال عما فى يدها ، فقالت وقدشرقت بدموعها : « ليس فى يدى شىء يا مولاتى »

قالت : « قولى يا بربارة ماذا فى يدك ؟ افصحى . هل انقطع الرجاء ؟ » . قالت : « لا ، لم ينقطع الامل يا سيدتى بعد ، فان اتكالنا على الله وحده ، وهو قادر على انقاذنا من مخالب الموت »

قالت : « ما هذه الكتب ؟ هل جاء الجواب من ابى ؟ . قولى . . ولا تظنى انى كنت أنتظر فرجا منه » . قالت : « نعم هو جواب والدك »

قالت : « وأين كتاب اركاديوس ؟ » . فأطرقت ولم تجب ، فازداد ارتباك ارمانوسة وعظم قلقها ، والحت على بربارة قائلة : « الم يرسل اركاديوس كتابا ؟ »

قالت : « لا يا سيدتى ، ولكنه سيبعث قريبا »

فلم تفهم مرادها فأمسكتها بيدها وقالت : « كيف لم يجب ؟ هل هجرنى وتخلى عنى ؟ »

قالت : « كلا يا سيدتى ، ولكن الرسول لم يره فى الحصن ، وسلم الكتاب الى صديق له ليسلمه اليه حال رجوعه »

فاستلقت ارمانوسة اذ ذاك على المقعد ، واجهشت بالبكاء ، فخافت بربارة أن تطلعها على كتاب يوقنا لئلا يزيد يأسها ، فوقفت ساكتة لا تبدى حراكا ، ولكنها جعلت تفكر فى حيلة تخفف بها عن سيدتها ، فلم تر وسيلة فجثت الى جانب سريرها ، واخذت تقبل يديها وتقول لها : « تجلدى يا سيدتى فان الله قادر على أن يأتينا بالفرج القريب »

ولبثتا برهة فى ذلك فاذا بقارع يقرع الباب ، وقدم خادم ينادى بربارة من الخارج ، فنهضت ومسحت دموعها ، وابلغها الخادم ان الحاكم يطلب مقابلتها ،

فذهبت اليه فوقف لها وقال : « قد علمنا امر مولانا المقوقس بتسليم السيدة ارمانوسة ليوقنا صاحب هـذا الجند ، وقد بعث الى الآن يستعجلني ، وهو لا يستطيع الا الاذعان لأمر مولانا قسطنطين كما تعلمين ، فهل تأهبت السيدة ارمانوسة للذهاب ؟ »

فقالت بربارة على الفور: « انها سرت بما علمت، ولكنها لا تستطيع الخروج اليوم لتعب ألم بها ، فاستمهل الرسول الى الغد »

قال : « حسنا ، وقد أمرت الجند بالتأهب للاحتفال اللائق بمقامها ، فزينا القصر والطرق قياما بواجب الطاعة لسيدى المقوقس »

قالت : « بارك الله فيك ، ونطلب اليه تعالى أن يعافيها لتستطيع الخروج غدا »

ثم عادت بربارة وهي لاتدرى كيف تبلغ الخبر الى سيدتها. وكانت ارمانوسة كلما سمعت صوتا أو طرقا اضطربت حواسها لشدة تأثرها ، فلما طرق الباب وخرجت بربارة ابتدرتها ـ حين عادت ـ بالسؤال عما حدث ، فحاولت مغالطتها ، ولكنها لم تقتنع بغير الحق ، فلما رات اصرارها على معرفة الحقيقة قالت لها : « اجلسي يا سيدتي لأطلعك على جلية الخبر ، ولكني ارجو منك ان تتمسكي بالحزم ، وتتعلقي بأذيال الصبر كما هو دابك ، فان اهل مصر ما برحوا يتحدثون بتعقلك وثباتك ودرايتك ، فلا تطلقي لعواطفك العنان لئلا تزيدي الخرق اتساعا ، فنكون فى شر فنقع فى أعظم منه »

فقالت أرمانوسة : « لاتذكرى التعقل والحزم ، فان عواطفي غلبت على كل تعقل وحزم ، ولا اراني قادرة على ضبطها. ولكن اكملي ، ماذا تريدين مني؟ »

قالت : « أريد منك ان تتجملي بالحزم وتتمسكي بالصبر وتصغي لما أقول»

قالت : « قولي »

قالت : « اعلمي يا مولاتي ان سيدى والدك قد امر بأن تذهبي مع يوقنا . وهذا ارسل رسوله الى الحاكم ، فأعد معدات الاحتفال بخروجك اليه اليوم ، ولكنني امهلته الى الغد بدعوى توعك صحتك . وسيدى أركاديوس لابد أن يكون قد بلغه كتابى ، واذا لم يصل اليه فسيسمع خبر يوقنا من أبيك أو احد اتباعه او من سيدى أرسطوليس لأنه صديق له ، ولا شك انه حالما يسمع الخبر يأتينا على جناح السرعة ، وهو كفيل بانقاذك ، والامر عند ذلك فى يده ، فاذا لم يستطع انقاذك فالامير قسطنطين ابقى لك »

فلما سمعت ارمانوسة اسم قسطنطين ارتعدت فرائصها وقالت لها : « لا . لاتذكرى اسمه . ان النار أحسن عندى من جواره »

قالت : « لا اقول لك أن تؤثريه على البطل اركاديوس ، ولكنني اريد ان تمسكي الحبل من الطرفين، واخشى انك اذا صرحت بعدم ر ائك بقسطنطين،

وامسكت عن العمل برأيه ، أن يغضب عليك ، وربما اخذك بالعنف، وقد يتفق ان لا يأتينا اركاديوس على عجل ، أو يأتي ولا يستطيع الدفاع عنك ، فماذا تكون النتيجة ؟ أما اذا اظهرت القبول وسرت الى معسكر يوقنا فاننا نطاوله ونطلب اليه الانتظار هنا مدة ، ونبعث رسولا مستعجلا الى سيدي أركاديوس بصريح الخبر ، فلا يمضي يومان أو ثلاثة حتى يأتي لانقاذك . هذا ما أراه والأمر لسيدتي »

فبهتت ارمانوسة واخذت تفكر فيما سمعته من بربارة ، فاذا هو عين الصواب ، ولكن العواطف كانت تسيطر عليها فلم تجب !

فقالت بربارة : « ما بال سيدتي لا تجيبني ؟ »

قالت : « انظري يا بربارة ، اني أثق بدرايتك واخلاصك وثوقا تاما ، وهذا امر لا تجهلينه ، ولكنني اراني غير قادرة على العمل بذلك . وهل تحسبينني اذا عجز اركاديوس عن انقاذي أرضي بقسطنطين ؟ اني وحب اركاديوس وما له من المنزلة في هذا القلب اذا تحققت وقوعي بيد قسطنطين ، وقنطت من اركاديوس فلا شيء يشفي غليلي الا الطعن بهذا الخنجر! » . قالت ذلك واستلت خنجرا مرصعا كانت قد خبأته بين أثوابها . فذعرت بربارة عند رؤيتها الخنجر وقالت : « ما هذا يا مولاتي . . أتقولين الصدق ؟ »

قالت : « هذا هو الصدق بعينه يا بربارة ، ولكني اعدك اني لا اقدم عليه الا اذا تحققت وقوع القدر ، واظنك عند ذلك تكونين اكبر مساعد على قتلي لأن فيه خلاصي من عذاب دائم »

فحاولت بربارة ان تأخذ الخنجر منها فلم تستطع ، غير ان ارمانوسة اعطتها عهدا ألا تعمد الى الاضرار بنفسها الا بعد فشل كل حيلة ، فوافقتها بربارة على نية ان تسرق الخنجر منها في فرصة مناسبة

□

عرفنا ان البطريق يوقنا كان حاكما على حلب من قبل هرقل امبراطور الرومانيين ، فلما فتح المسلمون الشام تظاهر بالاسلام وسمى نفسه عبد الله وقام لنصرتهم ، وهم بين مؤمن باخلاصه وبين مرتاب فيه . فلما عزم عمرو بن العاص على فتح مصر سار في ركابه متظاهرا بنصرته ، وكان عالما بخطبة قسطنطين لارمانوسة ، فحدثته نفسه ان تكون ارمانوسة عند فتح مصر غنيمة له ، وكان قد سمع بجمالها ، واسرها في نفسه حتى اتى الفرما ، وهو واثق أن عمروا فاتح البلاد لا محالة ، ولا بد من وقوع ارمانوسة في الغنائم ، ولكنه خاف ان يسبقه اليها احد فعمد الى الحيلة ، فزور كتابا على لسان

قسطنطين يطلبها كما قدمنا . ثم جاء بنفسه الى بلبيس ، وترك جند عمرو مشتغلا بحرب الفرما ، معتقدا انه يتمكن بحيلته هذه من الذهاب بأرمانوسة بعد القبض عليهـا ، قبل وصـول عمرو الى بلبيس ، وكان يظن ان عمروا سيمكث فى الفرما زمنا طويلا ، فلما جاءه كتاب المقوقس يوافقه على حمل ارمانوسة ، بعث برسول يطلب مجيئها اليه ، وبعث الى حاكم المدينة ليسرع فى ذلك ، فاجابه ان السيدة أرمانوسة مريضة ، فعزم على ان ينتظر شفاءها، ولكنه علم تلك الليلة ان عمروا قد فتح الفرما ، ولايلبث ان يأتى بلبيس فخاف اذا ابطأ هو فى اخذ أرمانوسة ان تذهب حيلته ضياعا ، فأرسل فى صباح الغد كتابا الى الحاكم شديد اللهجة يطلب منه سرعة الخروج بأرمانوسـة فى ذلك اليوم ، وانه اذا ابطأ فى اجابة طلبه عمد الى القوة

فبعث الحاكم الى ارمانوسة واطلعها على طلب يوقنا ، فاتفق راى بربارة وارمانوسة على أن تخرجا الى معسكر يوقنا ، وان تستمهلاه بضعة أيام قبل السفر ، ولم تعلما بما عزم عليه من الاسراع ، فأقيم الاحتفال ، وخرج الحاكم بأرمانوسة من قصره بالشموع والصلبان ، واصطفت الجنود على الطرق ، وصدحت الموسيقى ، ورتل المرتلون ، واخرجوها كما يخرجون العروس فى موكب العرس ، فسارت أرمانوسة تجر ذيل ثوبها ، وبربارة الى جانبها ، والقسيسون أمامها بالملابس الرسمية والمباخر والصلبان ، حتى خرجوا من المدينة ، فاذا بيوقنا قد خرج من معسكره برجاله محتفيا بها ، حتى أقترب منهـا فأخذ بيدها وادخلها خيمة خاصة بها ، فدخلت وتظاهرت بالتعب والضعف ، فتركوها فى الخيمة مع جواريها وبربارة ، وتركها الحاكم بعد أن ودعها وعاد برجاله . ومكثت هى فى الخيمة ، وانفردت ببربارة وقد اسودت الدنيا فى عينيها ، وعظم الأمر عليها ، وخيل اليها انها أصبحت فى القفص ، ولم يعد لها مفر منه . وكانت بربارة تعزيها بانها ارسلت رسولا مستعجلا الى أركاديوس ، سيصـل بعـد يومين . ثم لم تمض برهة حتى سمعت ضوضاء فخرجت فرأت يوقنا قادما بنفسه ، وقد لبس الثياب الرومانية وتظاهر برومانيته . وطلب مقابلة ارمانوسة فأذنت له ، فدخل ، فحالما رأته تشاءمت من منظره ، ولا سيما لأنه رسـول قسـطنطين ، لـكنها تجلدت وتظاهرت بالضعف والتعب ، وكانت مستلقية فجلست . فجلس بين يديها يتلطف ويواسي وقال : « بماذا تشعر سيدتى ؟ أرجو ان تكون فى خير ! » . قالت : « لا ازال أشعر بالضعف»

قال : « وقاك الله من كل شر ياسيدتى ، ها انذا احمل سلاما اليك واكراما من مولانا ابن الامبراطور » . فلم تجبه ، فحمل ذلك منهما محمل الحياء ، وهو لايعلم ما تضمره وقال لها : « ارجو أن تتحسن صحتك قريبـا باذن الله ، لاسيما عندما تخرجين من هذه المدينة »

قالت : « ولكنني لا استطيع الركوب والسفر قبل بضعة أيام »

فقال : « ارى الاسراع فى المسير أولى ، لان سيدى ابن الامبراطور ينتظر قدومك بفروغ صبر على سفنه ، وقد أعد لك كل ما تقر به عيناك »

فامسكت عن الجواب ، وهي لا تدرى بماذا تجيب ، فلاحظت بربارة التغير فى وجهها فابتدرته بالجواب قائلة : « الا ترى أن سيدتى خائرة القوى لا تستطيع الركوب ؟ »

قال : « نعم ، ارى ذلك ، ولكنها ستحمل فى الهودج على اكتاف الرجال ، فلا تشعر بشيء من التعب » . قالت : « الا تظن أن حر الطريق يضر بصحتها ؟ »

فقال : « وهل تظنين اننا فاتنا تدارك ذلك؟. لقد اعددنا للسيدة أرمانوسة هودجا تظلله المظلات من ريش النعام على افخر زينة . تعالى انظريه »

ثم نهض وخرج بها من الخيمة ، فرات الهودج يحمله الرجال ، والجند آخذين فى تقويض الخيام والتاهب للرحيل ، فتحققت حبوط مسعاها ، وضياع املها ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، ولكنها امسكت نفسها خيفة ان يظهر ذلك عليها ، وعادت الى الخيمة مع يوقنا صامتة ، فأتم هو حديثه قائلا : « ان وصيفتك قد شاهدت الهودج بنفسها معدا لحملك ، فاذا اذنت مولاتى فلنتأهب للسفر أصيل هذا اليوم »

فلما سمعت ارمانوسة ذلك رجفت وقالت : « لا استطيع السفر فى هذا اليوم »

قال : « قلت لك ان كل شيء معد لسفرك المريح ، وقد امر مولانا قسطنطين ان اسرع بك اليه ، ولا استطيع مخالفته »

فقالت : « لا استطيع السفر وأنا مريضة ، فأمهلنى يوما أو يومين ، واجرك على الله » . قال : « لا استطيع الانتظار ساعة واحدة ، ولا فائدة من الأخذ والرد فى هذا الشان »

فتحققت ارمانوسة أن الساعة قد اتت وآن وقت الانتحار ، وحالما صممت عليه شعرت بانها يجب أن تبذل كل ما فى وسعها قبل الشروع فيه ، فتجلدت وقالت : « لا ارى موجبا لهذا الاصرار ، وانا بين يديك مريضة كما ترى ، أيحل لك أن تعجل على ؟ »

فحملق يوقنا وقال : « قلت لك لا فائدة من الكلام وها أنذا ذاهب تأهبا ، وسأعود اليك بعد قليل لنحملك ، والسلام »

قال ذلك وخرج وتركهما فى الخيمة منفردتين ، فالتفتت ارمانوسة وقالت : « ما رايك الآن يا بربارة ؟ الم يئن وقت الانتحار ؟ » . قالت ذلك ومدت يدها الى خنجرها ، ولم تكن بربارة قد سرقته بعد ، فارتمت عليها وامسكت يدها

قائلة : « لا اصدق يا مولاتي ان يدك اللطيفة تستطيع الاقدام على القتل . الا تعلمين انك بهذا ترتكبين جريمة ؟ »

فقالت : « ان موتي وهلاكي في اسفل الدركات خير لي من ان أستبدل رجلا آخر بأركاديوس حبيبي » . قالت ذلك وخنقتها العبرات ثم اغمى عليها . فأسرعت بربارة الى الخنجر فاخفته ، وخرجت لتنادي بعض الجواري ليساعدنها برش الماء ، فاسرع يوقنا الى الخيمة ليرى ماذا حدث ، فجاءوها بالماء ورشوها ، فأفاقت ورأت يوقنا أمامها وقد تأثر لما شاهده من جمالها وقد ذبلت عيناها وتكسرت اهدابها من كثرة البكاء ، ولكنه ما زال يهددها ، مصرا على الذهاب بها في ذلك اليوم

▭

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت اظنها لا تفرج

وبينما هم في ذلك اذ دخل عليهم احد رجال يوقنا يستأذنه بدخول رسول من الأمير عمرو بن العاص ، فبغت يوقنا وبهت ، ولكنه اذن له بالدخول ، فدخل فاذا هو بلباس السفر ، وقد علاه الغبار ، وعلى راسه العقال ، فحيى يوقنا ودفع اليه كتابا ففضه وقراه ، وارمانوسة وبربارة تنظران الى الرسول وتتاملانه وترجوان خيرا من قدومه ، فنظر هو اليهما وحياهما ، وهم بيد أرمانوسة كأنه يحاول تقبيلها ، وسلم على بربارة ، فتفرست فيه فاذا هو مرقس ، فاشارت الى سيدتها ، وهمست في أذنها انه مرقس رسولها ، فالتفتت اليه ارمانوسة فآنست في وجهه امارات البشر ، ونظرتا الى يوقنا وهو يقرا الكتاب فراتا لونه يتغير ، والرق يرتجف بيده من شدة التاثر ، وما اتم قراءته حتى ظهر عليه الارتباك . ووقف برهة صامتا ينظر الى الكتاب كانه يقرؤه ، ولكنه كان غارقا في بحار الهواجس

ثم تظاهر بالتجلد وقال لمرقس : « كيف فارقت الامير؟ » . قال : « فارقته وقد ترك الفرما قادما الى بلبيس » . فأسرع يوقنا في الخروج ولم يلتفت الى ارمانوسة ولا الى غيرها

اما ارمانوسة فانها توسمت في مجيء مرقس خيرا وقالت : « بم جئت يا مرقس ؟ وما الذي أوجب غيابك ؟ » . فتقدم وقبل الارض بين يديها قائلا : « لقد جئت بالفرج يا مولاتي . واما تأخري فقد كان بقضاء منه تعالى » . ثم اراد ان يقص حكايته فخاف ان يسمعه يوقنا ، فكلمها بالقبطية قائلا : « علمت بخيانة هذا الرجل ، وانه قادم بدسيسة متظاهرا بانه رسول قسطنطين وما هو بمرسل منه ، ولكنه غادر خائن يسعى لخير نفسه ، اما الكتاب الذي جئت به الآن فهو من عمرو بن العاص أمير العرب

القادمين لفتح هذه البلاد ، يهدده فيه ويأمره الا يتعرض لك بسوء »

فرفعت بربارة يديها الى السماء قائلة : « نحمد الله على ما اتانا من الخير على يدك يا مرقس . انك أهل لأعظم مكافاة على هـذه الخدمة ؛ والمستقبل بيننا »

اما ارمانوسة فلم تعلم كيف تشكره ، على ان علو مكانتها امسكها عن كثرة الاطناب فيه ، ولكن ظواهر الشكر كانت تتجلى على وجهها

فقالت بربارة : « اخاف ان يحمله غيظه على الاسراع فى اذيتنا انتقاما منا » . قال : « لااظنه يجسر على الاتيان بحركة بعد هذا الكتاب ، فانه يهدده تهديدا شديدا اذا مسكما بسوء ، ولا اظنه الا مبادرا الى الفرار حالا ، وها انذا ذاهب لاستطلاع الخبر ، لتكونا فى اطمئنـــان وراحة ، والاتكال على الله » . قال ذلك وخرج ، فتقدمت بربارة الى سيدتها وقبلتها قائلة : « الحمد لله يا سيدتى ، ان باب الفرج قد فتح »

فقالت أرمانوسة : « لا أزال خائفة يا بربارة ، وما ادرانا ان العرب يحسنون معاملتنا ، فقد نكون تخلصنا من شر لنقع فى شر أعظم »

قالت : « ثقى بالعرب ، لأنهم اذا أمنوك فانت فى أمان ، مع ما نعلمه من مخابرة سيدى والدك لهم . وعلى كل حال فان الامر لله ، فخففى الآن ما بك واتكلى عليه »

اما مرقس فخرج من الخيمة فرأى يوقنا ورجاله يحملون احمالهم ، وقد ركب يوقنا جواده وكان رجاله راكبين مستعدين للرحيل قبل مجىء مرقس كما قدمنا . فعاد بلهفة ينبىء ارمانوسة بفرار يوقنا برجاله ، وهم جماعة كبيرة فقالت : « الى جهنم ! »

ثم خرجت بربارة فرات المكان قفرا ، وليس حولهم الا بعض الاحمال التى تركوها سهوا للهفتهم واستعجالهم ، وقد امعنوا فى الهرب حتى كادوا يتوارون عن النظر ، فنادت بربارة سيدتها فخرجت وهى لاتصدق أنهم فروا ، فرات المكان خاليا الا من خيمتها وخيمة جواريها

فقالت : « يا مرقس ارى رجلا بلباس عربى على تلك الأكمة فمن هو ؟ » قال : « هو يا سيدتى رسول من الأمير عمرو الى سيدى ابيك ، وسأحكى لك حكايته بعد ان يهدأ روعك »

فانفذته الى حاكم بلبيس ليبعث من يحملها الى منزلها ، فاسرع الحاكم وجاء بجماعة من رجاله حملوا السيدة ارمانوسة وحاشيتها الى قصرها وهم يعجبون لما تم ، فقصت بربارة على الحاكم خيانة يوقنا ، فحمد الله على نجاة أرمانوسة من الشرك

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، واراد مرقس الذهاب الى القرية

لتفقد خطيبته ، فقالت له بربارة : « ثق يا مرقس أن سيدتى كثيرة الثناء على غيرتك . اتقص علينا قصتك أم تذهب لمشاهدة خطيبتك ؟ » قال : « لك الامر ولكنى أحكى الحكاية باختصار» . واخذ يسردها عليهما كما وقعت حتى وصل الى سقوطه عن الجمل وكيف حمله ذلك العربى الطويل الأسود الى المعسكر وضمدجراحه ، وانه انتظر اول فرصة قابل فيها عمروا واطلعه على حكاية يوقنا ، فأعطاه ذلك الكتاب يهدده فيه وبأمره بألا يمس ارمانوسة الى أن قال : « والعربى الذى شاهدتماه معى انما هو زياد خادم يحيى النحوى » . وحكى لهما حكايته ، وانه يحمل كتابا سريا الى المقوقس وفيه الأمان للقبط كافة . وبينما هم فى هذه الأحاديث ، وقد خيم الغسق اذا بخادم يقول : «بالباب رجل يستجير». قالت : « دعوه يدخل». واذا هو كهل ينوح ويندب ويقول : «قد أخذوها ياسيدتى ، قد ظلمونا يامولاتى » . فعرف مرقس ان الباكى عمه المعلم اسطفانوس . فهب من مجلسه وناداه : « ما الخبر يا عماه ؟ »

فذعر الرجل وقال : « أأنت هنا يا مرقس وقد أخذوا مارية منك ؟ آه يا ولداه ! »

فصاح مرقس : « ومن أخذها يا عماه ؟ أخبرنى »

قال : « أخذها ذلك الخائن الذى كان قد سعى فى قتلها والقائها فى النيل ، فانه لما رأى الجند قد حلوا على بلبيس ، والحال حال حرب ، جاءنا فى هذا الصباح ببعض رجال ابيه واوسعونا ضربا ولكما وحملوا مارية وفروا بها »

فاشتد غضب مرقس واسودت الدنيا فى عينيه فحملق وقال : « الى أين اخذوها ؟ » . وهم بالوقوف ، وقبض على حسامه . فقال : « قد مضوا بها الى حيث لا أعلم ، ولكنهم ساروا غربا ، وربما قصدوا جهة عين شمس »

فأراد الخروج وهو فى اشد حالات الارتباك ، فأمسكته بربارة قائلة : « تمهل يا مرقس ، فانك ربما سرت الى جهة غير التى ساروا فيها »

ثم بعثت الى الحاكم فحضر فقالت له : « ان سيدتى ارمانوسة توصيك بمساعدة هذا الشاب ، فان ابن حاكم القرية قد اختطف خطيبته وفر بها ، فابعث شرذمة من رجالك بثها فى الطريق التى قد يسير فيها ذلك الغادر ، وليبحثوا عنه ويأتوا به وبالفتاة حيثما وجدوهما » . فبعث الحاكم رجاله فرسانا ومشاة فى كل الجهات . اما مرقس فانه اخذ شرذمة من الرجال وخرج بهم ، فلقيه زياد فسأله الخبر فأطلعه عليه فقال : « انا أسير معك يا صديقى ، ولا تخف فسآتيك بمارية فى خير »

فتفرقت السرايا على هذه الحال ، وبقيت ارمانوسة وبربارة تنتظران النتيجة بفارغ الصبر ، وقد شغلهما أمر مرقس كثيرا ، لأن ذهاب خطيبته كان — الى حد ما — بسببهما

أركاديوس يبحث عن أرمانوسة

فلندعهم يفتشون عن مارية ، ولنرجع الى اركاديوس ، فقد فارقناه في الحصن بعد مسير بربارة وهوعلىموعد معها لتطلعه علىمايحدث لأرمانوسة ، فقضى بضعة ايام على مثل الجمر الى ان استبطأ عودتها فقلق ، وخاف ان يكون في الأمر خديعة ، وندم على اعطائه خاتمه لامرأة لم يرها الا مرة ، ففكر في ذلك طويلا فلم يهتد الى حل ، واراد أن يرسل رسولا الى بلبيس يستطلع الحقيقة فخاف انكشاف السر ، فجلس ذات ليلة الى النافذة التي خاطب بربارة الى جانبها فتذكر ما مر به ، وتقاذفته الهواجس ، ثم دخلعليه جندي وقال : « انسيدي الاعيرج يدعوك اليه حالا » . فأسرع اليه فاذا هو يتمشى في ارض الغرفة ذهابا وايابا وقد اخذ منه الغضب مأخذا عظيما . فلما دخل أركاديوس سلم عليه وسأله عن امره فقال : « خذ يا أركاديوس هذا الكتاب اقرأه » . فتناوله فاذا هو مكتوب باللغة القبطية وعليه توقيع البطريرك ...يامين

فقال : « وما هـذا يا سيدي ؟ » . قال : « انا لا احسن قراءة القبطية ... كني فهمت من هذا الكتاب انه مرسل من البطريرك عدو الرومان ، وقد ...ه احد رجاله الى المقوقس فلا بد من ان يكون فيه دسيسة علينا . اقرأه ...سره لي حالا »

فقـراه اركاديوس فاذا هو حقـا كما قال أبوه ، وكان هو الكتاب الذي ...له جرجس من بلبيس ليعطيه للمقوقس ، فعلم اركاديوس ان اباه اذا ...رف ما فيه قبض على المقوقس للتو والساعة ، وتعاظم الشر بينهما ، فيكون ذلك سببا ليأسه من نيلارمانوسة، فحرف الترجمة وقال : « انفيه تحريضا للمقوقس على الروم ، وربما كان ذلك على غير رضي المقوقس أو علمه ، لان الكتاب مرسل من بنيامين كما ترى » . فأدرك الاعيرج ان أركاديوس يريد اخفـاء شيء من الحقيقـة فقـال : « اراك تمالىء الاقبـاط على امرهم يا أركاديوس وتتجاهل الحقيقة ، وما أدراك أن ذلك بغير رضى المقوقس ، وقد ثبت لنا أن هؤلاء القبط لا يحبوننا ؟ »

فقال أركاديوس : « وما الداعي لانحيازي اليهم وانا اول نصير للروم كما تعلم ، ولا احب احدا غير الرومان ؟ »

قال : « لا انكر صدق انتصارك للروم ، ولكنني شممت من كلامك رائحة الدفاع عن القبط ، ونفسي تحدثني بأن أبعث الى المقوقس ، وهو الآن فى الحصن ، فاقبض عليه وأجعله فى القيود »

فحار أركاديوس فى أمره ، وخاف تفاقم الخطب وذهاب آماله أدراج الرياح فقال : « تمهل يا أبى ، اني اعهد فيك التروى والحزم . الا تعلم ان ظهورنا بعداوة القبط يضر بنا لأنهم يرون فى ذلك بابا للخروج عن طاعتنا ، والعدو على الابواب ، فيكونون عونا لهم علينا ، فأرى من الحزم أن نتغافل عن أعمالهم ، ونظهر لهم الاخلاص الى أن نرى ما يكون من حربنا مع العرب»

فتبصر الاعيرج برهة ثم قال : « صدقت يا بنى ، وقد عزمت على العمل بما رأيت فابق هذا الأمر سرا ، اما المقوقس فأقسم بشرف الروم وكرسى القسطنطينية لأنتقمن منه . . فقد نسى هذا الخائن أصله وخان دولته . وتحدثنى نفسى أن أكتب الى الأمبراطور ليعلم خيانته فلا يصاهره ، ولكن صبرا ، فان لحمه ولحم ابنته وسائر اهل بيته سيكون طعاما للسمك ، فان غدره سينكشف قريبا ، وعلى الباغى تدور الدوائر »

قال ذلك وأخذ ينزع ثيابه للرقاد ، فودعه أركاديوس وخرج ، وقد ازداد بلباله وعظم عليه غضب ابيه مما زاد العراقيل فى سبيل حصوله على أرمانوسة . ولما سمع والده يهدد المقوقس ويذكر ابنته تقطع قلبه حزنا عليها ، ولكنه كظم الغيظ ليتدبر الأمر بالحيلة . فقام الى غرفته ، وهو لا يكاد يرى طريقه لشدة التأثر ، وبات ليله لا يستطيع رقادا فأخذ يفكر فى أمر أرمانوسة وقسطنطين وأبيه ، وقد علم انها اذا نجت من مخالب قسطنطين فلا يأذن له والده بالاقتران بها

وفى صباح اليوم التالى جاءتهم الجواسيس ينبئونهم بنزول العرب بالفرما فبعث الأعيرج ابنه أركاديوس يتولى النظر فى قطع الجسرين الموصلين بين الحصن والجزيرة اى بينهم وبين البر الغربى كما قدمنا ، فلما عاد من مهمته أخذ كتاب أرمانوسة وأخذ فى تلاوته ، ففهم انها فى ضيق وتستنجد به ، ولكنه لم يفهم سبب ذلك الضيق !

فخطر له ان يستطلع ذلك بالحيلة من صديقه أرسطوليس ، فذهب اليه فى المكان الذى اعتاد ان يكون فيه فلم يجده ، فسأل عنه فقيل له انه ذهب الى ابيه بالأمس ولا يزال عنده فى بعض جهات الحصن ، والحصن اشبه بقرية كبيرة . فأخذ يسأل الخدم عنه حتى رآه قادما فاستقبله مسلما ، وقال له : « لقد اطلت الغيبة على يا ارسطوليس ، وقد عودتنى ان نلتقى كل يوم »

قال : « كنت فى شاغل مع سيدى الوالد بشأن أرمانوسة فى هذين اليومين »

فلما سمع اسم أرمانوسة كاد يتجلى الاحمرار فى وجهه فاعتراه الارتباك

والتعجب لسبب الاشتغال بها ، فقال : « وماهوذلك الاشتغال؟ لعله خير؟ ! »

قال : « هو خير ان شاء الله ، فان مولانا قسطنطين بن هرقل قد بعث وفدا ليحمل ارمانوسة اليه ، وسيكون فى انتظارها عند بحر الروم ليسير بها الى القسطنطينية »

فخفق قلب أركاديوس خوفا على أرمانوسة ان يفقدها ، ولكنه تجلد وقال : « ثم ماذا حدث ؟ »

قال : « جاء لوالدى كتاب من قسطنطين فى ذلك ، فبعث الى حاكم بلبيس أن يسلمها الى الوفد ، وكان بودنا أن يذهب احدنا ليشيعها ، ولكن اشتغالنا بالتأهب للحرب حال بيننا وبين ذلك »

فلما سمع أركاديوس الخبر لم يعد يتمالك نفسه من الاضطراب والتأثر ، وتعاظم الأمر عليه ، وتحقق ان ارمانوسة قد استنجدته ، فكيف لا يذهب لنجدتها ، فتظاهر بأنه تذكر أمرا يستدعى سرعة ذهابه الى غرفته ، فودع ارسطوليس وخرج وهو يفكر فى امره وأمر ابيه ، فوصل الى غرفته وقد شعر كأنما صب على جسمه ماء حار تارة وبارد تارة اخرى ، ووقف فى الغرفة صامتا تتقاذفه هذه العوامل . ثم هب بغتة الى خوذته فلبسها وتقلد حسامه وهم بالخروج من الغرفة يريد الركوب الى بلبيس ، فرأى فى عمله هذا خطرا ظاهرا ، فأمسك وعاد الى الغرفة ووقف الى النافذة وغرق فى بحار الهواجس لا يدرى ايطيع عواطفه أم عقله . وبقى كذلك الى المساء وقد نسى نفسه ، فدخل عليه أحد الجند قائلا : ان رسولا بالباب ، قال : « فليدخل » . ولما رآه علم انه قادم من بلبيس ، لما شاهد من اثر الغبار على وجهه وعلم انه جاهد فى سوق دابته فى أثناء الطريق ، وناوله الرسول كتابا فاذا هو من ارمانوسة تقول فيه :

« اذا كنت تحب أرمانوسة فأسرع الى بلبيس لانقاذها ، لأنها اصبحت بين مخالب الموت »

فلما قرأ الكتاب اتقدت نيران الغيرة والنخوة فى عروقه ، فنسى اباه وكل دولة الروم ، وأسرع الى جواده فركبه وخرج من باب الحصن لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، واطلق لجواده العنان ، وكان من خير خيل العرب العتاق حمله اليه صديق له من ضباط الروم فى الشام

وكان الليل حالكا والطريق وعرا ، ولكنه لم يبال شيئا ، فمضى هزيع من الليل وهو على جواده ، والجو هادىء وقد ساد الظلام والسكون ، لم يكن يسمع الا صوت وقع اقدام الجواد خفيفا لنعومة تربة مصر وقلة الحصباء فيها . وبعد منتصف الليل بقليل تعب الجواد فجعل سيره خفيفا ، واخذ يلتفت الى

ما حوله فلم يشاهد الا اشباح الأشجار القريبة تمر كأنها اصنام سابحة فى الماء !

وفيما هو سائر تتقاذفه الهواجس سمع صوتا خفيفا عرف من رنته انه صوت امراة تستجير ، ثم انقطع الصوت بغتة ، وكان لشدة هواجسه فى ارمانوسة وماعرفه من الضيق المحيق بها كأنه فى حلم يسمع صوتها تستجير، فلما سمع ذلك الصوت خيل اليه انها فى يد العدو وتستجير به ، فوقف واصاخ بسمعه جهة الصوت فلم يسمع شيئا ، فظن ما سمعه وهما ، فهم بالسير فسمع الصوت ثانية وقد اقترب ، واذا بالمستجير يتكلم بالقبطية ويقول : « اشفقوا على صباى. خافوا من الله اذا كنتم لاتخافون المقوقس». فخيل اليه أن ارمانوسة بين ايدي اناس يريدون بها شرا ، فهبت الحماسة فيه ونسى نفسه ، ولكز جواده ، فسار به الى جهة الصوت ، وكان قدسمعه بعيدا ، وبينه وبين الصوت غابة من شجر الجميز ، فسار بجواده بين الاشجار يحملق ويتطاول بعنقه لشدة الظلام لعله يلمح اشباحا او يرى احدا ، وكانت قرقعة درعه وسيفه أعلى صوتا من وقع أقدام جواده ، حتى اذا اقترب من جهة الصوت سمع قائلا يقول : « أستنجدك يا قادم وأستحلفك بالله وبالشرف أن تنقذنى من هؤلاء اللصوص »

فأرسل نظره الى مخرج ذلك الصوت ، فراى ثلاثة أشباح وقوفا تحت شجرة ، ولكنه لم يميز أحدا منهم لشدة الظلام، فأغار بجواده وناداهم بصوت كأنه الرعد القاصف : « أين هم اللصوص ؟ اتركوا الفتاة والا اذقتكم المنون بحد هذا السيف » . وجرد حسامه ، وكان بينه وبينهم نحو عشرين ذراعا ، فركنوا الى الفرار فتبعهم ، فسار كل منهم فى ناحية واختفوا بين الاشجار . فخاف أن يبعد عن مخرج الصوت فيخطىء مكان الفتاة ، فعاد الى الشجرة التى شاهد الاشباح تحتها ، فراى شبحا يترامى عند اقدام جواده وهو يقول : « حماك الله يا فارس وانقذك من غوائل الزمان ، فقد انقذتنى من مخالب الموت والعار» . فترجل اركاديوس وامسك المتكلمة وهو فى شك من ان تكون ارمانوسة . فاذا بالصوت غير صوتها ، لكنه كان مختنقا من شدة البكاء ، فامسك بيد الفتاة وخاطبها باللغة القبطية قائلا : « لا تخافى يا فتاة . انك فى مأمن من شر اولاد الحرام »

واحس اركاديوس عندما قبض على يدها انها باردة كالثلج ، وهى ترتجف وترتعد ، فقال لها : « لا تخافى يا فتاة ، قولى لى من انت ؟ »

قالت : « انى فتاة مسكينة ، قد اختطفنى بعض أولاد الحرام يريدون بى سوءا ، فجزاك الله خيرا على انقاذى . ولكن احذر أن يغدروا بك وأنت واقف عنا ، فانهم لايخافون الله ، وكأنى أرى واحدا منهم وراء تلك الشجرة »

وما اتمت كلامها حتى شعر اركاديوس بنبلة مرت بفخذه ، ولكنها لم

تصبه فتحول عن الفتاة واسرع الى الجهة التى جاءت منها النبلة وصاح : « ويلك ياخائن ! انى والله قاتلك لامحالة ، ولا ابالى اذا كنتم مئات أو ألوفا » .
وكان الحسام لايزال مجردا ، فوثب كأنه الليث الكاسر ، وخاف الرجل ، فاراد الفرار فأدركه بضربة جندلته وقد صاح قائلا : « آه قتلتنى ! » . فاذا هو يتكلم الرومانية ، فأجابه باللغة الرومانية قائلا : « امن جماعة الروم هذه الخيانة ؟ تبا لكم ! » . والتفت الى ماحوله فلم يرا احدا ، فتحقق أن القوم فروا ، فعاد الى الفتاة فاذا بها قد خارت قواها ووقعت على الارض من شدة الخوف وهى تقول : « قتل الخائن فالحمد لله » . فأمسكها اركاديوس وأجلسها ، وهو يود أن يعرف من هى ، ثم تذكر حبيبته وتصور انها فى مثل هذا الضيق ، فاقشعر جسمه وقال للفتاة : « اين بلدك ؟ » . قالت : « بالقرب من بلبيس يا سيدى »

قال : « هل تعرفين هذا الخائن الذى يتخبط فى دمه ؟ » . قالت : « نعم يا سيدى ، هو ابن حاكم القرية »

قال : « وما الذى يريده منك ؟ » . قالت : « يريد اختطافى من حجر والدى ، وقد قضى زمنا طويلا يترقب الفرص للايقاع بى ؛ حتى تمكن والده الحاكم أن يجعلنى ضحية النيل ، فأنقذنى الله على يد سيدتى ارمانوسة بنت المقوقس ، وهى ببلبيس ، فلما سمع بذهابها الى خطيبها قسطنطين صباح امس ، انتهز الفرصة ، وجاء فى زمرة من رجاله ، واختطفنى قهرا بعدان اوسع ابى ضربا ، وفر بى الى هذه البساتين ، وقد كاد يفتك بى ، لو لم تأت انت لانقاذى »

فلما سمع اسم ارمانوسة خفق قلبه ، وازداد الخفقان لما سمع انها سارت الى قسطنطين ، وأراد تحقق الخبر فقال : « وهل سارت ارمانوسة الى خطيبها ؟ وكيف سارت ؟ »

قالت : « علمنا ونحن فى قريتنا ، ان سرية من الجند الرومانى جاءت من انحاء الشام بأمر من الامبراطور ليحملوها اليه ، وسمعنا انها خرجت من المدينة وسارت برفقتهم »

قال : « هل رأيتها انت سائرة معهم ؟ »

قالت : « لم ارها يا سيدى ، لاننى لم اكد اسمع بخروجها للمسير حتى جاءنى هؤلاء الخائنون ، ولم أعد اعى شيئا ، ولكننى بينما كنت معهم ، وهم يعذبوننى ، وقد حملنى بعضهم على جواده ، رأيت خيل الروم تسير شرقا ؛ واظن سيدتى أرمانوسة معهم »

فلما سمع ذلك نفد صبره فقال للفتاة : « وأين الخيل التى جئتم عليها ؟ » . قالت : « لا أدرى أين تركوها ؟ لانى لم اكن اعى ماذا يفعلون لعظم اضطرابى »

قال : « وهل نحن بعيدون عن بلبيس ؟ » . قالت : « لا اظننا بعيدين »

ففكر في خير الطرق للاسراع الى بلبيس، وماذا يعمل بالفتاة ليأخذها معه، وليس عنده الا جواده، وخاف ان هو تردد في الامر ان تذهب ارمانوسة منه فقال: «اني أخشى عليك أن لا تحسني الركوب، فهل تركبين خلفي؟». قالت: «افعل مابدالك، فاني حية بفضلك»

فركب وأردفها، فتمسكت بأطراف ثوبه، وساق جواده قاصدا بلبيس، وهو يكاد لايرى الطريق لعظم غيظه

وفيما هو سائر شاهد أشباحا عن بعد، وقد اسرعوا اليه على خيول، وصاحوا به: «من القادم؟». فلم يجبهم لعظم ما به. فلما اقتربوا منه ورأوا الفتاة وراءه رموه بالنبال وصاحوا به: «تخل عن الفتاة والا قتلناك»، فعرفت مارية صوت مرقس فصاحت: «لا ترم النبال يا مرقس، انه من الاصدقاء». وكان اركاديوس قد هم بأن يضربهم، فلما سمعها تناديهم بالاسم وقف وقال: «من تنادين؟». قالت: «أنادي ابن عمي، وهو قادم للبحث عني فيما اظن». ولم يتما الكلام حتى وصل مرقس، وترجل ودنا من الفرس فامسك بالزمام، وهو في ريب من أمر الراكب، وركوب مارية وراءه، وأحاط رجال مرقس بالفرس وهم يصيحون: «من انت؟». واركاديوس لايريد أن يعرف احدمنهم انه ابن الاعيرج فقال: «لست السارق ياقوم». وقالت مارية: «انه شهم كريم، انقذني من مخالب الموت»

فترجل اركاديوس، والدرع تغشاه، والخوذة تغطي معظم رأسه، حتى لايستطيع أحد معرفته، فقال للجميع: «هذه فتاتكم فاحملوها». فأمسكوا بجواده قائلين: «من انت؟ قل لنا حتى نكافئك خيرا»

قال: «لاحاجة بكم الى معرفتي، واستحث جواده وسار يخترق الصحراء قاصدا بلبيس»

وكان أولئك القوم: مرقس ورجاله ومعهم والدالفتاة، وقدانهكهم التعب، لانهم قضوا طول ليلهم يهرعون من مكان الى آخر يفتشون عن مارية

فحالما سار الركب قبل المعلم اسطفانوس ابنته وقال لها: «الحمد لله على سلامتك يابنيتي». وسلم مرقس عليها، ثم حملوها على فرس من أفراسهم، وساروا بها الى القرية فرحين، وقد عجبوا لأمر ذلك الفارس وتنكره مع ما صنعه معهم من الجميل، فسألوها عن حكايتها فحكتها لهم كما وقعت، فازداد اعجابهم بشهامته

اما اركاديوس فسار على جواده، والليل لايزال حالكا، حتى دنا من بلبيس، والسور محيط بها، والابواب مقفلة، والحامية على الاسوار حذرا من قدوم العرب، فخاف ان هو دنا من السور أن يصيبه شر، لأنهم لايعرفونه، وتحير هل ينتظر النهار فيدخل المدينة بحيلة، أو يسير في اثر الجند الذين قيل له انهم حملوا ارمانوسة. وفيما هو يسير قرب المعسكر عثر جواده حتى

كاد يكبو ، فنظر الى ما عثر به فاذا هى حبـال وأوتاد ، فترجل وتأمل ذلك المكان ، فعلم انه اثر مضرب خيام ، وقد بقيت آثارها هناك ، فتأمل وضع الخيام على قدر ما سمحت له شدة الظلام ، فعلم انها خيام رومانية ، وشاهد مع ذلك آثار آنية وثيابا رومانية ، فتحقق انها الخيام التى أقلع أهلها فى صباح الامس . وما زال يفتش فى تلك الآثار متحيرا حتى دنا الفجر ، وأخذت تلك الآثار تنجلى له ، فشاهد خيمة لا تزال مضروبة فى آخر ذلك المعسكر، فسار وقاد جواده وراءه لعله يجد فيها خيرا ، فسمع صوتا ينـاديه من داخل الخيمة : « من القادم ؟ » . فعرف ان الذى يخاطبه من جنـد الروم فقال : « بل من انت ؟ اعدو ام صديق ؟ » . فقال : « أنا من جند الروم »

قال أركاديوس : « لابأس عليك، لأنك من جندنا » . وتظاهر بأنه من قواد الروم جاء بمهمة . فخرج اليه الرجل من الخيمة فاذا هو جنـدى كما ظن ، ونظر الجندى الى اركاديوس ولباسه فظنـه من كبار القواد ، ولم يكن أركاديوس لابسا خوذته ، وقد فعل ذلك اخفاء لحقيقة حاله ، لأنه لو لبسهـا لعرفه كل من رآه

فقال اركاديوس : « ما بالكم تقيمون فى هـذه الصحراء ؟ ولماذا لم تقيموا داخل الاسوار ؟ »

قال : « قد أقمت أنا وجماعتى الليلة هنا بأمر مولانا الحاكم بعد فرار يوقنا أمس من هنا »

فقال : « وكيف فر وقد جاء لحمل ارمانوسة ؟ »

قال : « اكتشفوا انه جاء بدسيسة ، ولم يكن مرسلا من مولانا قسطنطين كما ادعى ، وبعد أن خرجت السيدة أرمانوسة الى هـذا المكان ، ومكثت فى هذه الخيمة مدة ، وقد أعدوا الاحمال ، وهموا بالمسير ، جاءهم رسول بكتاب من كبير العرب القادمين الى هذه الديار، فخاف يوقنا وتركها وفر برجاله »

فأحس اركاديوس عند ذلك كأن ثقلا كبيرا تحول عن صدره وقال للرجل : « اذن لم يأخذ ارمانوسة معه ؟ » . قال : « لا » . قال : « والى اين ذهبت هى ؟ » . قال : « عادت الى قصر الحاكم فى بلبيس »

فتحقق أركاديوس عند ذلك ان ارمانوسـة لا تزال فى خير ، ولم يأخذها أحد ، فاطمأن قلبه ، ولكنه اراد أن يقابلها ويكلمها ويشفى أوار شوقه اليها ، ولم يكن قد جلس اليها بعد . ونظر الى هندامه ، وتحير كيف يدخل المدينة صباحا ، مخافة انكشاف امره ، فتـذكر ان جواده معروف عند معظم جنـد الروم ، ولا بد لمن يراه نهارا من ان يعرفه ، فاذا أخفى نفسه لا يستطيـع ان يخفى جواده . ثم نظر الى ثيـابه وقد انفلق الصبـح فراى السيف ملطخ بالدماء ، وعلى درعه نقط منها لطختها ساعة قتل اللص ، وبقى برهة يفكر . فتذكر الفتاة التى انقذها من القتل ، وقال فى نفسه : « لعلى استطيع ان أبعث

معها كتابى الى ازمانوسة ، لانها فتاة مثلها ، ولا شك انها تخلص لى الخدمة ، لانى انقذتها من الموت . ولكن من اين لى الوصول اليها الآن »

وبينما هو يفكر فى ذلك ، وقد تحول عن الخيمة لئلا يرتاب فيه احد ، اذ حانت منه التفاتة فراى رجلا ينظر اليه من بعد ويتأمله ، ولا يجسر ان يدنو منه ، فبقى اركاديوس ماشيا ، وقد أخذ بزمام جواده ، وقاده وراءه ، فراى الرجل يدنو منه ، فخاف ان يكون قد جاء مخادعا فناداه : « من انت ؟ »

فارتمى الرجل على قدميه وقال : « اطلب اليك يا سيدى أن تقول لى من انت ؟ فانى اشعر بوطأة فضلك على واحب ان اعرفك ؟ »

فقال : « ومن أنت ؟ » . قال : « انا مرقس القبطى ، وانت الذى انقذت ابنة عمى من القتل ، فانها بعد أن وصلنا الى البيت وحكت لنا حكاية نجاتها لم استطع الصبر على جهلى من انت ، فتعقبتك لكى اراك على نور النهار ، فاذا انت ملثم فلم اعرفك ، ولكنى اتهيب لباسك ، واخاف هذا الجواد » . قال : « وهل تعرف جواد من هذا ؟ » . قال : « نعم اعرف ، انه جواد البطل اركاديوس بن الاعيرج »

فقال : « فاعلم اذن انى من اصحاب اركاديوس ، وكفى »

قال : « نعم يا سيدى ، ولكنى اشعر بعظيم فضلك على ، ولا ادرى كيف اكافئك ؟ »

قال : « لم أعمل ما عملت التماسا للمكافأة ، لأن لى من فضل سيدى اركاديوس ما يغنينى عن ذلك »

قال : « نعم يا سيدى ان فضله علينا جميعا وعلى انا بالتخصيص » . قال : « وكيف اختصصت نفسك بفضله » . قال : « انه انقذ خطيبتى من القتل مرة قبل هذه يوم ساقوها الى النيل »

قال : « وكيف تقول خطيبتك ان ارمانوسة هى التى انقذتها ؟ » . قال : « نعم هى التى انقذتها ولكن بوساطته » . قال : « لم أفهم مرادك ، فأفهمنى كيف انقذتها هى بعون اركاديوس ولا وصول لها اليه ؟ »

فارتبك مرقس فى امره ، وندم على ما فرط منه ، وخاف ان يكون فيما قاله ما تؤاخذ عليه ارمانوسة ، وكان قد تعجب يوم تناول الامر من ارمانوسة مختوما بخاتم اركاديوس ، ولم يعلم كيف توصلت هى اليه بتلك السرعة ، مع علمه ان اركاديوس كان فى الحصن اذ ذاك ، وكان يظن ان ارمانوسة اصطنعت خاتم اركاديوس تزويرا ، فلاح له أن فى التصريح بأمر ذلك الكتاب خطرا ، فلم يجب

فقال له اركاديوس : « ما بالك لا تجيب ، وقد قلت انك تشعر بفضلى عليك ؟ » . فظهر عليه الارتباك ولم يجب

فقال له اركاديوس : « اتدعي الاخلاص وانت تتردد فى اطلاعي على الحقيقة؟ اهذا جزاء الخير ؟ »

فوقع مرقس على قدمي اركاديوس وقال : « ان فى المسألة سرا لم افهمه ، واخاف اذا قلت أن يجيىء منه ضرر ، أن تسترك تحت هـذا اللثام مما يزيد خوفى ، فهل لك ان تعلمنى من انت حتى ابوح بالحقيقـة ، ارجو ان لايترتب على قولى شر لأحد الناس . وما جزاء الاحسان الا الاحسان »

فمال اركاديوس كل الميل الى معرفة سر الامر ، وتوسـم بمرقس خيرا . وعزم على ان يستخدمه فى توصيل كتابه الى ارمانوسة ، او أن يتوصل اليها بوساطته اذا احلص له الخدمة لأنه قبطى ، وتذكر بعد الاخـذ والرد معه انه رآه غير مرة مع رجال ارسطوليس فى الحصن

فقال له : « تعال معي على انفراد » . فانفردا بعيدين عن بلبيس فى منزل خرب ، يظهر من انقاضه انه كان معصرة يصطنعون فيها الخمر ، وليس حولها الا الصحراء وبعض الاشجار ، فجلسا تحت شجرة ، فرفع أركاديوس اللثام عن وجهه ، فحالما رآه مرقس وقف مبهوتا ، وهم بتقبيل يديه ، وقد ذعر وقال : « العفو يا سيدى ، أانت مولانا أركاديوس وأنا لا أعلم ؟ »

قال له : « انى بازاحة هذا اللثام قد أطلعتك على سر لم يطلـع عليه احد . فاحـذر ان تفوه بكلمة امام احـد ، او ان تذكرنى ، فانى جئت متنكرا حتى لايعرفنى احد . هل فهمت ؟ »

قال : « نعم يا سيدى ، وانى اقسم لك بالصليب والمعمـودية انى أخلص القول والعمل فى كل ما تريد ، الا ما يخشى منه الضرر بالسيدة أرمانوسـة ، لأن لها على فضلا مثل فضلك ، فاذا عاهدتنى ان لا تؤذيها فى شيء أطلعتك على الحقيقة ، والا فاننى مصر على الكتمان ولو قتلتنى »

فازداد اركاديوس شوقا الى معرفة الحـكاية ، وعاهده على عدم التعرض بأذى لأرمانوسة مهما يكن من أمرها

فقص مرقس عليه حكايته من يوم ان خرج من الحصـن مع بربارة الى أن حكم على خطيبته بالغرق ، وكيف أنقذها بكتاب سلمته اليه ارمانوسة ، وعليه خاتم اركاديوس ، ثم شرح له ذهابه الى الفرما للتحقق من موت خطيبهـا ، وما وقع من امر يوقنا ، الى آخر الحكاية . فانجلت المسالة لأركاديوس جيدا ، وسر كثيرا لنجاة أرمانوسـة ، واعجب بشهامة ذلك الشاب ، لأنه كان وسيلة فى انقاذها ، ورأى من نفسـه ميلا الى مكاشفته بأمره توسما للخير فيه . فقال له : « اما وقد رأيت فيك هذه المروءة ، وعلمت ماتكنه من الاخلاص لأرمانوسة فسأطلعك على أمر لم يطلع عليه أحد سواك ، وانى آمل فيك أن تكتمه وتبقى على مروءتك »

فابتدره مرقس قائلا : « انى مطيع فى كل ما تأمرنى به الا اذا كان فيه ما يلحق الضرر بسيدتى ارمانوسة »

فقال اركاديوس : « حاش لى ان اريد بأرمانوسة سوءا ، بل اطلب اليك ان لاتطيع احدا فى امر يمسها بشر ، فانها ـ ولا اخفى عليك ـ اعز الناس عندى »

فتعجب مرقس لذلك وقال : « يكفينى انك لا تريد بها سوءا »

قال : « انظر يا مرقس وافهم ما اقوله لك ، انت تعلم منزلتى ونسبى ، ولا تعجب لمكاشفتى اياك واستسلامى لك ، فقد آنست منك شهامة ومروءة سهلا على ذلك ، وأنت خطيب مارية وتعرف قلوب المحبين ، فاعلم انى احب ارمانوسة حبا شديدا ، ولم يعرف بهذا الحب احد سواها وخادمتها بربارة ، واما امر خاتمى فهو بيدها ، وقد دفعته اليها عربونا للمحبة ، واما قسطنطين فهى لا تحبه ، وقد أرسلتك للتثبت من موته لعلها تنجو منه » . واوضح له حكايته على قدرما تسمح له منزلته ثم قال : « وقد جئت الآن خفية عن كل من فى الحصن لانقاذها ، اذ بلغنى ان قسطنطين بعث يستقدمها اليه مع يوقنا ، وسأنيط بك امرا ارجو أن تقوم به بالحزم والدراية بحيث لايلحظ احد شيئا منك فأنا اريد مقابلة ارمانوسة قبل عودتى الى الحصن ، ولكنى لا استطيع الدخول الى بلبيس لئلا يعرفنى أحد ، فما الرأى ؟ »

قال : « الامر لسيدى ، فهل تريد أن توافيك الى مكان خارج المدينة ؟ »

قال : « نعم اريد ، ولكن كيف السبيل الى ذلك بغير ان ينكشف أمرنا ؟ »

ففكر مرقس قليلا ثم قال : « ارى ان اكاشف سيدتى ارمانوسة بما دار بيننا ، وادعوها الى منزل خطيبتى بدعوى انها تريد أن تقوم بواجب الخضوع والشكر لها »

فقال اركاديوس : « ولكننى لا أظنها تذهب ، لأن المسافة طويلة »

قال : « اذا لم تستطع الخروج الينا فاننا ندبر حيلة اخرى »

فقال اركاديوس : « ارى ان أتنكر بلباس مثل لباسك ، واسير كأنى رسول اليها ، فتأخذ أنت هذا الجواد وتذهب به الى القرية وتبقيه هناك حتى أعود ، فتكون انت فى انتظارى على الطريق فأركب واسير فى طريقى »

فقال مرقس : « حسنا ، فهل اعطيك ثيابى الآن؟ » . قال : « هات خوذتك ورداءك وسيفك ، وخذ هذه الدرع وهذا الحسام وهذا الجواد ، واذهب الى القرية واحذر ان تخبر احدا بأنك رأيتنى أو عرفت شيئا عنى »

فتبادلا الثياب ، واخذ مرقس الجواد والدرع والحسام ، وسار قاصدا القرية ، وسار اركاديوس كأنه أحد جنود الروم قاصدا بلبيس ، فلما اقترب من الاسوار كانت الابواب قد فتحت واخذ اهل تلك الخيمة فى تقويضها وحلها ، فدخل هو فى جملة الداخلين ، ولم ينتبه له أحد

لقاء الحبيبين

باتت ارمانوسة تلك الليلة تفكر تارة فى مرقس وخطيبته ، وطورا فى تأخر اركاديوس عن المجيء لنجدتها بعد أن بعثت اليه مرتين ، وكاشفت بربارة بذلك ، فقالت : « اظنه لايستطيع الخروج من الحصن خلسة خوف الفضيحة ، أو لعله يأتى فى صباح الغد »

واصبحت وهى تنتظر رجوع مرقس، او من ينبئها بخبره أوخبر خطيبته ، لانها كانت فى قلق عليها ، فجاءتها بربارة تنبئهــا أن الحراس عادوا واخبروها بظفره بمارية ، وتمنت ان تظفر هى باركاديوس ايضا ، فقالت ارمانوســة : « وكيف ظفروا بها ؟ وماذا فعلوا بذلك الخائن ؟ » . قالت : « قتله فارس لم يعرفوه بعد »

وفيما هما فى الحديث جاء بعض الخدم يقول : « ان رجــلا يريد الســيدة ارمانوسة »

فسألت بربارة عن الرجل ، فقيل لها انه من الجند، ولعله رسول، فهرولت وهى تحسب انه رسول من اركاديوس ، فاذا هو بلباس مرقس ، او مثــل لباسه فظنت لأول وهلة انه هو، ولكنها لما تأملته علمت انه غيره ، فقالت له : « ماذا تريد ؟ » . فقال : « اريد السيدة ارمانوسة ، فاني رســول اليها من صديقى مرقس ، وقد جئت لأشكرها بالنيابة عنه » . فقالت بربارة : « انها لا تزال فى الفراش الآن ، وساعلمها بقدومك ، ولا شــك انها تسر كثيرا بنجاة مارية ، وقد يتيسر لك رؤيتها اذا عدت بعد قليل »

فقال : « لا ، بل اريد مقابلتها الآن . وكان يكلمها باللغة القبطية »

فعجبت لهذه الجراة ، وتاملت وجه الرجل فاذا هو رومانى ، فلاح لها انها تعرفه لما رات بينه وبين اركاديوس من الشبه ، ولكنها لم تكن تتوقع أن يكون اركاديوس نفسه لما رات من لباسه وحاله

فقالت : « قد لا تريد أن تقابل احدا الآن »

فامسك بيدها وقال : « اظنها اذا عرفت من أنا لا تمتنع عن مقابلتى ، فانى رسول جئتها ببشارة من اركاديوس بن الاعيرج ، فهل تعرفينه يا بربارة ؟ »

فلما سمعت لهجته رجح لديها انه هو ، فالتفتت الى ماحولها فلم تر احدا

من الخدم فقالت له : « لعلك سيدي اركاديوس ؟ » . قال : « ربما كنت هو » وتبسم » فأين سيدتك يا بربارة ؟ »

فبغتت ، وخفق قلبها فرحا ، وقالت : « تمهل قليلا ، لان فى دخولك الآن بغتة خطرا عليها ، فاصبر قليلا غير مأمور لأمهد السبيل لملاقاتكما »

ثم دخلت على سيدتها ، وعلى وجهها امارات البشر ، وهى تضحك ، فلما راتها ارمانوسة عجبت لسرورها فقالت : « ما وراءك يا بربارة ؟ » . قالت : « ما ورائى الا الخير ؟ »

قالت : « ومن القادم ؟ » . قالت : « يقول انه صديق مرقس ، وقد جاء لينبئك بنجاة عروسه من يد اللصوص» . قالت : «قدسررت كثيرا بنجاتها ، ولكننى لا أرى ذلك داعيا لما يظهر من سرورك »

قالت : « وما عسى أن يكون سبب سرورى اذن ؟ وهل يكون سرورى برسول قادم من عند سيدى اركاديوس اكثر من ذلك ؟ كلا ! لأن هذا انما يسرك انت ، واما انا فلا ناقة لى فيه ولا جمل »

فبغتت ارمانوسة ونهضت قائلة : « هل هو رسول من أركاديوس يابربارة ؟ أخبرينى ما هى رسالته ؟ »

قالت : « لا اعلم اذا كان رسولا من اركاديوس او هو اركاديوس عينه ؟ » وتبسمت فقالت ارمانوسة : « ما بالك تخلطين ؟ افصحى . تهزئين بعواطفى وتسخرين من قلبى ؟ »

قالت : « حاش لله يا سيدتى ! كيف تقولين ذلك وانت تعلمين حرمتك عندى ؟ ان الواقف بالباب الآن اما ان يكون اركاديوس أو رسولا من عنده ، وقد تركت أمر تمييزه حتى استشيرك ، فهل تريدين أن يكون أركاديوس او رسولا من عنده ؟ »

قالت : « لا أعلم ، سلى قلبك . ولكن ارجو ان تسرعى فى الافصاح فقد نفد صبرى ، هل هو اركاديوس او رسوله ؟ قولى »

قالت : « اذا كنت لا تغضبين منى فهو سيدى وحبيبك اركاديوس ، فهل تأذنين له بالدخول ؟ » . فخفق قلبها فرحا ، وعلا وجهها الاحمرار ، ثم تلاه الاصفرار ، وقالت وصوتها يرتجف : « فليدخل » . ثم استأنفت فقالت : « ولكن تمهلى يا بربارة . انى أرى قلبى يخفق كثيرا . ولا أدرى ماذا يحل بى عند مقابلته ؟ »

فقالت لها : « تجلدى ، والا فانى اقول له ان سيدتى ليست هنا ، او انها لاتريد مقابلتك . وليهدأ قلبك فانه لابس لباس الجندحتى انك ربما لاتعرفيته فهل يدخل »

قالت : « كيف لا اعرفه ؟ فليدخل »

فخرجت بربارة وعينا ارمانوسة تشيعانها ، وقد احسست بارتعاش جسدها وبرود أطرافها ، ولم تصدق ان أركاديوس على بضع خطوات منها ، ولما وقع نظره عليها نزع خوذته عن رأسه ، واقترب منها وهي جالسة تحاول الوقوف فيقعدها الحياء والرعشة . اما هو فمد يده يصافحها فاحس ببرد انامله وارتعاشها ، ونظر الى وجهها فرأى الحياء يعلوه ، وقد أطرقت لا تستطيع النظر اليه لشدة انفعالها

ولكنها ظلت ممسكة بيده ، وهو ينظر الى تلك اليد الجميلة البضة تزيد جمالها الخواتم الثمينة المرصعة . وبقيا لحظة صامتين والهوى يتكلم ، ثم بدا هو فقال : « كيف حال ذلك الخاتم يا أرمانوسة ؟ »

فرفعت رأسها ونظرت اليه والحياء يمنعها عن الجواب ، ثم اطرقت وقد ازداد خفقان قلبها حتى كاد يغمى عليها ، فشعر أركاديوس بذلك فأراد مداعبتها ، فقال وهو يضغط بأنامله على يدها : « أين وضعت ذلك الخاتم ؟ »

فنظرت اليه وهي تبتسم ، وتنهدت واشارت بيدها الاخرى الى قلبها ، تريد أن الخاتم في قلبها . وازداد وجهها احمرارا

فقال : « وماذا فعلت بقسطنطين ؟ »

فجذبت يدها من يده والتفتت اليه شبه مغضبة، كأنها تقول له : «لاتذكرني بمصائبي». فقال : « ولم لم تذهبي مع رسوله وهو ينتظرك عند بحر دمياط؟ »

فلم تتمالك نفسها عند ذلك وقالت : « دعني ومصائبي يا اركاديوس . كفاني ما قاسيته »

فتناول كرسيا كان الى جانبه وجلس ، وقد اخذ منه الهيام مأخذا عظيما ، فأمسك بيدها وضغط عليها قائلا : « بل كفاني توبيخا يا أرمانوسة »

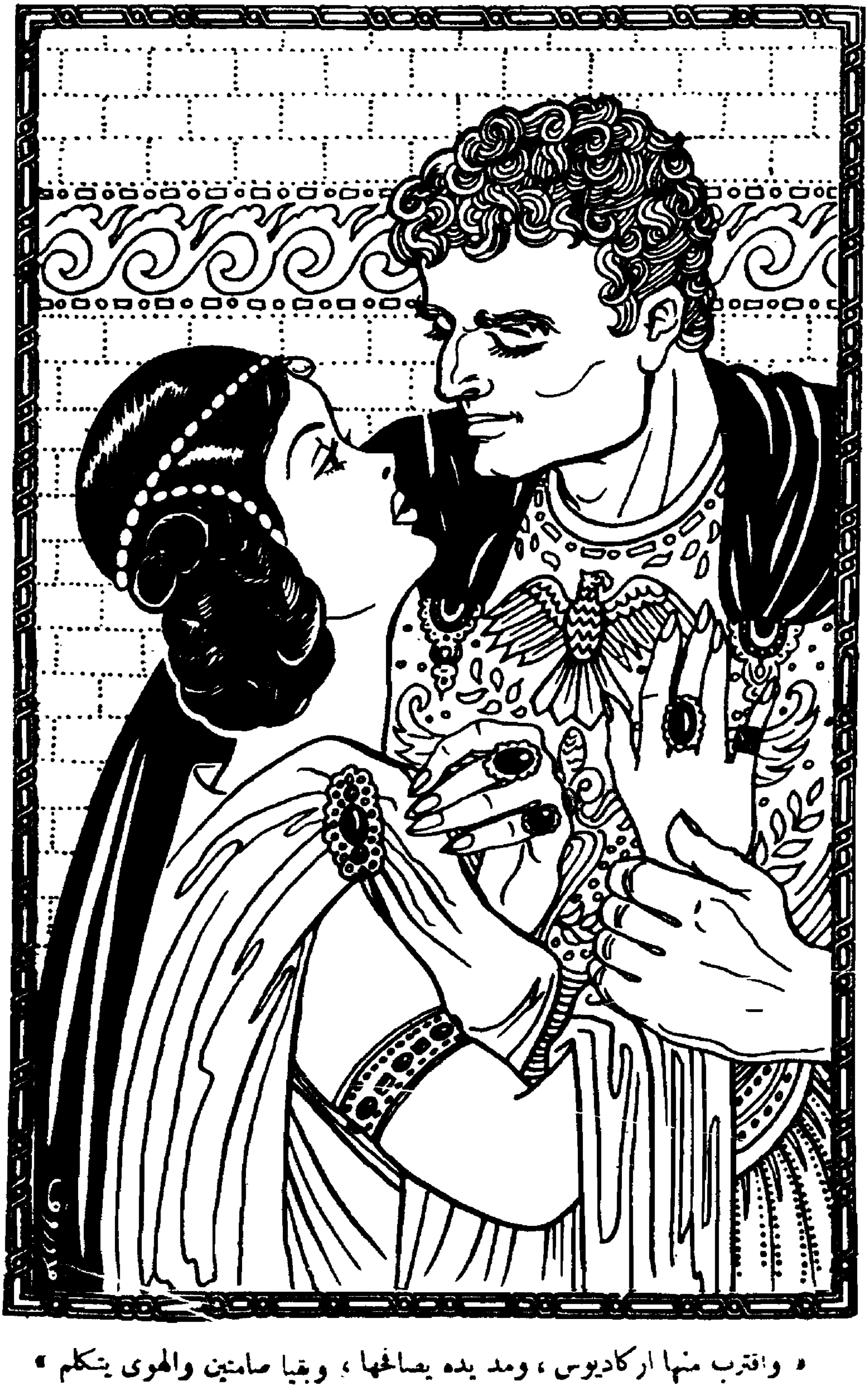
قالت : « ومن قال لك انى أوبخك ؟ » . قال : « عيناك ! »

قالت : « لقد اخطأت الظن ، وانا المستحقة للتوبيخ لأنى لم اصرح على رؤوس الاشهاد بأنى لا أريد ذلك الرجل ، ولكنك تعلم حالى »

فقال : « قلت لك يكفيني توبيخا ، وانت تبالغين فى توبيخى ، فاذا كنت ترين فى كتمانك قصورا ، فكم يكون قصورى ؟ ولكنك لاتجهلين أمرى أيضا »

قالت وهي مطرقة ، وقد ازداد تورد وجنتيها وتلألأ العرق على جبينها : « لم انك رهن مشيئة والدك ، فلا لوم عليك اذا غادرتنى مراعاة له ، ولكننى أود قبل مماتى أن تتحقق مما لك فى هذا القلب من . . » . قالت ذلك وشرقت بدموعها

فازداد هيام أركاديوس، ورأى انها توبخه لامساكه عن التصريح بحبه لها ، فأخرج منديلا ومسح به جبينها ، ثم مسح به وجهه ، فانتعش من ريحها ،



« واقترب منها اركاديوس ، ومد يده يصافحها ، وبقيا صامتين والهوى يتكلم »

والتفت اليها فازدادت خجلا ، وبالغت في الاطراق . فقال لهـا : « هل تظنين ارادة أبي تحول بيني وبينك ، وقد سلمتك خاتمي وقلبي ؟ وما الذى ساقنى اليك الآن مخاطرا بحياتي ، وأنا لا ادرى ما يسوقنى اليه غضب ابى اذا علم انى غادرت الحصن على حين غفلة ، ونحن فى حال حرب؟ وكم يكون غضبه اذا علم اني جئت لاجلك ؟ »

فجذبت يدها من يده وهي لا تزال مطرقة وقالت : « قلت لك انك مقيد بارادة أبيك فكذبتنى » . فقال : « وهل أبى يحول بيننا ؟ »

قالت وقدنظرت اليه نظر العاتب : « وماذا اذن . . وانا لا الومك ، فان اطاعة الوالدين واجبة ، لأنها من وصايا الله العشر »

فشعر اركاديوس بثقل تلك العبارة عليه ، وما تتضمنه من التوبيخ ، وثارت فيه الحمية الرومانية ، واعتدل فى مجلسه وقال لها : « اعلمى ياارمانوسة أن اركاديوس لايطيع أحدا فى سبيل اغضابك ، ولا يثنيه عنك أمر فى السماء أو الارض ، وهيهات ان ينال منك ابن الامبراطور شعرة قبل أن تجرى الدماء ، ولا يحول بيني وبينك شيء الا اذا أردت انت التقرب من البلاط الملكي ، وفضلت القسطنطينية وقصورها على هذا الاسير المفتون »

فتنهدت تنهدا عميقا ، والتفتت اليه قائلة : « أراك تستهزىء بعواطفى أو لعلك تستضعف النساء فلا تؤمن بثباتهن فى الحب ، ولا يعلم مقدار ما أنا فيه الا هذه الرفيقة العزيزة التى هى بمنزلة والدتى ، وان فى هذا الخنجر الذى لم يفارقنى لأكبر شاهد على صدق محبتى لأركاديوس » . قالت ذلك وأشارت الى الخنجر فى بعض جهات الغرفة

فخفق قلبه عندما ذكرت الخنجر وقال : « ماذا تعنين بالخنجر ؟ »

فتقدمت بربارة عند ذلك ، وكانت مصغية الى ما يتبادلان من عبارات الوداد ، وقلبها يكاد ينفطر ، ودموعها تتساقط على خديها من التأثر ، وقالت : « انها كانت تخفى على امرهذا الخنجر ، ثم علمت انها كانت تريد الانتحار ان تحققت وقوعها فى يدى قسطنطين ، وقدكادت توقع بنفسها ضررا عندقدوم يوقنا لو لم يصل مرقس الخادم الامين بالبشرى »

فاعجب اركاديوس بثباتها وشهامتها ، وازداد تدلها بها فقال : « اتكونين فى مثل هذا الثبات وتشكين فى ثباتى ؟ ثقى يا ارمانوسة ان هرقل وجنوده ، واهل الارض قاطبة ، لايستطيعون مس شعرة من شعرك واركاديوس حى يرزق ، ولو علمت ان جهرى بحبك الآن لايأتيك بضرر لوقفت على قارعة الطرق واشهرت غرامى ، ولكننى رايت من الحزم ان نصبر حتى يأتى الله بالفرج ، فهل تبقين على العهد ؟ »

قالت : « اتسالنى يا اركاديوس بعد ما رأيت وسمعت ؟ اتسالنى عن البقاء

على العهد وقد خالفت الشرع والعرف من اجلك ؟ اتســالنى اذا كنت اصون عهدك ؟ »

قال : « ليجمع الله بيننــا وهو على كل شيء قدير ، فلنـأخذ الامر بالحزم والتروى ، فان قسطنطين لن يطمع فيك ، والحالة لا تسمح بذهابك اليه ولو اراد أبوك ذلك ، فان العرب قد قطعوا السبيل على المارة ، ولابد من أن تنقضى هذه الحرب اما لنا واما علينا ، وستسمعين عن حبيبك اركاديوس ما يسرك . والله لاحاربن الروم والعرب فى سبيل رضاك ؟ »

فأمسكت بيده قائلة : « لا تذكر الحرب ولا المحــاربة ، انى اخاف عليــك النسيم ، فكيف بالنبال والسيوف ؟ وكيف تقول انك تحارب عنى ؟ »

قال : « وماذا اذن ؟ »

قالت : « دعنا من الحرب ، وهلم بنا نرحل عن هــذه البــلاد ، بلاد المخاطر والقلاقل »

فوقف بغتة ويده على حســامه وقال : « اتريدين ان يفر اركاديوس من وجه العدو ؟ وهل ترضين به جبانا يخاف الموت ؟ ولماذا هذا الحسام اذن ؟ »

قالت : « لا وحبك ! لا احب الجبان ، ولا ارضى أن يكون أركاديوس جبانا ، ولكن قلبى لايحتمل ان ارى أو اسمع أن الناس يرمون النبال عليك »

فقال : « دعينى اذن وشانى والوغى فاذا سلمت بعدها كنت اهلا لرضاك فلا تندمين على استبدالى بقسطنطين »

فصمتت وهي تتردد بين الشهامة والحب ، ولم تجب . فنهض اركاديوس عند ذلك وهو يقول : « لا بد لى يا ارمانوســة من العودة الى ابى الآن لئــلا يمسنى عار لتخلفى عن الحصن خلسة ، ونحن فى حرب ، فقدخرجته منه ولا يعلم بى أحد ، ولقيت فى طريقى مارية ، خطيبة خادمك مرقس ، وقد اختطفها اللصوص ، وسمعت صوتها تستنجد المارين ، فخيل الى ان ارمانوسة فى يد العدو ، فانقذتها وسرت وأنا ملثم أخاف أن يرانى احد فيعرفنى ، حتى جئت الى ظاهر بلبيس ، ولقيت مرقس وتعارفنــا سرا ، فلبست ثيــابه متنكرا ، وتركت جوادى وثيابى معه ، وقد توسمت فيــه الخير ، وهو الذى أخبرنى بجلية الخبر عنك ، وسنعتمد عليه فى المخابرة حين الابتعاد . والآن لابد لى من الذهاب »

فنهضت ارمانوسة ونظرت اليه وهي حزينة لا تريد فراقه ، ولكنها قالت له : « سر بحراسة الله وها انذا باقيــة فى بلبيس لا أدرى ما يكون من امرنا والعرب قادمون الينا ؟ »

قال : « ساحث اباك ان يستقدمك من بلبيس عندما يتحقق خيانة يوقنا »

قالت : « افعــل ذلك يا اركاديوس ، فانا على العهــد الى أن يقضى الله بما يشاء »

فهم بالخروج ولكنه عاد فقال لها : « فاتنى ان اذكر لك سرورى بالوسيلة التى انقذت بها مارية من الاغراق فى النيل »

قالت : « لعلك تذكرنى بجراتي عليك واستعمالى خاتمك يا اركاديوس ؟ »

قال : « حاش لله ، انى سلمتك قلبى افلا اسلمك خاتمى ؟ فاصنعى ما بدا لك ، ولكن الا ترين ان تنعمى على اركاديوس بتذكار منك ؟ »

قالت : « وما عسى ان أقدم لك وقد ملكت كل عواطفى ؟ ان لدى تذكارا ثمينا أخذته من أمى لم يفارق عنقى منذ صباى ، وهو أثمن ما عندى من الحلى ، وهو هذا الصليب » . ومدت يدها الى عنقها واخرجت سلسلة ذهبية علق بها صليب ذهبى مرصع ، قد نقش عليه اسمها بالقبطية ، وناولته اياه فتناوله وقبله قائلا : « لاريب عندى ان هذا الصليب سيدفع عنى كل غائلة ويقينى من كل شر » . قال ذلك وعلقه فى عنقه وخبأه بين اثوابه ، ثم أمسك يدها وودعها وهو يقول : « اذكرى اركاديوس ولا تنسيه ، فانه سيذكرك ما بقى حيا ، وسيستعيذ باسمك فى حومة الوغى يوم تتقارع السيوف ، وتتصادم النبال ! »

ثم خرج بعد ان ودع بربارة ، فأحست ارمانوسة ان قلبها قد انخلع من مكانه ، وظلت تنظر اليه وهو يمشى فى أرض الغرفة حتى خرج من الباب ، فتحولت الى النافذة تشيعه بنظرها وهو يتلفت لوداعها حتى توارى

اسرع اركاديوس يطلب مرقس ليركب الى الحصن ، وقد أوجس خيفة من غضب أبيه ، وكأنه كان فى سكرة وصحا بغتة ، فهرول يطلب مكان مرقس ، فوصل الى القرية ونظر يمنة ويسرة فلم ير أحدا ، فدخل القرية وجعل يبحث عنه لعله يراه فلم يظفر به ، فشغل باله ، وهو لايعلم أين يفتش عنه ، ولا يعرف من يسأله عن أمره ، ولا يعرف منزله ، فجعل يطوف كالتائه . ولما لم يره خرج من القرية حائرا لايدرى الى اين يذهب ، فحدثته نفسه ان يسير الى مكان المعصرة حيث فارقه لعله بقى هناك مختبئا . وبينما هو فى سبيله رأى غبارا يتصاعد عن بعد ، فوقف ينظر الى ما وراء ذلك الغبار ، فاذا به قد انكشف عن جيش جرار تتقدمه الاعلام والفرسان ، فعلم انه جيش العرب قدم الى بلبيس ، فوقف متحيرا يحرق اسنانه لما اصابه فى ذلك اليوم من فقد فرسه وسلاحه ، ولبث يفكر فى أمره ، والجند يقترب نحوه ، فخاف عاقبة وقوفه هناك وهو راجل لايستطيع النجاة لوادركه فارس من اولئك الفرسان . ولم يكد يفكر فى ذلك حتى رأى فارسا يعدو نحوه باسرع من لمح البصر ، فلم تطاوعه انفته وشهامته على الفرار ، فبقى واقفا وقد تهيا للدفاع ، فاذا بالفارس

أحد فرسان العرب ، وعليه العمامة والشملة ، وقد دنا منه وناداه بالعربية ؛ فلم يفهم اركاديوس مراده ، ورآه يهوي عليه بالرمح ، فاستل هو الحسام وهجم عليه ، وقد ادرك مقدار الخطر المحدق به ، ولكنه نسي نفسه وموقفه في سبيل شجاعته ؛ وضرب الفارس ضربة أصابت رجل جواده ، فنزل الفارس اليه وجعلا يتقارعان ، فأعجب الفارس بشجاعة أركاديوس وأكبر أمره ، وأراد ان يسوقه أسيرا . ثم جاء فارس آخر ، وتعاون الاثنان على أركاديوس ، فطعنه احدهما بالرمح فأصاب زنده ، فسقط الحسام من يده . فهم به الاثنان واوثقاه ، وسارا به الى المعسكر . وكان جند العرب قد وصلوا اذ ذاك وأخذ العبيد في ضرب الخيام وانزال الاحمال ، ونصبوا خيمة الامير عمرو في ميمنة المعسكر ، وانزلوا الهوادج ، وجعلوا يشتغلون بتدبير شؤونهم

فحملوا اركاديوس الى الامير ، وكان قد أوى الى خيمته ، وجلس أمراؤه بين يديه ، ونصبوا علمه أمام الخيمة ، وأركاديوس لا يفهم لسانهم ؛ وقد عظم عليه الاسر كثيرا ، ولعن الساعة التي خرج فيها من الحصن ، ورأى انه في موقف حرج قد لا ينجو منه

فأدخلوه خيمة الامير ، فوقف بين يديه موثقا ، وتقدم اليه وردان وسأله بلسان الروم قائلا : « أمن جند الروم انت أم من رجال المقوقس ؟ »

قال : « بل انا من جنود الروم ، وكلنا جند واحد روما واقباطا »

فقال له مترجم كلام عمرو : « وما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ »

قال : « خرجت من المدينة في حاجة فظفر بي رجالكم منفردا فأمسكوني ، وليست هذه عادة الابطال ، ونحن نسمع أن العرب لا يغدرون »

قال : « نعم ان العرب أصدق الناس عهودا ، وأحفظهم لمقام الرجال ولكن حال الحرب تقضي بالقبض عليك ، فأخبرنا بما عليه جندكم ، ولا تخف شيئا فانك أسير بين أيدينا ولا ينقذك الا الصدق »

قال : « ونحن لا نعرف غير الصدق شعارا ، ولولا ذلك ما امتدت سطوتنا على الخافقين . وانا لا أخاف من الموت اذا هددتموني به . اما جندنا فأبطال لا يهابون الموت ولا يخافون العدو » . فقال عمرو لوردان : « دعه يجلس »

فقال : « لا حاجة بي الى الجلوس ، وما نحن ممن يمل الوقوف »

فعجب عمرو لرباطة جأشه ، وما يتجلى في وجهه من الشجاعة ، وما ينبعث من حدقتيه من الذكاء ، فقال له : « أنت من افراد الجند أم انت من كبارهم ؟ »

قال : « بل أنا من افراد الجند ، وأما قوادنا فستلقونهم في ساحة الحرب » فازداد عمرو اعجابا بشجاعته وأحبه ، لأنه كان محبا للشجعان

اما جلساء عمرو فاستنكفوا جراته فقالوا لعمرو : « الا امرت بقتل هذا العلج ، فانه قد تجاوز الحد في جوابه ؟ »

فاسكتهم وقال لاركاديوس : « اني لاعجب بشجاعتك ، ولم الق بين جند الروم مثل هذه الجراة ، ولذلك فاني ابقي عليك بشرط ان تخلص لنا الخدمة »

فقال اركاديوس : « أما ما ترجوه من خيانتي فبعيد المنال ، فتعجيلك بقتلي أجمل بك وبي »

فمال عمرو الى معرفة حقيقة حاله ، فأجل الأمر الى فرصة اخرى ، وقال لوردان : « خذوه الى مكان امين ، وليكن هناك حتى اطلبه » . فساقوه الى بعض الخيام موثقا ، فصار يفكر في حاله ، وما احدق به من الخطر

□

اما أرمانوسة فانها روضت نفسها على الصبر ، وارتاح بالها ، وسرت بمقابلة اركاديوس ، واعجبت بشهامته وبسالته . ولما توارى عن نظرها عادت الى بربارة وتنفست الصعداء قائلة : « نحمد الله تعالى على ما أولانا من النعم ، فقد تخلصنا من الموت ، وشاهدت حبيبي وكلمته وتحققت ثباته، أما قسطنطين ، فلا أظنه يجسر على دخول هذه البلاد ولو كان حيا ، وقد دخلها العرب ، وهي في حرب معهم ، فأطلب اليه تعالى أن يطيل اقامتهم بيننا منعا لذلك الرجل من دخول هذه البلاد الى أن يقضي الله بما يشاء »

فتبسمت بربارة وقالت لها : « الم أقل لك يا سيدتي ان أركاديوس شهم باسل حازم امين ، وكم تقدمت اليك أن تلقي حملك على الله ، وهو ينقذك من مخالب الموت كما انقذ مارية لخطيبها ، فانها كادت تذوق كأس المنون مرتين ، والفضل في انقاذها بعد الله لحبيبك اركاديوس . متعك الله به ! هلم بنا ننزل الى الحديقة ترويحا للنفس بعد أن اطمأن بالك وسكن روعك »

فنزعت ارمانوسة ثيابها ، ولبست رداء سماوي اللون، وجعلت على رأسها شبكة من اللؤلؤ ، وفي صدرها عروة من الذهب المرصع ، وبيدها الأساور، وتطيبت ، وأرخت ذوائبها على كتفيها ، ومشت تجر ذيل ردائها وراءها ، وبربارة تمشي الى يسارها ، فخرجت من الغرفة ، ونزلت الى رحبة الدار ، ومنها الى الحديقة ، وبعثت الى الجواري الا يبرحن مكانهن ، لأنها تفضل النزهة على انفراد . فدخلت الحديقة وجعلت تخطر بين الرياحين والأزهار فلم تكد تمشي خطوتين حتى علت الضوضاء في المدينة ، وهرول الحاكم مسرعا يطلب مقابلتها ، فاذنت له ، فدخل وعلى وجهه امارات الانقباض والبغتة ، وحياها وهو مرتبك ، فسألته فقال : « يسوءني ان ابلغك خبر مجيء العرب الينا بعدتهم ورجالهم وخيلهم ، وقد تصاعد غبارهم حتى بلغ عنان السماء»

فلما سمعت ارمانوسة ذلك اضطرب قلبها ، ولكنها ، حمدت الله على ذهاب ركاديوس فقالت : « وهل وصل الجند ؟ »

قال : « نعم يا سيدتى ، وقد جاءنى رسول منهم ومعه كتاب من أميرهم ، يطلب الينا ان نسلم المدينــة » . فقالت : « وبم اجبته ؟ » . قال : « انتظر أمرك يامولاتى، لأن مولاى المقوقس اوصانى بألا آتى امرا الا بعد استشارتك ، وها انذا بين يديك ! »

فقالت : « وكيف نسلم لهم وعندنا العدة والرجال ؟ وهل بعثت الى ابى فى شأنهم »

قال : « قد بعثت اليه غير مرة منذ وصلوا الى الفرما ، وهو عالم بقدومهم، ولا ادرى ماذا أعد لدفعهم ؟ »

فتغير لون ارمانوسة وجلا ، لعلمها بقوة العرب ، ولكنها تذكرت ماقاله لها مرقس من أمر الأمان الذى كتبه عمرو لوالدها بشأن المحافظة على القبط خاصة ، فسكن روعها ، فقالت للحاكم : « عليك بالتأهب للدفاع ، وبث رجالك على الأسوار والحصون حتى نرى ما يكون» . فعاد ، وأخذ يعد المعدات، ويبث رجاله فى الحصون ، واجاب العرب بأنه لا يسلم

وعادت ارمانوســـة الى قصرها مضطربة ، تارة تحمـــد الله على ذهاب أركاديوس ، وطورا تقول : « ليتــه بقي ليدافع عنــا اذا مست الحــاجة » . وبينما هى تفكر فى ذلك قالت بربارة : «الم يكن من التعقل يا مولاتى أن نخرج من هذه المدينة قبل وصول العرب ؟ »

قالت : « قد خطر لى ذلك من قبل ، ولكننى وثقت بعهد عمرو ، وهو لا شك يوفى بالعهد ، ولا يريد بنا شرا . وليتنا نبعث اليه مرقس نطلعه على أمرنا »

قالت : « مرقس ليس هنا ، ولم يعد منذ خرج للبحث عن خطيبته »

قالت : « ولكنه ظفر بها ، الا تظنينه يعود الينا اليوم ؟ »

قالت : « اخبرنى سيدى اركاديوس انه ابقــاه ليحرس له جواده وثيابه حين جاء الينا ، ولعله يعود عندما يرجع اليه سيدى فنرسله الى عمرو »

ومضى ذلك اليوم فى التأهب ولم تقع حرب

□

قضى اركاديوس ســـحابة يومه فى حبســـه لم يذق طعــاما ، تتقــاذفه الهواجس ، فيفكر تارة فى ابيه وفى ابطائه فى الرجوع اليه ، وتارة اخرى فى جواده وفى مرقس ، ثم يفــكر فى ارمانوســـــة وكيف انها فى بلبيس والعرب

يهمون بفتحها . وكان اذا تذكر هذا ود لو انه ظل قريبا منها لعله يستطيع الدفاع عنها ، ثم ينظر الى يديه فيرى انه مكبل لا يستطيع حراكا ، فتصغر نفسه فى عينيه ويسأم الحياة . وبات ليله لم تذق عيناه الكرى ، حتى اذا لاح الفجر اغمض جفنيه . وما عتم ان سمع صوت المؤذن يدعو المؤمنين الى الصلاة ، فانتفض وعادت اليه هواجسه . وجاءه رجل بالطعام فأبى ، ولما علم عمرو بذلك بعث اليه وردان يرغبه فى الطعام ويستطلع حقيقة أمره ، ولكنه لم ينثن عن عزمه ولم يذق طعاما ولا شرابا . فقال له وردان : « الا تزال مصرا على عنادك ، ترجو النجاة من هذا الأسر ؟ »

فقال اركاديوس : « قلت لك انى لا اهاب الموت ، وليس من شيم الروم ان يهابوه » . قال وردان : « والله لولا رحمة اميرنا لقتلناك »

قال : « لا حاجة بى الى رحمتكم فاصنعوا ما شئتم وكفى » . فازداد وردان اعجابا به ، وأيقن انه من خاصة الروم ، وجعل ينظر الى لباسه ويتأمله ، فرأى فى عنقه سلسلة ثمينة من الذهب ، لا يتأتى لمن كان فى مثل لباسه ان يتقلدها ، وقام فى نفسه انه من كبار القواد ، فأراد التحقق وهم بانتزاع السلسلة ، فمنعه اركاديوس وقال له : « لا تمد يدك الى ثيابى ، فانما أنتم تطلبون نفسى وهى فى أيديكم »

فأخذ وردان من جراته ، وازداد رغبة فى أخذ السلسلة ، وقال له : « اخسأ ولا تكثر من الهذر والهذيان وانت مقيد فى الأغلال ، ولئن لم تنته عن الاسراف فى القول لأضربن عنقك بهذا الحسام »

فجحظت عينا اركاديوس ، وعض على شفتيه من الغيظ وقال : « كفى تهديدا وثرثرة ، ان الشجاعة لا تكون بقتل الأعزل . فأبلغ أميركم عنى هذا، واننى على استعداد لمبارزة اى شجاع من رجالكم »

فهابه وردان ، وتذكر ان عمروا حظر قتله ، فتركه وسار الى عمرو ليخبره بما دار بينهما ويحرضه عليه . أما أركاديوس فظل الغيظ يشتد به حتى دمعت عيناه . لكنه تذكر انه فى الأسر ولا يليق به البكاء ، فتجلد وانتظر ما يأتى به القضاء . وفيما هو فى ذلك جاءه وردان يدعوه الى الامير ، فسار معه يجر قيوده وهو لفرط غيظه لا يكاد يبصر احدا من الجنود العرب الذين خرجوا من خيامهم ليشاهدوه . حتى وصل الى خيمة عمرو فوجده جالسا فى صدرها وبين يديه امراء جنده ، وبجانبه رجل فى زى غير عربى . وابتدره عمرو قائلا : « علمنا انك لا تزال تطاول وتتحدى رغم ما أنت فيه من الأغلال »

فقال أركاديوس : « ليس الأسر عارا على الرجال ، وانما اله ـ ان تقيدونى وانا واحد وانتم الوف »

فقال عمرو : « حلوا قيوده لنرى ما يكون من أمره » . ولما حلوها قال له عمرو : « ها قد حللنا قيودك فما شانك ؟ » . قال : « ان انصفتم ، فلينهض الى مبارزتى احد رجالكم ، فان غلبنى فدمى حا ـ له »

فقال عمرو : « ولكننا لا نبارز رجلا وضيعا ، وانما نبارز كبار القواد »

فهم اركاديوس بأن يفصح عن امره ، ولكنه أمسك ، وقال : « ان ساحة الحرب تميز الوضيع من الرفيع » .

فازدادت رغبة عمرو فى معرفته وقال : « أصدقنا الخبر يا رجل ، ولك منا الانصاف » . قال : « وماذا تريدون منى ؟ » . قال : « قل من أنت ، فانا نراك فوق عامة جندكم شجاعة

قال : « ان بين عامة جندنا رجالا اصعب منى مراسا واشجع ، ام حسبتم اننا مثل من لقيتم من جند الشام ؟ »

فأمر عمرو بتقييده ثانية وقال له « حسبنا فك قيودك سيحملك على ترك التطاول والعناد ، ولكنك أخلفت ظننا بك »

وبينما هم يعيدون تقييد اركاديوس ، تقدم وردان الى عمرو وهمس فى اذنه مشيرا الى السلسلة الذهبية التى فى عنقه وقال : « لعل هذه السلسلة تنبئنا بشيء من خبره » . فأمر عمرو وردان أن يأتى بها اليه . ولم تجد مقاومة اركاديوس اذ كان وثاقه قد شد ، ودفعوا بالسلسلة الى عمرو ، فأمر بحمل اركاديوس الى محبسه ، وكان هذا لا يكاد يعى شيئا لفرط تأثره ، اذ كان يؤثر قطع عنقه على ان تؤخذ منه السلسلة . فلما ذهبوا به ، اخذ عمرو يتأمل فى الصليب المرصع الذى فى السلسلة ثم قال : « انه شبيه بما وجدناه فى اسلاب الروم بالشام وبيت المقدس . ولكنه اثمن فيما يلوح لى »

فقال وردان : « ذلك حملنى على الشك فى أمر الرجل ، وجعلنى اظن انه من كبار القواد قد جاء متنكرا »

فالتفت عمرو الى الرجل الذى بجانبه وقال له : « ماذا ترى فى هـذا الصليب يا زياد ، فانك اخبر بأحوال الروم ولباسهم ؟ »

وكان زياد حين ذهب الى المقوقس فى الحصن برسالة عمرو التى ضمنها الأمان للقبط ، قد سمعهم هناك يتحدثون بغياب أركاديوس المفاجىء . وكان قد رآه قبل ذلك فى الاسكندرية ، ولكن أمره التبس عليه حين رآه فى حضرة عمرو ، فتناول السلسلة من يد عمرو ، وأخذ يقلب الصليب بين يديه ، فقرأ اسم أرمانوسة مكتوبا على ظهره باللغة القبطية ، ولـكنه كتم ذلك ، وقال : « هل يأذن لى الأمير فى أن أستطلع سر الرجل بينى وبينه ، فانى على رأى وردان فيه ؟ »

فقال عمرو : « افعل ما بدا لك » . فاخذ زياد السلسلة وسار توا الى

المكان الذى حبس فيه أركاديوس ، فوجده غارقا فى بحار الهواجس ، وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما ، واجفل حينما رآه داخلا عليه ، غير انه تجلد ليرى ما يبدو منه . ثم جلس زياد أمامه وقال : « بعثنى الأمير عمرو ابن العاص لأسألك في أمر ، وأرجو أن تجيبنى عنه »

فقال اركاديوس : « وما ذلك ؟ » . قال : « من اين لك هذه السلسلة ؟ » . وأراه اياها ، فما كادت عيناه تقعان عليها حتى اقشعر جسمه وارتعدت فرائصه وترقرقت الدموع فى عينيه . لكنه تجلد وقال : « جاءتنى اتفاقا »

فقال زياد : « هذا بعيد الاحتمال لأن مثلها لا يحوزه من كان من العامة »

قال : « ليكن ذلك حقا ، ولكنى حصلت عليها اتفاقا والسلام »

فقال : « وكيف كان ذلك ؟ » . قال : « وجدتها فى الطريق »

قال : « قل لى ما اسمك ؟ » . فكاد اركاديوس ان يبوح باسمه ولكنه احجم حذر الموت وقال : « وماذا تريد من اسمى ؟ »

قال : « هذا ما يريد الأمير أن يعرفه » . قال « اسمى طيطوس »

قال : « أمن جند الروم أنت أم من الاقباط ؟ » . قال : « بل من جند الروم »

قال : « ومن اى سلاح ؟ » . قال : « وما ادراك بجند الروم وتعدادها واسلحتها ؟ » . قال : « أعرفها جيدا ، فهل أنت من جنود الاسكندرية أم منف ، أم من جنود النجدات التى جاءت اخيرا من القسطنطينية ؟ »

فلحظ اركاديوس فى اسئلته معرفة بأحوال الجند الرومانى ، رغم قيافته العربية ، ولكنه مع ذلك يحسن الكلام باليونانية ، فقال : « بل أنا من جند الاسكندرية » . قال : « ولعلك من فرقة القائد اركاديوس » . فبغت وقال : « ربما كنت منهم . ولكن ما أدراك بجنود الروم ، لعلك ممن سكن هذه البلاد ؟ »

قال : « كنت مقيما هنا منذ بضع سنين وما شأنك انت وهذا ؟ قل : هل تعرف اركاديوس ؟ »

فعجب اركاديوس من الحاحه ، وخاف أن يكون قد عرفه فيقع فى الخطر العظيم فقال : « اعرفه ، ولكننى اسألك امرا واحدا فهل تجيبنى اليه ؟ » . قال : « وما هو ؟ »

قال : « أعطنى هذه السلسلة وافعل بى بعد ذلك ما تريد ، واسألنى مهما شئت فاجيبك »

فقال زياد : « لم يؤذن لى بذلك ، ويهمنى أمر هذه السلسلة اكثر مما

يهمك ، فانها على ما يظهر لأرمانوسة بنت المقوقس ، وانت تقول انك من بعض الجند فكيف وصلت اليك ؟ »

فانكر أركاديوس عليه ذلك قائلا : « لا أظنها لها ، ولكنها وقعت الى محض اتفاق »

فقال زياد : « عجبا لاضطراب كلامك ، فبينا تقول اعطني هذه السلسلة واسألني مهما شئت ، مما يدل على اعظامك لها ، تعود فتقول انها وقعت اليك اتفاقا ، فكيف هذا ؟ »

فارتبك أركاديوس ، ولم يعد يستطيع التخلص من هذه الورطة فسكت. فاستنتج زياد من سكوته أمرا حمله على زيادة التدقيق فى السؤال ، فعاد يستجوبه فلم يجبه ، فالح عليه فأصر على السكوت ، فقال له أخيرا : « انك ان أصررت على السكوت فلن يصبك الا الاذى فأفصح » . فلم يجب ، فعجب زياد لسكوته وقال له : « لماذا لا تفصح . . قل . أجب » . فرفع أركاديوس نظره اليه ، وقد اخذ منه الغضب مأخذا عظيما ، وقال : « لا أجيبك الا اذا أخبرتنى أنت عن حقيقة حالك ومن أنت ؟ فانى أرى انك لست عربيا ، وما الذى تخشاه وأنا مقيد اليدين بين يديك ؟ »

قال : « وما ينفعك تصريحى وما يضرك ! هذا ليس من شأنك ، وانما انت أسير بين أيدينا ، ولا تظن تكتمك يخفى حقيقتك فقد عرفناك ، وانا أول من عرفك »

قال متجاهلا : « وكيف لا تعرفنى وقد تسميت وانتسبت »

فضحك زياد وقال : « اتريد ان اصدق أنك طيطوس ، وانت أعظم من ذلك بكثير . اذا أصررت على الانكار فان ذنبك يزداد ثقلا »

فقال أركاديوس : « قل من أنا اذن »

قال : « أنت أركاديوس بن الأعيرج »

فبغت أركاديوس ، وخاف العاقبة ، ولكنه ابتسم مظهرا الاستخفاف ، وقال : « من اين لسيدى اركاديوس ان ياتى الى هنا وهو محاط بالابطال ، لا يخرج من معسكره الا فى المئات والالوف من الجند ، ليتنى كنت اياه ، ولو آل ذلك الى ان تفتكوا بى الآن »

فانقلب شك زياد يقينا لما ظهر على وجه اركاديوس من الاضطراب وقال : « دع عنك هذا ، واعلم ان اركاديوس الذى لا يخرج من معسكره الا محاطا بالمئات والالوف قد خرج من حصن بابل وحده ، وترك القوم هناك يفتشون عنه »

فازدادت حيرة أركاديوس وخفق قلبه ، وتراكمت عليه الهموم من كل ناحية ، وقال فى نفسه : « وما الذى أوصل هذا الرجل الى الحصن ، وهو من جند

العرب؟ وكيف نجا منه ؟ » . ثم فكر فى الامر قليلا وقال : « أستحلفك يا اخا العرب بمن تعبد أن تخبرنى من انت؟ ومن تعبدحتى استحلفك به؟ » . قال : « ما لك ومن أعبد ؟ »

قال : « اسمع ان العرب اهل عهد وذمام ، وانى ابوح لك بحقيقة امرى اذا وعدتنى بأن تنجز امرا أطلبه منك »

قال : « قد اعدك ولا استطيع الوفاء فليس أمرى بيدى »

قال : « أعلم ذلك ، وانا لن أعاهدك على ما لا يريده اميرك ، فانه اذا عرف من أنا قد يطمع فى قتلى ، وما انا بخائف من الموت »

قال : « ماذا اذن ؟ »

قال عدنى ، وأقسم انك ستفعل ما أقوله لك ، ولو بعد مماتى »

فارتاب زياد فى الأمر ، وعجب لطلبه هذا ، وقال فى نفسه : « ان للرجل سرا عميقا لا بد من معرفته ، فقال : « أعاهدك على شرف العرب وشهامتهم أنى أفعل ما تريده الا نجاتك من الموت . قل ما بدا لك »

فقال أركاديوس : « اما وقد وعدتنى فانى أعترف لك بأنى أركاديوس ابن الاعيرج ، وليفعل بى أميركم ما يشاء ، وقد فهمت من حديثك أنك دخلت الحصن ، وظهر لى أنك تستطيع الدخول بين جند الروم بغير أن ينكشف أمرك ، فرجائى اليك ان تحتفظ بهذه السلسلة وهذا الصليب ، حتى اذا قضي على تدفعهما الى صاحبتهما أرمانوسة سرا ، وتقول لها ان أركاديوس مات شهيدا »

فعندما سمع زياد كلامه تعجب عجبا لا مزيد عليه ، ولم يفهم معنى هذه الرسالة لعلمه بما بين القبط وبين الروم من عداوة شديدة ، فكيف يصل هذا الصليب اليه وهو لأرمانوسة ، فاراد ان يستطلع جلية الخبر فقال له : « وما العلاقة بينك وبينها ؟ »

قال : « هذا ليس لك ، ولا هو من شانك ، فقدعاهدتنى ان تفعلما اطلبه منك ، وهذا ما ارجوه ، فاما أن تفى بالوعد أو تخلفه »

قال : « اما الخلف فحاش لى ان أرتكبه ، ولكننى اريد الافصاح لعلى أستطيع أن انقذك من الموت »

قال : « قلت انك لا تستطيع ذلك ، ثم تقول الآن انك تفعله ؟ اتهزأ بى دع عنك الوعود وافعل ما أقوله لك »

قال : « اترضى الموت ولا ترضى افشاء سرك »

قال : « ان الموت أسهل على من الافشاء »

فقال زياد : « أستحلفك بحياة صاحبة هذا الصليب ، اذا كنت تحبها ،

ان تقول الحق ولا تخف ، فان تصريحك بالحقيقة انفع لك »

فأجفل أركاديوس عند ذلك وقال : « أراك شديد الميل الى معرفة علاقتى بأرمانوسة ، وتستحلفنى باسمها كأنك تظن أنى أحبها »

قال : « وهل فى الحب عار ؟ فاذا كنت لا تريد الافشاء خوفا من غضب ابيك فثق انى اكتم عنه وعن سواه أمرك فقل ولا تخف »

فقال : « اما وقد بلغ الأمر بيننا هذا الحد فقل لى من انت ؟ »

فقال : « لست من جند العرب ، وكفى ، فقل ولا تخف »

ففكر أركاديوس قليلا فلاح له أن الرجل قد يكون من جواسيس المقوقس الى العرب ، أو ربما كان من جواسيس ارمانوسة ، فاستبشر به وقال : « اما والحال كذلك ، وقد أردت بى خيرا فأبوح لك بأنى أحب أرمانوسة وهى تحبنى ، وقد أخذت هذا الصليب تذكارا منها لا يعلم به أحد سواك الآن ، وحبى لها سر لا يعلم به ابى ولا أحد من جند الروم . وهذه حكايتى والسلام ، فافصح أنت الآن وقل لى من انت ؟ »

قال : « أنا من بعض موالى ارمانوسة ، وقدجئت هذا المعسكر فلم يسيئوا الظن بى لأن أصلى عربى . أما وقد علمت الآن حقيقة أمرك فثق بالنجاة على يدى باذن الله ، وها أنذا عائد الى الامير »

قال أركاديوس ، وقد توسم فيه الخير : « لقد وثقت بك وثوقا تاما ، وأنت تعلم انى أستطيع أن اكافئك خيرا ، فابذل جهدك وصن سرى »

فعاد زياد الى الامير عمرو ، وقد صمم على بذل الجهد فى انقاذه ، ولكنه لم يصل الا وقد ركب عمرو ، وصاح فى الناس : « النفير النفير » . وأخذ الجند فى التأهب لمهاجمة المدينة ، فلم يملك فرصة لمخاطبته فى شأن أركاديوس ، ولاح له انه ربما استطاع اطلاق سراحه ، والناس فى شاغل عنه بالحرب

العرب فى بلبيس

كانت ارمانوسة فى اطمئنان على اركاديوس . لظنها انه سار الى الحصن كما قدمنا ، ولكنها أصبحت فى خوف على نفسها من العرب ، لم يكن يخفف من وقعه الا ما علمته من اتصال أبيها بهم

أما حاكم بلبيس فأخذ فى الاستعداد للدفاع ، فأعد الجند وفرقهم على الاسوار فرقا ، فلما أصبح ورأى العرب قد تأهبوا للهجوم على المدينة ، نادى الجند وجاء الاساقفة والقسيسون فصلوا فيهم . وحرضوهم على الثبات . وقراوا الاناجيل . وحملوا الصلبان والاعلام . ورشوا الجند بماء المعمودية . وكان عندهم زجاجة منه جاءتهم من القدس . فاحتفظوا بها من أزمان طويلة. فلما اجتمع الجند فى ساحة المدينة للصلاة جاءوا بالزجاجة وصبوا منها شيئا فى وعاء كبير فيه ماء . وأخذوا من ذلك الماء ورشوا به الجند . وحملوا الشموع والمباخر . وتفرقوا على الاسوار تأهبا للقتال

وأطل الحاكم من أعلى السور ينظر الى العرب . فرآهم قد ركبوا خيولهم واصطفوا صفوفا ، والاعلام تخفق فوق رؤوسهم . وتقدم فارس منهم يطلب المبارزة . وأخذ يجول على جواده مناديا : « البراز البراز » حتى الظهيرة ، فلم يخرج اليه أحد ممن على السور . فعاد الى معسكره ، فاجتمع الامراء وتشاوروا فرأى عمرو أن يسرع القوم باقتحام الاسوار قبل أن تأتى المدينة نجدة من حصن بابل . وسرعان ماتقدم العرب الى الاسوار وأخذوا يتسلقونها

وكانت أرمانوسة تنظر من نافذة قصرها الى العرب وحربهم . فلما رأتهم يتسلقون الاسوار اضطربت وخافت خوفا عظيما . ونادت بربارة فجاءت تجرى وهى تقول : « لا تخافى يا سيدتى ، ان لنا على أمير العرب عهدا كما تعلمين »

ثم سمعنا ضجيج أهل المدينة وصراخهم فأيقننا ان العرب دخلوا بلبيس . فصاحت ارمانوسة : ويلاه يا بربارة قد قتلنا ! وأمرت الحراس باقفال أبواب القصر والتحصين فيه خوفا من الفاتحين . وجعلت تسرق النظر من النافذة فاذا بجيش الروم قد فر ، واهل المدينة فى هرج لايلوون على شىء ، والعرب قد انتشروا فى الحديقة ، وجاء احدهم يطرق باب القصر ، فلم يجسر احد من الخدم ان يفتح خوفا على ارمانوسة ، فسمعوه يقول : « افتحوا . لا تخافوا .

اني رسول من الامير عمرو الى السيدة ارمانوسة »

فلم يصدقوه ، ولما الح فى القول اطلت بربارة من نافذة فوق الباب تستوضح امره ، فاجابها بالقبطية انه رسول اليها من عمرو ، فعجبت للباسه العربى ، وكلامه القبطى ، فقالت : « ماذا تريد ؟ » . قال : « افتحوا . انى اريد ان أكلم السيدة ارمانوسة فى امر ذى بال من الامير عمرو » . فلم تصدقه فأخرج من جيبه السلسلة وفيها الصليب ، وأشار بها اليها ، فلما رات بربارة السلسلة عرفتها ، واسرعت الى سيدتها تقص الخبر فصعقت له ونادت فى خدمها ان يفتحوا له الباب ، فدخل مسرعا الى ارمانوسة ، وهى فى خوف شديد ، فلما راته عرفت انه الرجل الذى كان مع مرقس يوم جاءها الى الخيمة وهى عند يوقنا ، فقال لها : « لاتخافى يامولاتى. ان الاميرعمروا قد ارسلنى لأدخل السكينة على قلبك فانك فى امان من هول ماترين انت وكل من يأوى اليك » . فاسرعت اليه ، واخذت السلسلة من يده وقالت : « من اين هذه ؟ » . وحدقت فيها فاذا هى سلسلتها وصليبها ، فاضطرب قلبها وجزعت وصاحت به قائلة : « كيف وصلت اليك ؟ واين صاحبها ؟ »

قال : « لا تجزعى يا سيدتى ان صاحبها فى خير ، وهو اركاديوس بن الاعيرج ، وقد عرفت قصته ، وساقص عليك خبره ، فلا تخافى » .

فقالت : « قل حالا ، فانى لا استطيع صبرا . اين هو ؟ وكيف وصل اليكم ؟ » . فهمس فى اذنها : « انه اسير فى معسكر العرب ، ولا خوف عليه لأنهم لم يعرفوه ، ومتى انقضت الحرب اسعى فى اطلاق سراحه »

قالت وقد اشتد قلقها ، واضطربت جوارحها : « قل الآن وافصح ، كيف وصل الى المعسكر ؟.. يا ويلاه ! اسر أركاديوس يا بربارة ! »

فهمت بربارة بسؤال زياد عن امره فقال : « ولكن قبل ان اقص الخبر خذوا هذا العلم وانصبوه على باب القصر ، ليعلم الجند انكم فى ذمتنا »

فنادت الخدم ، فأخذوا العلم ونصبوه على الباب ، وجلس زياد يقص عليهما حكاية اركاديوس كما علمها منه ، وارمانوسة كلها آذان ، وقد امتقع لونها وخفق قلبها واصطكت ركبتاها وما صدقت ان جاء على آخر الحكاية فقالت : « وهل هوأسيرعند العرب الآن؟ قد يكونون اصابوه بسوء وبخاصة اذا عرفوا انه ابن الاعيرج »

قال : « انهم لم يعرفوه ، وهم لايفتكون بأسراهم غدرا ، فلا تخافى . وها أنذا ذاهب لاستجلاء خبره وأعود اليكم » . وخرج زياد وقد ترك ارمانوسة على مثل الجمر تلطم كفيها باكية وتصيح : « يا ويلاه ! الاركاديوس حى ؟ آه من الدهر ! كم يعمل على كيدى ! وحتى متى ؟ »

فجعلت بربارة تخفف عنها وتعزيها ولو انها لم تكن اقل قلقا منها ، وذهب زياد توا الى معسكر العرب فرآه يكاد يكون خاليا لاشتغال الرجال بالفتح ،

وقصد الى محبس اركاديوس ، فذهل ذهولا عظيما لما دخله ولم ير به احدا ، فخرج يطوف المعسكر يبحث عنه فلم يقف له على اثر ، فعاد الى الخيمة يفحص ما فيها لعله يستطلع شيئا عنه ، فراى امراسا من الشعر مقطعة بغير آلة حادة ، وعلى بعضها اثر الدم ، فظن ان الغزاة فكوا وثاقه وضربوه او قتلوه ولكنه لم ير جثته ، فوقع فى حيرة وحزن شديدين ، ورثى لحال ارمانوسة عندما تعلم ذلك ، فوقف لايدرى ماذا يعمل

فلنتركه فى حيرته على اركاديوس ، ولنعد الى حصن بابل لنرى ماذا كان من امر ابيه واهل الحصن بعد خروجه

▭

تركنا الاعيرج فى غرفته بعد ذهاب اركاديوس ، وقد حمى غضبه لما تخيله من خيانة المقوقس وهم بأن يدعوه ويؤنبه ، ولكنه آثر السكوت الى أن تنقضى الحرب ، وقد اضمر الشر

وفى صباح اليوم التالي جاءته رسله ينبئونه بوصول العرب الى بلبيس بعد ان فتحوا الفرما ، فاضطرب ، وبعث الى اركاديوس ليشاوره فى الامر ، فقيل له ان اركاديوس ليس فى قلعته ، فاستقصى خبره ، فعلم انه خرج مساء امس ولم يعد بعد . فقلق ، وعجب لذهابه بغير استئذان ، فى ابان الحرب ، فأرسل الى المقوقس ، فجاءه واخذا يتدارسان ماجاء من الانباء ، وساله عن اركاديوس فأجاب بانه لم يره . وماعتم ان شاع خبر غياب اركاديوس فى انحاء الحصن ، واخذ الجند والقواد والناس يتساءلون ، فلم ينبئهم بخبره منبىء ، فعظم ذلك على الاعيرج ، وخارت قواه ، لانه كان يعتمد على اركاديوس فى امر الحصن والاستحكامات وما يتعلق بها ، فبعث من يفتش عنه فى ضواحي الحصن لعله يكون قد ذهب فى حاجة فلم يقفوا له على اثر او خبر ، فخامرته الشكوك ، فكان يتهم المقوقس باغتياله ، ثم يراجع نفسه فيظنه ذهب على جواده لتفقد الحصون فكبا به الجواد فمات . فشغل بهذه الهواجس عن اعداد المعدات وتحصين الحصون . ولاح له بعد لأى ان ينفذ جماعة من خاصته يبحثون عنه فى الاماكن المجاورة ، وامرهم ان يستقصوا خبره ما استطاعوا ، فتفرقوا فى ضواحي الحصن ، واوغل بعضهم شرقا الى جوار بلبيس ، فعثروا بمرقس واقفا ومعه جواد اركاديوس وسيفه ودرعه ، وقد فارقناه هناك ينتظر عودة اركاديوس ، فامسكوه وسالوه عن امره وعن اركاديوس . فقال انه لايعلم عنه شيئا ، فجاءوا به الى الاعيرج ، فلما رآه الاعيرج ومعه جواد ابنه وعدته وسلاحه وثيابه صاح به : « ويلك ! أين اركاديوس ؟ » . وهدده بالقتل او يصدقه القول ، فلم يزد على قوله انه كان مارا بجوار بلبيس فراى الجواد والعدة ، ولا يعرف شيئا عن صاحبهما . فقال له : « ومن اين اتيت بهذا

الثوب ؟ انه ثوب أركاديوس . لعلك قتلته واخذت اسلابه ؟ » . قال ذلك وبعث الى المقوقس، فلما جاء سأله عن الرجل فصرح انه من خدم ابنه ارسطوليس، وسأله فاصر على الانكار ، ولكنهم رجحوا الشبهة عليه ، وارتابوا في امره ، ولا سيما عند رؤيتهم سيف أركاديوس ملوثا بالدم وكان هذا على اثر مقتل خاطف مارية ليلا . فاشتد غضب الاعيرج ، وتراكمت عليه الظنون ، وقال للمقوقس : « لا أعرف قاتل ولدي الا منك ، فان مرقس هذا من رجالك ، وقد وجدنا جواد ابني وسلاحه وثيابه معه ، فأنت مطالب بدمه ، واذا كان قد قتله فدم الاقباط كلهم لايكفيني دية له » . فعجب المقوقس لذلك الحادث الغريب ، واستأذن الاعيرج في استجواب الشاب ، فخلا به هو وارسطوليس، وبذلا الجهد في استنطاقه فلم يفيدا منه شيئا عن اركاديوس ، فهدداه بالقتل فقال : « اقتلاني أو فافعلا بي ما شئتما »

فأمسكه ارسطوليس وقال له : « أما ارسلتك بكتاب البطريرك الى أبي ؟ فقص علينا ما فعلت بعد ذلك » . فحكى لهما من الحكاية مالا يلقي شبهة على اركاديوس، وقد اعتزم أن يحافظ على سر أركاديوس جهده ، ولو آل الامر الى قتله ، لأنه كان عالما خوفه من ابيه اذا علم بما بينه وبين أرمانوسة ، وكان يشعر بفضل اركاديوس عليه . فأبت عليه شهامته الا الانكار خوف الايقاع به ، فبقي مصرا . وعبثا حاول المقوقس وارسطوليس استجوابه

واخيرا قال له المقوقس : « اعلم يا مرقس انك بانكارك هذا تجر ويلا عاما على الاقباط كلهم ، وأنت تعلم امرنا مع هؤلاء الروم ، وما بيننا وبينهم من الضغائن ، ونحن لا نكاد نستطيع دفع الشبهة ، فاذا كنت أنت القاتل فقل وعلينا انقاذك من القصاص، واذا كنت تعرف القاتل فبح ونج نفسك ونجنا ؟ »

فقال مرقس : « لا اعرف شيئا عنه ، ولا أعلم ان هذا الجواد وتلك الثياب له ، ولكني لا ارى ما يدعوكم الى الظن بأنه قتل »

فقال المقوقس : « وما أدراك انه لم يقتل ؟ وكيف يكون حيا وتسلب منه ثيابه ودروعه ؟ »

قال : « لا أعلم ، ولكنني أقول انه لم يقتل »

قال : « وهل انت واثق من انه لم يقتل »

قال : « نعم اني واثق من ذلك ، واطلب اليك أن لا تلح في السؤال الى ما وراء هذا الحد ، فاني لا أجيبك ولو قطعت راسي »

فقال المقوقس : « كيف تقول انك لا تعلم عنه شيئا ، ثم تقول انك واثق من حياته ؟ »

قال : « قلت لك يا سيدي اني لا اجيب عن سؤال آخر ولو قطعت راسي ، وهذه هي حياتي بين يديك فافعل ما تشاء »

فأمر به فأخرجوه مغلولا الى المخفر، وانفرد المقوقس بابنه فقال : «ماقولك يا ارسطوليس ؟ »

قال : « أرى فى الامر سرا لايعلمه الا الله ، ويلوح ان مرقس الى على نفسه ليكتمن السر ، ولو كان هناك فائدة من قتله لقتلناه ، ولكن قتله يزيد المشكلة تعقيدا ، فلنحبسه الى حين . وما دام قد اكد أن اركاديوس حى ، فلنتعهد للاعيرج بأننا مطالبون بدم ابنه او نجده »

وفيما هما فى الحديث اذجاءهما رسول الاعيرج يدعوهما اليه، فذهبا فراياه يتقد غيظا ، فلما دخلا صاح وهو لايدرى ماذا يقول : « اعلم يا ابن قرقت (لقب المقوقس) انى لا اطلب دم ابنى الا منك ، والقطرة الواحدة منه تساوى اهل مصر جميعا »

فجعل المقوقس يهدىء من غضبه ويقول : « لا تعجل بالامر . فان الرجل لايجزم بموته . وأنا الكفيل لك بحياة اركاديوس ، وها أنذا وابنى بين يديك ، لا نخرج من الحصن الا عند عودته سالما . وما أدرانا ؟ فلعله عند العرب ؟ أو لعله غائب فى مهمة ؟ على انى لن أفتأ استدرج الرجل حتى نعلم منه الحقيقة ، والفرج يأتى من حيث لا ندرى »

ففكر الاعيرج برهة ثم نظر الى المقوقس وقال : « اعلم ايها الحاكم انى ملق تبعة فقد ابنى عليك وعلى ابنك ، وكفاكما خداعا ، واقسم بشرف الروم وراس الامبراطور هرقل لامزجن دماءكم بمياه النيل اذا لم تأتوا بولدى اركاديوس حيا »

فاضطرب المقوقس ، وخشى العاقبة ، لعلمه انه حقا يخادع الروم ، واسر لنفسه قائلا : « ان العرب لا يلبثون أن يأتوا ظافرين لا محالة ، فاذا غلبوا يرفعون عنا هذه التبعة . انما الحيلة فى اقناع الاعيرج بالصبر » . ثم خاطب الاعيرج قائلا : « انى أشاركك القلق على أركاديوس ، وان ضياعه ليعز علينا جميعا ، لانه من نخبة رجالنا ، بل هو عمدتنا فى حربنا مع هؤلاء العرب ، وهذا فضلا عن اننا فى حال حرب لا تأذن لنا بالانقسام فيما بيننا ، ولا خفى الا سيظهر، وقد قلت لك اننا مطالبون بدمه ، فاصبر ان الله مع الصابرين».
فقال : « سأصبر بضعة ايام ، وانتما فى الحصن لا تخرجان منه ، فبثا العيون والارصاد للبحث عنه »

ثم تركهما وخرج الى الحصون ، واوصى قواده أن يمنعوا المقوقس وابنه من الخروج مهما يكن السبب

اما مرقس فلبث فى سجنه يفكر فى حاله وقد تحير فى امره ، لايدرى أيبقى على الكتمان فيعرض نفسه للخطر، أم يبوح بحقيقة الحال فيعرض اركاديوس لغضب ابيه ؟ وفيما هو فى ذلك اذ جاءه ارسطوليس وعلى وجهه أمارات الكآبة ، فلما رآه مرقس ازداد بلباله ، وشعر أن كتمانه هو السبب فى

هذه المصائب . فقال ارسطوليس : « أهكذا فعلت بنا يا مرقس ؟ »

قال : « وماذا فعلت يا سيدي ؟ » . قال : « بينما انت تؤكد لنا بقاء اركاديوس حيا ، اذا بك تكتم عنا حقيقة حاله . والاعيرج مصر على طلب ابنه منا ، وقد اتهمنا بقتله ، وانت تعلم أمرنا مع هؤلاء الروم ، وقد بذلنا الجهد حتى لا تظهر لهم دخيلتنا ، افتفتح هذا الباب للايقاع بنا ؟ »

ففكر مرقس برهة ثم قال : « وكيف يتهمكم بقتله وقد خرج وانتم لا تعلمون ؟ وما شأنكم انتم وشأني ؟ »

قال : « ومن يصدق كلامنا هذا ، والاعيرج لو عرض شكواه هذه على ديوان القسطنطينية لصادف اذنا صاغية ، وعادت العاقبة وبالا علينا »

فصمت مرقس قليلا ثم قال : « وما رأيك اذا جاءهم كتاب منه ممهور بخاتمه ينبئهم بأنه على قيد الحياة ؟ »

فقال ارسطوليس : « ومن اين لنا ذلك ؟ » . قال : « هب انه جاءهم مثل هذا الكتاب ، فهل يكفون عن اتهامكم ؟ »

قال : « لاشك انهم يكفون ، ولكن انى لنا هذا ؟ » . قال : « اذا اذنتم لي بالخروج من الحصن اتيتكم بالكتاب »

فعجب ارسطوليس لهذا السر الغريب ، ولم يفهم كيف يستطيع مرقس هذا الامر ، وكيف يقوله كأنه واثق من عمله ؟

فقال : « اتستطيع هذا حقا يا مرقس ؟ »

قال : « نعم يا سيدي ، على أن لا تسألوني كيف آتي بالكتاب ، ولا تقولوا للاعيرج اني ذهبت لآتي به ، بل قولوا اني ذاهب للبحث عنه أسوة بما يفعل الآخرون »

فبهت ارسطوليس ثم قال : « مهلا حتى أطلع ابي على ما تقول »

وخرج الى ابيه فاذا هو مبلبل الفكر لايستطيع الكلام لفرط ما الم به ، فلما دخل عليه حياه فقال له : « ما وراءك يا ارسطوليس؟ » . فقص عليه الخبر

فقال : « ما بال هذا الرجل يعرض علينا من المعجزات أنواعا ؟ ولماذا هذا التكتم ؟ ان في المسألة سرا عميقا ، ولكنني اخاف يا ارسطوليس ان يتخذ خروجه من الحصن ذريعة للفرار ، ومن يضمن لنا عودته ؟ »

قال : « لاحيلة لنا فيه ، وهو مصر على كتمان أمره ، فارى أن نتحمل التبعة في ارساله لعله ينفعنا ، اما بقاؤه مسجونا فلا نفع لنا منه ، وهب انه فر فالتبعة علينا لا تزيد ولا تنقص ! لان غاية الامران نتهم بقتل أركاديوس ، وهذا واقع فعلا . هذا واني استشف من كلام مرقس الصدق ، ولا اظنه يخوننا ، وقد عرفناه من زمن ، وعلمنا بلاءه في خدمتنا » . فاطرق المقوقس برهة ثم قال : « اترى أن نثق به ونستأذن الاعيرج في ارساله ؟ »

قال : « هذا ما اراه ، فلعله يأتينا بالخبر اليقين ، او لعـل اركاديوس يعود من تلقاء نفسـه »

ثم ذهبا الى الاعيرج و قالا له : « ان مرقس هذا اقدر الناس على البحث عن ابنك ، فلنرسله عسى ان يقف على كنه الامر »

فقال : « وكيف نطلق سراحه وهو الذى قتـله أو علم بقتله ، وقد قبضنا عليه وجواد اركاديوس وعدته وثيابه معه ؟ »

فقال المقوقس : « يلوح لى أن الرجل برىء من القتل ، ونحن نعرفه منـذ امد بعيد ، ولا نراه محلا للتهمة ، فأرى أن نرسله فى هذه المهمة كما ارسلنـا سواه ، فلعله يعود بالخبر اليقين »

فقال الاعيرج : « فليذهب ، وعليكما عبء ما يفعل »

فأذعنا وجاءا الى مرقس فأطلقا سراحه ، واوصـياه بالعودة على عجل ، فودعهما وخرج

□

اما زياد فانه لما افتقد اركاديوس فى محبسه ولم يجده ، ولم يعثر عليه فى ناحية من نواحى المعسكر ، عاد الى بلبيس ليطلع ارمانوسة على الامر . وكانت ارمانوسة فى قصرها ومعها بربارة والخدم ، وهى على مثـل الجمر فى انتظـار زياد . فلما ابطأ عليها أخذت تندب سوء حظهـا ، وتقول : « يا بربارة ، ويلى قتلوا اركاديوس ! أين انت يا اركاديوس ؟ آه من جبروت الدهر ! » . وفيما هى فى ذلك اذ سمعت غوغاء فى الدار ، وجاء خادم يقول لها ان رجلا رومانيـا بالباب ، فخرجت بربارة اليه فاذا به اركاديوس يقرع الباب وعلى وجهه امارة الرعب ، وعلى زنده آثار الدم ، فلما رآها صاح بها : « أين ارمانوسـة ؟ هل هى فى خير ؟ »

قالت : « نعم فى خير » . فدخل مسرعا وهو لايكاد يصـدق انه يراها على قيد الحياة ، فلما وقع نظره عليها لم يزد على قوله : « الحمد لله . انت حية » فدهشت وقالت : « ما خبرك ياحبيبى ؟ وكيف اتيت ؟ هل رايت زيادا ؟ »

قال : « لا ، لم اره »

قالت : « كيف نجوت من الأسر ؟ »

قال : « نجوت منه بالرغم من الحبال التى شدوا بها وثاقى ، وما ساعدنى على تمزيقها الا خوفى عليك ، فقد كنت فى الخيمة بعد ذهاب زياد بالصليب الذى ارسلته اليـك ، فسمعت قرع الطبول ونفخ الابواق والعرب يهمون بالهجوم على بلبيس ، فوقفت ارى ما يكون من امرهم ، فاذا بهم قد تسلقوا الاسوار ودخلوا المدينة ، فايقنت انهم سيصيبونك بسوء ، فهبت عواطفى واتقد دمى

حتى غاب رشدى ، وهممت بالمجيء للدفاع عنك عسى ان أموت دونك او انقذك ، فحاولت قطع الوثاق فلم أستطع ، لأنه كان امراسا مجدولة من الشعر، فاصبحت كالمجنون ، واخيرا اسندت ظهرى الى عمود الخيمة ، وجعلت احك الحبل به ذهابا وايابا ، فشعرت بنتوء حاد بارز من العمود فجعلت امر الحبل عليه كاني احزه به حزا ، وقد شعرت بقوة غريبة ، فكنت احك ظهرى بالعمود صعودا ونزولا ، وأحاول التملص من الوثاق واضغط ذراعى بعنف ، حتى غرز الحبل فى لحمى وانا لا اشعر ، فانقطع الحبل بعون الله ، فأسرعت الى الاسوار لا الوى على شيء ، وجئت مسرعا وأنا لا أكاد أصدق انى ألقاك ، فالحمد لله على سلامتك »

فاعجبت ارمانوسة بشهامته ، وتناثرت الدموع من عينيها لعظم تأثرها ، وقالت : « حماك الله من كل سوء ، أنا فى خير ، وقد من الله علينا باللقاء »

فقال : « لمن هـذا العلم الذى على باب القصر ، قالت هو علم عربى بعثوه الينا لحمايتنا من السلب ، وكانى بهم لايريدون بنا سوءا »

فجلس أركاديوس ليستريح ، فجاءته بربارة بثياب ليبدل ثيابه وغسلت له جرحه فاذا هوطفيف نتج عن شدة العنف فى محاولته قطع الوثاق، فضمده ولبس الثياب ، واطل من النافذة فراى العرب قد امعنوا فى المدينة قتلاونهبا ، فثارت حميته الرومانية ، وجعل يتململ ويحزن على ما أصـابه العرب منهم فقالت ارمانوسة : « ما بالك تتململ ؟ » . قال : « أتململ أسـفا على ما حل بجندنا ، الا ترين العرب ينهبون المدينة ويقتلون حاميتنا ؟ مهلا سوف يلقون منا فى حصن بابل ما يردهم على أعقابهم »

ولم تشأ ارمانوسـة أن تخبره بما دار بين ابيهـا وبين العرب من الاخـذ والعطاء خوفا من الفضيحة عند الروم . فقالت : « حماك الله يا أركاديوس من نوائب الزمان ، فلو كان فى جند الروم خمسـة مثلك لما مكن للعرب فى هـذه البلاد ، فاجلس الآن واسترح لنرى ما يأتى به الغد »

قال : « آه يا ارمانوسة ، لا استطيع البقاء على هـذا الذل ، ولا اطيق أن ارى الروم يذبحون ذبح الاغنام ، وان نفسى تحدثنى بأن اتقلد الحسام وأهجم على العرب لأروى غليلى من دمائهم »

قالت : « لا تلق بنفسك الى التهلكة ، وسوف تلقاهم فى الحصن ، وما لنـا وللحرب يا أركاديوس ، فأنا لا اطيق فراقك »

فعاد صوابه اليه وقال : « اما رايت مرقس يا ارمانوسـة ؟ » . قالت : « لا لم اره ، ولماذا ؟ وكيف وقعت فى الاسر ؟ قل لى »

قال : « خرجت من عندك الى المـكان الذى واعدت مرقس فيه ، فلم اقف له على أثر ، وفيما أنا ابحث عنه وصل العرب بخيولهم وقبضوا على ، فوالله لو كنت على ظهر جوادى ما استطاعوا الى سبيلا » . ثم تذكر جواده وثيابه

فقــال : « ولا ادرى كيــف ذهب مرقس بثيــابى والجواد ، وأخشى ان يكون رجالنا قد قبضوا عليه وساقوه الى الحصن واتهموه بقتلى ، وربما قتلوه ظنا منهم انه قتلنى »

فقلقت أرمانوسة على مرقس وقالت : « مسكين مرقس ، انه لا يستحق ذلك ، وعسى أن يكون فى مأمن ، وسننظر فى امره . اما انت فابق هنــا ريثما ينجلى الامر »

فتنهد تنهدا عميقا وقال : « أتعلمــين انه لا أشهى الى قلبى من جوارك ، ولكن النجدة والمروءة يقتضيان اللحاق بالجند، وهم فى حالةحربهم مع العرب واني لا ادرى ماذا ابدى لوالدى عندما اعود ولا اظنه يصدق قولى مهما بالغت فى الاعتذار »

قالت : « غدا نرى ما يكون » . وقضوا بقية اليوم وباب القصر موصد

وباتوا ليلتهم ، فلما جاء الصبــاح اقبل بعض رجال العرب يقودون رجلا موثقا ، فلما دخلوا به القصر اذا به مرقس ، فسألوا أرمانوسة عنه ، لأنهم قبضوا عليه عند الأسوار فادعى أنه من خدم السيدة ارمانوسة . فقالت : « نعم هو من‌خدمى » . ورحبوا به ، ولما رأى اركاديوس فرح فرحا عظيما ، وقص عليه قصته ، وقال له ان المقوقس وابنه متهمان بقتله ، وانه اذا لم يعجل بالمسير سعى الأعيرج وسجنهما وقد يقتلهما

فصاحت ارمانوسة : « ويلاه يا اركاديوس ان ابى واخى فى خطر الهلاك وحياتهما فى يدك »

فقال : « لا تخافى يا ارمانوسة على انقاذهما والذود عن كل من تحبين . لا تخافى ، ولولا خوفى عليك لأسرعت الى الحصن ، ودفعت هذه التهمة عنهما، انما يجب ان ابقى هنا لأرى ما يؤول اليه أمرك »

قالت : « انا لا أريد ان تذهب الى الحصــن الآن ، ولا ان تحضر المعــارك ، ولكنى لا اريد أن يهلك ابى واخى ، فان الروم ظلمة ، لم يخرج منهم شهم غير أركاديوس »

فقال اركاديوس لمرقس : « وكيف حالهم فى الحصن ؟ » . قال : « فارقت اباك قلقا عليك كثيرا ، وقد بث العيون والأرصاد ، وبعث الرسل للبحث عنك ، ولما لم يعثروا عليك شدد النكير على سيدى المقــوقس وابنــه ارسطوليس ، وهو ينوى الايقــاع بهما اذا لم يعلم خبرك . وانا الآن اعترف لك انى جئت على نية أن أزور كتابا عن لسانك وأختمه بخاتمك الذىعرفت منك أنه مع سيدتى ارمانوسة ، واذهب بالكتاب الى ابيك بأنك حى وانك آت عما قليل »

فقال اركاديوس : « اصبت يا مرقس ، ونعم الراى رايك . . ى بقطعة من البردى لأكتب الكتاب » . فلم يجد شيئا من البردى هناك فقطع قطعــة من

قماش كان غطاء للفراش ، وهو نسيج كتاني يعرف بالقباطى من صنع مصر، كانوا يستعملونه للكتابة ، وعليه كتبت المعلقات السبع وعلقت فى الكعبة فكتب الى أبيه يقول ما معناه :

« أبى العزيز المحترم

« لا ألومكم على قلقكم على خروجى من الحصن وانتم لا تعلمون ، وسأطلعكم على ما حملنى على ذلك فيما بعد . واما الآن فانى أكتب اليكم لتطمئن قلوبكم فأنا حى مقيم ببلبيس ، بعد أن أسرنى العرب فنجوت من الأسر ، وعرفت من أحوال هؤلاء العرب ما سأقصه عليكم ، وفيه قوة لنا . ولولا جراح أصابتنى فى ذراعى لجئت اليكم بدل هذا الكتاب ، ولكنى سأسرع حالما استطيع الركوب ، وذلك قريبا ان شاء الله . .

« كتبه ولدكم أركاديوس »

فحمل مرقس الكتاب ، وتقدم الى ارمانوسة وسجد أمامها وقال : « أرجو منك يا سيدتى أن تشفقى على عبدتك مارية »

قالت : « وما خبرها ؟ » قال : « مررت بالقرية فى طريقى اليك واردت الدخول اليها فأمسكنى العرب وجاءوا بى اليك ، وأخشى ان يكونوا قد أصابوا مارية بسوء ، فأستحلفك بسيدى أركاديوس هذا أن تنظرى فى امر انقاذها »

فأجابه أركاديوس قائلا : « ان لك علينا أفضالا تقضى بأن نذود عنك وعن مارية جهدنا ، لا تخف ، كن براحة بال »

قال : « ولكننى لا أستطيع السفر قبل أن أعلم ما آل اليه أمرها فى هذه الحرب »

فالتفتت ارمانوسة الى بربارة كأنها تستشيرها ، فقالت : « الراى يا سيدتى أن نبعث الى الامير عمرو فنخبره ان اهل مارية ممن ينتسبون الينا ، ونأتى بهم جميعا ليكونوا معنا » . فقالت : « احسنت يا بربارة ومن يذهب ؟ » قالت : « زياد وهو لا يزال هنا »

ثم خرجت فأتت به ، فلما رأى مرقس سلم عليه وصافحه وسأله عن أمره ، فقصت بربارة القصة عليه ، فقال : « لا تخف يامرقس، فان اهلكم فى ذمتى وها انذا ذاهب لأنظر فى شأنهم » . وخرج

ولبث الجميع فى انتظاره ، ثم دق باب القصر وعلت الضوضاء واذا بالخدم يقولون ان أمير العرب قد جاء يريد الدخول ، فقالت ارمانوسة لأركاديوس : « الأولى أن تختبىء لئلا يراك فيعرفك » . فاختبأ فى بعض غرف القصر ، وخرجت بربارة لاستقبال الأمير ، وهى أول مرة شاهدت فيها مثل هذا الرجل، فرأته كما تقدم وصفه، وقد أحاط به جماعة من قواده ، وفى مقدمتهم

وردان المترجم ، فأسرعت بربارة بهم الى بهو كبير جلسوا فيه . فقال وردان : « ان الامير جاء بنفسه ليطمئن ارمانوسة بألا خوف عليها ولا على أحد ممن فى منزلها » . فقالت بربارة : « اننا نعجز أيها الامير عن ايفاء الشكر حقه فقد أمنتنا وجنبتنا الحرب واوزارها »

ثم خرجت وعادت بسيدتها ، وقد لبست أحسن ما يكون من الثياب الفاخرة ، وعلا وجهها احمرار الحياء فزادها جمالا ، فجلست وخاطبت عمروا قائلة : « ان ما أوليتنا من الفضل لا يسعنا القيام بشكره »

فأجابها عمرو وهو مطرق : « ان هذا فى سليقتنا وقد عاهدنا اباك على حمايتك . وساءنى كثيرا ما ارتكبه ذلك الخائن يوقنا من خداعك ، ولو ادركناه لعاقبناه شر عقاب . اما الآن فاعلمي انك فى ذمتنا ، وانا لا نغدر فى اعمالنا ، فاذا شئت البقاء هنا بقيت، واذا اردت المسير الى ابيك بعثنا معك من يوصلك الى حيث تريدين ، فاختارى »

فأطرقت أرمانوسة ثم قالت : « اوثر الذهاب الى أبى اذا اذن الأمير »

قال : « لك ذلك » . وكان وردان يترجم بينهما ، فقال له عمرو : « هيىء لها من يكون فى ركابها الى حيث تريد ، وكن أنت حارسا لهم »

قال : « سمعا وطاعة »

وارادت بربارة أن تقدم لضيوفها شيئا من الخمر على عاداتهم ، فقال لها وردان : « احذرى أن تفعلى ذلك لأن الخمر محرم فى ديننا ، وليس عليكم الا التأهب للمسير ، وفى صباح الغد نبعث اليكم رجالا يسيرون فى حراستكم »

فشكرته . ثم قام عمرو مودعا وخرج . وخفت أرمانوسة الى اركاديوس وأخبرته بما كان فقال : « اذن أسير أنا ايضا معكم الى قرب الحصن ، ثم انفرد وادخله وحدى ، وانت تذهبين الى منف »

وعند الظهيرة جاء زياد ومعه مارية ووالداها ، فطار مرقس فرحا ، واوصى ارمانوسة بهم خيرا ، وقال لها : « فليذهبوا معكم الى منف لأنهم يكونون فى مأمن هناك » ، فوعدته خيرا ، ثم ودعهم وخرج يحمل كتاب أركاديوس الى ابيه

لبث اهل الحصن فى انتظار مرقس ، ثم سمعوا بسقوط بلبيس ، فتكدر المقوقس كثيرا وخاف على ابنته ، ولكنه كان مطمئنا لما لديه من العهود ، وفى اليوم التالى وصل مرقس بكتاب أركاديوس ، فدفعه الى ابيه فقراه ، واطمأن قلبه على ابنه ، ولكنه بقى فى حيرة لا يدرى لخروجه سببا.

ولما خلا مرقس بالمقوقس اطلعه على ما أتاه عمرو من الجميل مع ابنته وانها ستكون في منف بعد قليل ، فبعث بعض رجاله لاستقبالها وتشييعها الى قصرها

ولبث الأعيرج يوما آخر في انتظار اركاديوس حتى جاء ودخل عليه فقبله ورحب به وساله عن سبب غيابه فقال : « انت تعلم يا سيدي غيرتي على شرف الروم ، وقد رايت الجواسيس يأتوننا بالأخبار المتناقضة ، فلم نفهم حقيقة قوة العرب ، فحدثتني نفسي أن اذهب لاستطلاع حالهم ، وانا اعلم انك لا تأذن لي خوفا علي ، فخرجت على حين غفلة من الحراس ، على الا اغيب الا يوما واحدا واثقا من انى اذا عدت واخبرتك بما استطلعته تعفو عن عملي

« فلما وصلت الى جوار بلبيس خشيت ان يكون جوادي ولباسي الفاخر حائلين بيني وبين ما اريد ، فرايت رجلا من جندنا خارج المدينة ، فتبادلنا الثياب وتركت جوادي عنده ، وسرت الى معسكر العرب ، وكانوا مخيمين امام المدينة ، وما كدت ان اخرج من المعسكر حتى قبضوا على وسجنوني ، وبقيت الى ان اقتحموا بلبيس ، فغافلتهم وقطعت الوثاق ، ودخلت المدينة وعلمت ما استطعت علمه ، فاذا عددهم لا يزيد على اربعة آلاف مقاتل ، ولكنهم ، والحق يقال ، يهجمون على الاسوار هجوم الأسود ، ويزأرون كأنهم ذاهبون الى مغنم ، ولكننا بحول الله سنبدد شملهم امام هذا الحصن ، فان بلبيس ليست مدينة حرب »

فقال الاعيرج : « بورك فيك ، وهم به وقبله وقال : « انها شجاعة فائقة الحد يا ولدي لأنك عرضت نفسك للخطر الشديد »

فقال : « ولا ينجح الا المخاطر المجازف »

فقال : « ولكني رايت على سيفك اثر الدماء ! » . فأجاب في غير اكتراث : « لعله كان ملوثا من قبل وهذه هي جلية الخبر ، وما علينا الا الاستعداد والتحصين ، فان العرب لا يلبثون أن يقدموا علينا »

فأمر الأعيرج بالتأهب للقاء العرب ، وبعث الى كبار قواده ، وخطب فيهم حاثا على الثبات والدفاع ناسبا ما لقيه العرب من النصر في طريقهم الى الحصن الى ضعف جنود الفرما وبلبيس ، ثم فرقهم في القلاع على السور ، واوصى ابنه بتعهدهم وتفقد الأسوار ، فبعث اركاديوس رجالا الى خارج الحصن يتفقدون الخندق المحيط به ، واوصاهم ان يبذروا فيه حسك الحديد بذرا ، اي ان يغرسوا الحسك في قاعه وجدرانه ، فاذا هجم العرب على الاسوار حال الخندق بينهم وبينه ، فاذا نزلوا الخندق دخل الحسك في اقدامهم ، واكثرهم عراة فتعوق تقدمهم

اما ارمانوسة فانها وصلت الى ضفة النيل بموكبها ، وكان ابوها واخوها

قد علما بقدومها فخرجا لملاقاتها ، ورحبا بها وسألاها عن العرب ، فروت ما حدث لها معهم ، واثنت على شهامة عمرو فاستبشروا بنجاح حيلتهما . وكانت القوارب معدة لاستقبالها فركبت ومن معها الى منف ، وأجالت نظرها فى الحصن لعلها ترى اركاديوس فتتزود منه بنظرة ، فاذا هو يرقبها من اعلى السور عند كنيسة المعلقة ، فجرى قاربها وهى تسترق النظر اليه كانها تودعه وتدعو له بالسلامة ، وقلبها يخفق وجلا لئلا يصيبه سوء، فقد خيل اليها لما عاينته من شجاعة العرب وبطشهم انه فى خطر ، فتناثرت الدموع من عينيها . وكان القارب قد جرى بعيداً ، وبربارة معها تنظر اليها وتراقب حركاتها ، فادركت ما هى فيه فخاطبتها قائلة : « سلمى امرك الى الله ، وهو يحرسك يا مولاتى »

وكانت مارية وأهلها قد ركبوا قاربا آخر ، وسارت القوارب تمخر عباب الماء ، والوقت أصيل ، فلما أشرفوا على ضواحى منف تذكرت ارمانوسة ما كان من أمرها مع أركاديوس وقسطنطين ، وشكرت الله على نجاتها . ولكنها ما زالت توجس خوفا على حبيبها ، فادركت بربارة ذلك فقالت لها : « مالى أراك غارقة فى بحار الهواجس ؟ ثقى بالله وتوكلى عليه ، فان الذى انقذك وانقذ أركاديوس من مخالب الموت حتى الآن سيحرسكما الى يوم اللقاء ، وهو قريب أن شاء الله »

فلما دنوا من شاطىء منف ، ورسا القارب عند الرصيف ، تذكرت ارمانوسة تلك الليلة المقمرة التى باحت فيها بسرها لبربارة ، فانقبضت نفسها وغلب عليها الجزع ، فطفرت الدموع من عينيها ، وكان الخدم والحاشية فى انتظارها على الرصيف ، فاستقبلوها بالأزهار والرياحين ، وجاءت الجوارى واستقبلنها باسمات الثغور ، يحمدن الله على سلامتها ، وكن قد سمعن بما احدق بها من الخطر فى بلبيس ، ورافقنها من الرصيف الى الحديقة. كل ذلك وهى فى شاغل عنهم جميعا بهواجسها وخفقان قلبها ، وما صدقت أن وصلت الى قصرها حتى دخلت غرفتها ، وكانت بربارة قد تركتها وذهبت لتعد مكانا لنزول خطيبة مرقس واهلها ، وأوصت الخدم بهم خيرا . ولم تكن مارية المسكينة اقل قلقا من ارمانوسة لأجل مرقس . ثم عادت بربارة الى غرفة سيدتها ، وكانت الغرفة مزينة بانواع الرياحين والأثاث الثمين ، فرأتها قد استلقت على السرير ، وأوغلت فى البكاء والنحيب ، فاخذت تخفف عنها وتؤملها بالفرج القريب

فتنهدت أرمانوسة وقد خنقتها العبرات ، ولما سكن روعها قالت : «دعينى يا بربارة من الآمال الباطلة ، فنحن قد عدنا الى حيث كنا ، وعادت مخاوفنا الينا ، وكان ما مر بى فى اثناء هذه الغيبة اضغاث احلام » . فامسكت بربارة بيدها ، وجلست الى جانبها وهى تبتسم لتخفف قلقها وقالت : « كيف

تقولين انها أضغاث احلام ، وقد نلت ما كنت تتمنين ؟ الم تكونى فى ريب من محبة أركاديوس ، وقد رايته وكلمته غير مرة ، وتبادلتما عربون المحبة ، ووثقت بحبه لك ؟ الم يكفك ما رايت من غيرته عليك وشغفه بك ؟ الم تكونى فى ريب من امر قسطنطين ، وقد تحققت الآن نجاتك من قبضته ؟ اليس هذا بالشيء الكافى الآن ؟ فكيف تقولين انها اضغاث احلام ؟ »

فاجابتها ارمانوسة : « اجل ، انها اضغاث احلام لأنى قد عدت الى هذه الغرفة كما خرجت منها ؟ ولم انل شيئا غير الآمال ، وما أحسب ما مر بى من رؤية أركاديوس وسماع كلامه الا حلما مر وزال ، بل اراني أكثر قلقا عليه من ذى قبل ، فقد كنت فى ريب من حبه ، ولم أكن اشعر بمثل ما أنا فيه من القلق عليه ، فهل تجود لى الايام به ، وارى ذلك الوجه الباسم ، وتينك العينين البراقتين ؟ » . وشرقت بدموعها ، فاخذت بربارة تخفف عنها وتشغلها بالآمال والوعود ، وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، فاخذت بيدها وخرجت بها الى شرفة القصر ، فأطلت على الحديقة ، وبربارة تمنيها بالأحاديث ، وتذكرها بما مر بها لتصرفها عن هواجسها ، وهى صامتة تنظر الى البر الثانى من النيل تستانس بقربه من الحصن ، فأمرت بربارة الخدم فجاءوا بالوسائد وفرشوها فى الشرفة ، وجلستا تارة تتشاكيان ، وطورا تتأملان ، وارمانوسة لا يرضيها الا الحديث عن اركاديوس ، وبربارة تلهيها تارة به وطورا بسواه

حديثه ، او حديث عنه يطربنى هذا اذا غاب ، أو ذياك ان حضرا
كلاهما حسن عندى أسر به لكن أحلاهما ما وافق النظرا

اما أركاديوس فلبث ينظر الى ارمانوسة حتى توارى قاربها عن نظره ، فوقف برهة كاسف البال يتأمل فيما يتهدده من الخطر ، وما يحول بينه وبين حبيبته من العوائق ، وبقى برهة على هذه الحالة حتى دعاه أحد جنود الحامية أن يذهب الى ابيه لأمر يريده فيه ، فسار حتى دخل على ابيه ، فاذا هو جالس وحوله ارباب مجلسه يتداولون فيما هم فيه . فلما دخل حيى والده وجلس الى جانبه ، فآنس والده شيئا من الارتباك فى وجهه فابتدره قائلا : « مالى ارى أثر الانقباض فى وجهك يا أركاديوس ؟ هل داخلك خوف من امر العرب ؟ » . قال ذلك وهو يبتسم كأنه يمازحه

فانتبه أركاديوس لحاله ، واظهر الاستغراب قائلا : « أنت تعلم يا ابتاه انى لا اخاف الموت ، ولا احسب للحرب حسابا ، فكيف تقول انى خائف ؟ وما الذى يخيفنى وأنا تحت جناحك ؟ لا سيما انى رايت هؤلاء العرب ، وعلمت

من ضعفهم وقلتهم ما لا تعلمون ، واما ما ظننته فى من الارتباك فانما هو شدة اهتمامي بالاستعداد وتهيئة الوسائل لدفع الأعداء ، ولا شك فى فوزنا عليهم باذن الله وهمة أبطال الروم » . واشـار الى الحضور ، فأجابوه جيعا : « اننا بين يديك متفانون فى سبيل الرومان، ضاربون بسيف جلالة الامبراطور الى آخر نسمة من حياتنا »

فاثنى الاعيرج على غيرتهم وصرفهم ، فخرجوا يجرون سيوفهم وطيالسهم ، فلما خلا الاعيرج بابنه اوصد الباب ودعاه الى القرب منه وقال له : « اطلعني يا اركاديوس على ما خبرته من امر هؤلاء العرب وقوتهم مما عاينته وشهدته ، ودع الاستخفاف والبسالة جانبا ، وقل كيف استطاع هؤلاء البدو فتح حصون الفرما وبلبيس مع ما ذكرته من ضعفهم وقلتهم ، ونحن نعلم ان حامية بلبيس قوية وحصونها منيعة ؟ »

فصمت اركاديوس برهة يفكر ولم يبد جوابا لعلمه أن العرب لم يستطيعوا ما استطاعوه الا بما أعارهم القبط من العون سرا وجهرا ، وتذكر امر ارمانوسة وحماية عمرو لها ، وما لاقته منه من الحفاوة والاكرام ، وايقن أن ذلك لم يكن نتيجة خلق العرب فقط . وحدثته نفسه أن يصرح بما خامره من الشك ، ولكنه خاف أن يزيد الخرق اتساعا ، فتزداد الهوة الحائلة بينه وبين ارمانوسة . وكان أبوه يرقب ارتباكه، وينتظر جوابه بفارغ الصبر ، فلما أبطأ فى الجواب أعاد السؤال قائلا : «مالى اراك صامتا لاتجيب ؟ افصح وقل الصدق ولو كان علينا ، فان ذلك اول معدات الدفاع ، لاننا اذا عرفنا قوة عدونا وثقل وطأته عرفنا السبيل الصواب الى دفعه »

فلم يدر اركاديوس بم يجيب ؟ وخاف ان يسيء ابوه الظن به فتبسم واظهر الاستخفاف وقال : « لم يكن سكوتي لشيء مما خامر ذهنك ، ولكنني كنت افكر فى السبب الحقيقى فلم أهتد اليه ، على انى اعلم أن الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا ، فلا عجب اذا انتصر العرب على بعض حصوننا الضعيفة ، فلعل الله قدر أن يكون دفعهم على أيدينا فننال الفخر دون جند الروم بمصر »

فقال الاعيرج : « بورك فيك ياولداه ، فأوص رجالك بالثبات ، وشجعهم وتفقد مراميهم وأسلحتهم ، والاتكال على الله . ولا تنس الجسر بين الحصن والجزيرة فاننا كنا قد نزعناه ثم اعدناه لحاجة اقتضت اعادته ، فأمر بنزعه لئلا يكون للعرب سبيلا للوصول الى منف ، وكذلك الجسر بين الجزيرة والبر الغربى ، عمل على اعادته لكى نتمكن من جلب المؤونة والذخيرة من منف عند الحاجة . وبث العيون فى جهات بلبيس لينبئونا بقدوم العرب ، فنكون على بينة من أمر مسيرهم ، فلا يأتوننا على غرة . واوصيك وصية أخرى ارجو الا تنساها ولا اظنك تجهلها ، وهى أن تحذر المقوقس ورجاله ، فانهم يمالئون العرب علينا »

ثم افترقا ، وسار اركاديوس الى قلعته ، فأوصى الجند بنزع الجسر ، واعادة الجسر الآخر الموصل الى منف ، وبعث الجواسيس الى بلبيس ، وأوصاهم باليقظة ليراقبوا حركات العرب ، فاذا علموا بمسيرهم نحو الحصن عادوا اليه بالخبر . ثم تحول الى غرفته ، وكان الليل قد أسدل نقابه ، فنزع خوذته وسلاحه وجلس الى النافذة المطلة على النيل ، وقد هدأ الجو ، وأوت الطيور الى أوكارها ، وهب النسيم عليلا ، وجرى النيل بازاء الحصن هادئا ، واطل البدر من وراء الأفق فارسل أشعته على سطح الماء تتلألأ تلألؤا ضعيفا. فارسل نظره الى جهة منف ، حيث تقيم ارمانوسة ، وتصور حاله معها وما هو فيه ، فغلبت عليه الهواجس ، وتراكمت عليه الهموم ، فانقبضت نفسه ، واظلمت الدنيا فى عينيه ، وتحير فى أمره ، فخيل له ان العرب سيغلبون بما نالوه من عون القبط ، فارتعدت فرائصه ، وثقل عليه عار الانكسار . فقال فى نفسه : « انى لأوثر الموت على الفرار ، ولكن ارمانوسة جعلت الحياة عزيزة على » . ثم عاد فتصور انهم تغلبوا على العرب واعادوهم القهقرى ، واخذ يفكر فراى ان ذلك ايضا لا ينيله بغيته من ارمانوسة ، لما يعلمه مما بين ابويهما من الضغائن والاحقاد . فلبث يفكر فى ذلك حتى شعر بالتعب والنعاس ، فذهب الى فراشه ينتظر ما يأتى به القدر . وقضى معظم اليوم الثانى فى التأهب

وفى مساء ذلك اليوم جاءهم الجواسيس ينبئونهم باقلاع العرب عن بلبيس ، وقدومهم نحو الحصن ، فهاج الناس وماجوا ، واخذوا يطلون من المنافذ والمرامى ليشاهدوا العرب قادمين ، فقضوا ليلتهم ساهرين بعدتهم وسلاحهم ، والعرب لم يصلوا . وفى صباح الغد شاهدوا الغبار يتطاير من وراء المقطم ، فتحولوا الى شمالى الحصن يراقبون وصول العرب ، فلما كان الضحى تكاثر الغبار ، وبانت من ورائه الأعلام والفرسان والهجانة . ثم وصلت الساقة ، وعسكر الجميع فى البقعة التى بين الحصن والمقطم ، وكانت كلها بساتين وغياضا لا شيء من العمارة فيها الا بعض الاديار القائمة مبعثرة هنا وهناك ، فنصبوا خيامهم فيما هو الآن جامع عمرو وما يحيط به . فشاهدهم الروم يضربون خيامهم ، وينصبون اعلامهم ، وكان أركاديوس فى جملة الناظرين ، فتذكر أيام بلبيس وما كان من أسره هناك

أما المقوقس فتظاهر بالاهتمام والرغبة فى دفع العرب ، وذهب الى الاعيرج وكلمه فى شأن معدات الدفاع . وكان الاعيرج يكتم ما يعلمه عن المقوقس والعرب ، فأجاب : « اننا لا نلبث ان نعيدهم على اعقابهم ، وهم انما غرهم ما لاقوه من ضعف حامية بلبيس »

فقال المقوقس : « وانى لأعجب من فتحهم بلبيس وهم فى مثل هذا العدد

القليل ، فانك لو أشرفت على معسكرهم لرأيتهم شرذمة قليلة لا تلبث ان ترتد خاسرة اذا خرج جندنا اليها »

فقال الأعيرج مستهزئا بقول المقوقس الدال على الجهل بضروب الحرب : « ليس من الحزم أن نترك حصننا ونخرج اليهم طالما كانت المؤونة ملء مخازننا وطريقنا الى منف مفتوحة ، ولكننا نتركهم وشأنهم حتى يملوا الانتظار ، فاذا هاجموا الحصن رددناهم بالنبال والحجارة ، فان الحصن يمتنع على أضعاف أضعافهم لما تعلم من مناعته ، وبخاصة بعد حفر الخندق المحيط به ، فان هؤلاء العرب اذا هاجونا واحتملوا نبالنا منعهم الخندق من الوصول الى السور ، فاذا نزلوا الخندق انغرست أشواك الحديد في أقدامهم وهم حفاة . كل ذلك والنبال تتساقط عليهم من مرامى السور »

وقضوا ذلك اليوم فى مراقبة العدو ، والنظر الى ملابسهم وخيامهم واعلامهم عن بعد ، لأنها تخالف ما عند الروم

وكان أركاديوس قد راعه كل ذلك عن قرب ، فوقف الى جانب أبيه ، وأطلا على بعض المرامى ، واخذ اركاديوس يصف لوالده خيام العرب ، فدله على خيمة عمرو ، وحظيرة الجمال ، وخيام النساء والاولاد ، ومواقع الرايات . والأعيرج يعجب ويستغرب لاختلاف ما عندهم عما عند العرب ، فلما كان الأصيل رأى أركاديوس رجلا قادما عن بعد ومعه علم ابيض يتبعه رجلان آخران ، والكل مشاة ، فعلم من لباسه انه عربى ، فأدرك انه قادم لشأن من الشؤون فأنبأ والده ، فنادى الرسل من أعلى السور ، وأمر بالترجمان فجاء ، فلما دنا الثلاثة من الحصن تقدم أحدهم وخاطب الحامية بالقبطية ، بلغة دلت على انه ليس دخيلا فيها ، فأغناهم عمن يترجم كلامه . وكان مرقس فى جملة الوقوف على السور ، فعرف أن المتكلم زياد العربى صاحب يحيى النحوى ، ومعه وردان ورجل آخر لم يعرفه ، قالوا انهم جاءوا بكتاب من اميرهم الى المقوقس . ففتحوا باب الحصن وادخلوهم ، وقد تكأكأ الجند لرؤية لباسهم وهيئتهم ، أما هم فساروا بأقدام ثابتة كأنهم دخلوا الحصن فاتحين ، فرافقهم بعض الحراس حتى وصلوا الى غرفة المقوقس ، وكان جالسا بجانب الأعيرج ، وبجانبه ابنه ، وبجانب الأعيرج اركاديوس ، وبين ايديهم ارباب المجلس ، ومعظمهم من الروم ، فدخل وردان وقدم ملفا مكتوبا بالعربية ، فأمر المقوقس الترجمان ، فتلاه عليهم واذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمرو بن العاص أمير جند العرب القادم لفتح مصر الى المقوقس حاكم مصر . اما بعد فان الله قد كتب لنا النصر منذ دخلنا هذه الديار ، ففتحنا الفرما وبلبيس عنوة ، ولا بد لنا من فتح هذا الحصن ان عنوة وان صلحا ، ولا نبالى بمن يقتل منا فى سبيل فتحه ، فان أحدنا ينتظر ساعة الشهادة ليلقى وجه ربه ، وها انذا اعرض عليكم واحدة

من ثلاث : فاما أن تدخلوا فى ديننا فيكون لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، واما أن تؤدوا الجزية عن يد وانتم صاغرون ، واما السيف ، فاختاروا لأنفسكم
« كتبه عمرو بن العاص »

فلما اتم الترجمان تلاوة الكتاب تكدر الاعيرج ، واشتد به الغضب ، ونظر الى المقوقس كأنه يستشيره فى الجواب . فأمر باخراج الرسل والاحتفاظ بهم حتى يعودوا بالجواب . واخذ اهل المجلس يتفاوضون ، فأظهر المقوقس أن التسليم لا يليق بهم ، وهم لم يغلبوا على امرهم بعد ، فأقروا الرأى واجمعوا على أنهم يختارون السيف ، وكتبوا الجواب ومهره المقوقس باسمه ، لأنه الوالى الذى تصدر الرسائل عنه ، وأعطوه الى مرقس وكان بين يديه ، ليوصله الى رسل العرب ، وامرهم أن يشيعوا الرسل الى باب الحصن . فلما ذهبوا خاف المقوقس أن يظن عمرو فيه سوءا عندما يقرأ الكتاب ، وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، فذهب الى غرفته فخلا بابنه ، وبحثا الأمر ، فقال ارسطوليس : « ارى أن نبعث الى العرب نستمهلهم الفتح ، ونفهمهم اننا على عهدنا معهم » . فقال : « بأى لغة نكتب الكتاب ؟ ومن يوصله ؟ » . قال : « يوصله مرقس فانه يعرف العرب ، واما كتابته فتكون بالقبطية ، وترجمانهم يترجمه الى لسانهم »

فكتب ارسطوليس كتابا بالقبطية أبان فيه ان الكتاب الذى بعثه أبوه ردا على خطابهم انما كتبه ليموه به على من معه من الروم ، وليريهم انه يريد دفع العرب ، ولكن الحقيقة انه باق على عهده معهم ، ولا يلبث ان يسلم الحصن اليهم ويتفق معهم على شروط الصلح ، ولكنه استمهلهم قضاء ذلك حتى سنوح الفرصة

وجىء بمرقس الى المقوقس والليل قد ارخى سدوله ، فدفع اليه الكتاب ، واوصاه ان يحتفظ به ، وسأله : «كيف توصله الى معسكر العرب»

فقال مرقس : « اما الخروج الى العرب فلا يخلو من الخطر ، وهؤلاء الروم قد اساءوا الظن بنا ، فهم يراقبون خطواتنا مثل خطوات عدوهم ، فاذا اشتبهوا فى احدنا دققوا فى استطلاع حاله ، فكيف اذا رأونى سائرا ليلا نحو معسكر العرب ؟ فالرأى ان احتفظ بهذا الكتاب الى فرصة اذهب فيها الى منف لغرض ما ، ثم اتحول من هناك الى طريق آخر يؤدى الى معسكر العرب ، فلا يرانى احد ، فاستحسن المقوقس وارسطوليس رأى مرقس وابقيا الكتاب معه تلك الليلة ، فذهب الى مبيته فوق السور . وتذكر فى طريقه اركاديوس وارمانوسة ، وما لهما عليه من الفضل ، رأيقن ان مساعى

المقوقس هـذه تضر اركاديوس، وربما اذاقته حتفه اذا دخل العرب الحصن على غرة ، وان اركاديوس اذا أصيب بسوء عاد ذلك بالوبال على أرمانوسة ، وفى هذا ما يسىء والدها واخاها ، كما ان شرا يصيب أركاديوس يسىء والده !

فوقع فى حيرة من أمره ، فبينا حبه لأركاديوس ولأرمانوسة يدفعه الى اطلاع اركاديوس على الامر لينجو هو وخطيبته ، تراه يأنف من خيانة المقوقس وهو مولاه ويذهب مذهبه فى كره الروم ، ثم بدا له فى الصباح التالى ان خير السبل لبلوغ الغايتين فى آن واحد انما يكون فى ابعاد أركاديوس عن الحصن عندما يقتحمه العرب ، ولا سبيل لابعاده الا اذا جاء عن يد أرمانوسة لدالة الحب بينهما . واما ان يترك أركاديوس الحصن فرارا من العرب فهذا مستحيل لما هو عليه من الشجاعة والنخوة

فلما وضح له الراى زال قلقه وسكن روعه ، وذهب توا الى مولاه المقوقس ، فاذا هو فى مجلس مع الاعيرج وابنه وجميع كبار القواد يتفاوضون ، فانتظره حتى خرج ، فأومأ المقوقس اليه ان يتبعه ، فتبعه حتى وصل الى غرفته فقال له : « لقد قررنا فى جلستنا هـذه ان نبقى متاهبين لا نفاجىء العرب بحرب ، فربما طال حصارهم وقد نحتاج الى مؤونة ، ولذلك راينا ان نبعث فريقا منا الى منف ، فتطمئن ارمانوسة علينا ، فاذا ذهب الناس بأحمالهم فاسلك انت طريقا آخر الى معسكر العرب وادفع الكتاب الى أميرهم » . فقال مرقس : « حسنا يا سيدى ، وهل ترى يوم نجاتنا من هؤلاء الروم قريبا ؟ » . وقد أراد مرقس ان يستطلعَ راى سيده ليكون على بصيرة من ساعة الخطر ، فيسعى فى انقاذ اركاديوس . فقال المقوقس : « ان يوم النجاة قريب ، قد يكون بعد بضعة أشهر ، ولا يخفى عليك يا ولدى ان استسلامنا للعرب ، أو تسهيل الفتح عليهم ، يجب أن يبقى سرا ، فاذا استعجلنا الامر ظهر تواطؤنا على الروم واننا نحن الذين ساعدناهم ، أما اذا طال الحصار فان الشبهة ترتفع عنا بعض الشىء ، فاحذر أن يطلع احد على شىء مما ذكرته لك »

فخرج مرقس وفعل ما أوصاه به المقوقس ، واطمأن على أركاديوس ، فسار مع من ساروا الى منف ، فلقى خطيبته ووالديها ، ففرحوا لرؤيته أيما فرح ، واستطلعوه الخبر فطمأنهم وبشرهم بالفرج القريب ، ومكث عندهم برهة يتمتع بحديث مارية ورؤيتها ، وهى لا تدرى أتبكى ام تفرح وقد تعاقبت الحوادث من كل جانب

ثم لقى بربارة فذهب معها الى ارمانوسة فلما رأته استبشرت ، لعلمها بأنه مطلع على اسرار قلبها ، عالم بما بينها وبين اركاديوس ، وبأحوال والدها وشقيقها فى الحصن ، فاستطلعته الخبر فقال : « ان العرب نزلوا خارج الحصن،

وقد كتبوا الينا ان نسلم ، فأجبناهم بأننا مصرون على الدفاع الى آخر نسمة من حياتنا »

فضحكت بربارة وقالت : « دعنا من المزاح وقل الحقيقة . فقد علمنا ان مولانا المقوقس اخذ عهدا على أمير العرب ؟ أفلا يزالان على العهد ؟ »

قال : « نعم يا سيدتى ، انهما باقيان على العهد ، وهذا كتاب من سيدى المقوقس الى الأمير عمرو بهذا الشأن » . ومد يده واخرج الكتاب ودفعه ا ارمانوسة ، فقرأته ، فلما جاءت على آخره شعرت بانقباض ، ول صمتت برهة ثم قالت : « وماذا تكون عاقبة هـذا التواطؤ على اركاديوس ؟ الا تظنه يصبح فى خطر ، وهو شجاع اذا لقى الموت لا يفر منه ؟ فما هذا يا مرقس ؟ ان العاقبة وخيمة علينا جميعا على ما أرى »

فابتسم وقال : « طيبى نفسا يا سيدتى ، فقد قضيت يوما كاملا أفكر كيف أنقذ سيدى أركاديوس من الخطر ، فبدت لى حيلة اذا اطلعتك عليها استصوبتها لا محالة »

قالت : « وما هى ؟ »

فاطلعها على ما دبر ، فقالت : « بورك فيك ، هذا هو الرأى الصواب واحذر أن تبطىء فى اخباره ، وانى أترك لك ملء الحرية فى دعوتك اياه الى عن قولى ، وقد ألقيت الحمل عليك ، ولك بعد ذلك الاجر من الله ومنى »

فجثا مرقس امامها وقال : « انى عبـدك وخادمك ، واذا سفكت دمى فى خدمتك لا أفى جزءا من فضلك » . فأنهضته وقالت : « بورك فيك من شهم غيور » . فقبل يدها وقال : « ارجو ان تأمرى باعداد قارب اركبه هـذا المساء ، وانزل منه بعيدا عن الحصن ، حتى اصل الى قبالة معسكر العرب ، فأصعد اليهم وابلغهم الرسالة » . فأمرت بربارة بذلك . اما هو فذهب الى بيت خطيبته وقضى بقية ذلك اليوم

فتح الحصن

بقى الحصن محاصرا والعرب معسكرون حوله سبعة اشهر ، جاءهم فى اثنائها مدد من الخليفة عمر بن الخطاب مؤلف من اربعة آلاف رجل ، فصارت قوة العرب ثمانية آلاف ، وفيهم جماعة من نخبة قواد الاسلام

وقد مضت الاشهر السبعة واركاديوس على مثل الجمر تشوقا لأرمانوسة ، لأن الاتصال كاد ان يكون منقطعا بينهما ، فمل الاصطبار ، وتاقت نفسه الى لقياها ، وطارت روحه شعاعا الى مقرها

ففى ليلة من ليالى الشهر السابع كان اركاديوس فى حجرته ، وقد أعد فراشه التماسا للرقاد ، لعله يرى طيف حبيبته فى منامه ، وتوسد الفراش ، ولم يكد يفعل حتى جاءه أحد الحرس ينبئه بمجيء مرقس ، فاختلج قلبه فى صدره ، توقعا لأن يكون قادما برسالة من أرمانوسة ، فأذن له ، فدخل وسلم ، فقال له : « ماوراءك يا مرقس ؟ » . فقال : « ما ورائى الا الخير » . قال : « قل » . . فدفع اليه رقا ففضه ، فاذا هو من ارمانوسة تقول فيه :

« من أرمانوسة الى حبيبها اركاديوس . . أما بعد فاذا كانت ارمانوسة لا تزال تخطر فى خاطرك ، أو ما برحت حياتها تهمك ، فأسرع اليها بمنف عند وصول هذا اليك ، والسلام »

فلم يكد يتلو الكتاب حتى تغير لونه ، وانقبضت نفسه خوفا على ارمانوسة ، وقال لمرقس : « هل جئت بهذا الكتاب منها ، أم هى أرسلته اليك مع رسول ؟ » . قال : « بل أرسلته مع رسول دفعه الى وكر راجعا »

فقال : « انها تدعونى فيه لأذهب على جناح السرعة ، ولكنها لم تذكر سبب هذه الدعوة »

قال : « خيرا ان شاء الله ، فهل ازمعت الذهاب ؟ »

قال : « لابد من ذلك ، ولكن كيف أترك الحصن ونحن محصورون ، والعرب محدقون بنا من كل جانب ؟ »

قال : « تذهب متنكرا ، فتقضى بضع ساعات عندها ثم تعود ولا يعلم بك أحد »

قال : « نذهب اذن بعد نصف الليل متنكرين كأننا من جواسيس اركاديوس ، فاذا ظنوا بنا سوءا قلنا لهم شعار الجند المتفق عليه الليلة ، فهل تذكره ؟ »

قال : « نعم ، ان الشعار الليلة لفظ (هرقل) » . فاتفقا على ساعة من الليل يجتمعان بها فى ناحية من الحصن ، ثم التقيا وجاءا الى الباب بلباس جند المقوقس ، فحاولا فتحه فنهض الحراس ومنعوهما من الخروج ، فذكرا شعار الليل ، فاطلقوا سراحهما فخرجا . وكان مرقس قد أعد قاربا عند الضفة فركباه ، وأوصى النوتية ان يسرعوا ما استطاعوا ليصلوا الى منف عند الضحى ، فسار القارب والكل سكوت ، وأركاديوس يستحث النوتية ، ويحسب لخروجه هذا الف حساب خوفا من غضب ابيه ، حتى وصل الى منف ، واطل على قصورها ، فكان اول ما شاهده قصر ارمانوسة ، لأنه أعلاها كلها ، ولم يكن قد دخله من قبل ، فأخذ يستعد لمقابلة حبيبته بعد طول الغيبة

اما هى فكانت تتوقع قدومه ، وقد ارسلت بعض الخدم مع بربارة لاستقباله خوفا من انكشاف الامر ، ولبثت هى فى الحديقة تنتظر قدومه وقلبها يخفق وركبتاها ترتعشان . وكلما آنست صوتا أو رأت شبحا ظنته اركاديوس ، فأخذت تتمشى فى طرقات الحديقة تتلهى بمشاهدة الازهار وتقف طورا عند اقفاص الحيوان تتشاغل بمراقبة حركاتها ، حتى سمعت وقع اقدام ثم دخل اثنان بلباس جند القبط ومعهما بربارة ، فعرفت انهما اركاديوس ومرقس ، فتقدمت اليهما ، فأشارت بربارة اليهم جميعا أن يصعدوا الى القصر ، فصعدوا . ثم استأذن مرقس وسار الى خطيبته ، ودخل اركاديوس وأرمانوسة غرفتهما ، وبربارة معهما . ولم يصدقا أنهما مجتمعان حتى سلما وتصافحا ، فقبض اركاديوس على يدها فأحس بكهربية ارتعش منها جسمه ، ونسى الحصن وأهله والعرب والروم ، ولكنه ما برح فى قلق لمعرفة سبب استقدامها اياه على هذه الصورة ، فوقفا برهة لا يتكلمان ، ولحظ اركاديوس فى وجه ارمانوسة نحولا وذبولا فانفطر قلبه . وكانت بربارة قد أعدت لهما مائدة عليها انواع الاطعمة والاشربة ، فلما جلسا قالت ارمانوسة : « مرحبا بالقادم بعد طول الغياب ، قد كنا نحسب الحصار على الجند فى الحصن فقط ، فاذا هو حصار علينا ايضا »

فقال : « لا تبدئنى بالعتاب قبل أن تخبرينى عن سبب استقدامك اياى بعبارة مبهمة شغلت بالى واكثرت عندى الظنون »

قالت : « ما دعوتك الا لأراك ، فقد قضيت سبعة أشهر منذ ودعتك المرة الاخيرة ، وانت تنظر الى من نافذة الحصن ، وانا لا يرتاح لى بال ولا اذوق رقادا حتى صرت الى ما تراه من الضعف ، وخشيت أن يكون ذلك الوداع آخر عهدنا باللقاء ، لاسيما اننا فى حال توجب الاضطراب والخوف . الا تزال على عزمك تخوض معامع القتال غير مبال بما يقاسيه هذا القلب ؟ »

قال : « انما أحب الحرب يا ارمانوسة من اجلك لأدافع عنك ، واستقبل السيوف والنبال تعزيزا لمقام خطيبك عندك »

فقطعت عليه الكلام قائلة : « ان كنت تحبني وتبغي رضاي فاقلع عن القتال ، ودع الحصون ، وابق الى جانبي ، فاني لا استطيع صبرا على بعدك »

فتنهدو قال لها : « نعم اني احبك ، وأنت تعلمين ذلك، ولكنني أحب شرفي، واحب وطني ايضا ، اتريدين مني ان نترك حصوننا غنيمة لهؤلاء العرب القادمين الينا من اقصى بادية الحجاز ، ونحن الروم أرباب المجد والسطوة ، وقد رفعت أعلامنا على هام الامم ، ودانت لنا الملوك والقياصرة ؟ انفر امام نفر من البدو رعاة الابل ؟ أترضين لي ذلك ؟ » . وكان يكلمها والعرق يتصبب من جبينه لعظم تأثره

قالت : « كلا ، فما قصدت الى الحط من مقامك ، فاني أفاخر الناس ببطولتك وبسالتك ، ولكنني اعتزمت الا افترق عنك بعد اليوم ابدا ، وهذا هو سبب استقدامي اياك »

فنهض مذعورا وقال : « أصحيح ما تقولين يا أرمانوسة ؟ هل تريدين لي هذه الخيانة ؟ الا تخجلين اذا ذكر أركاديوس أن يقال انه جبان يفر من الحرب؟ لا اظنك ترضين بذلك »

قالت : « قلت لك اني لا ارضى لك حطة، ولكنني لا ارضى ان تعرض نفسك لحرب لا امل لكم بالفوز فيها »

فعجب لقولها هذا وقال لها : « وما ادراك ؟ أتحسبين جند هذا الحصن كجند بلبيس والفرما ؟ اما الفرما فلم يكن فيها أحد من الروم على ما اعلم ، ام انت تستخفين بي ؟ »

قالت : « رايت فيما يرى النائم ان الحصن اخذ ، وخفت أن يصيبك شر ، فاستقدمتك الي على الا يفرق بيننا الا الموت ، فاذا سرت سرت معك ، او قعدت قعدنا معا . . هذا قولي والسلام »

فتلطف بالجواب تخفيفا لما ثار في قلبه ، وقال : « تعقلي ياحبيبتي ، فقد صبرت اشهرا فاصبري اياما ، وسترين العاقبة كيف تكون ، ولو تركني ابي افعل ما اريد لخرجت الي جند العرب المعسكر حول الحصن بشرذمة من رجالي فقط ، وبددتهم أيدي سبا ، ولكنني اعمل برأيه مكرها . اما اذا نشبت الحرب واحتدم الوطيس فالفوز لنا لاريب فيه باذن الله »

فتبسمت ثم قالت : « وهب انكم حاربتم العرب في هذا الحصن ثم خرجتم منه الى غيره فانك تحاصر في ذاك ايضا . ثم تذهب الى حصن آخر، وهكذا ، وتترك ارمانوسة في زوايا النسيان لاتنام الليل خوفا عليك . ايرضيك هذا ؟ »

قال : « حاش لي ان انسى ارمانوسة ، أو أغفل عن راحتها ، واعدك وعدا شافيا ان واقعة هذا الحصن ستكون الحد الفاصل ، فاذا بقيت بعدها لم افارقك أبدا »

قالت : « اتقسم لتفعلن هذا ؟ » . فاقسم بشرفه وبمحبتها انه اذا انه غى امر هذا الحصن سواء لهم ام عليهم فلن يعود الى حرب او الى فراق

وطال بهما الحديث حتى صارت الشمس فى الاصـيل ، فقال اركاديوس : « اراني قد نسيت واجبى ، فتركت معقلى وجندى على حين غفلة ، وجئت وقد طال بى المقام . هلا اذنت لى بالذهاب ، وموعدنا قريب ان شاء الله »

فامسكته تريد اقناعه بالبقاء قليلا وهو يعتذر ، واذا ببعض الخدم داخـل وعلى وجهه أمارة البغتة

فقالت بربارة : « ما الخبر ؟ » . فقال : « رايت سفنا قادمةمن جهة الحصن » . فاطلت ارمانوسة من شرفة القصر ، واطل اركاديوس ، فلذا السفن سفنهم ، وفيها بعض رجالهم ، فاختلج قلبه فى صـدره ، وما لبث أن جاء قارب عليه بضعة من رجال المقوقس

فاستقدمتهم بربارة الى القصر ، فصعدوا وهم يتأففون ، وعلى وجوههم ملامح البغتة والخوف . فتقدمت أرمانوسة وكلمتهم واركاديوس منزو يسمع فقالت لهم : « ماوراءكم ؟ » . فتقدم أحدهم وقال : « ان المقوقس بعثنا اليك لتكونى على اهبة السفر اذا اقتضت الحال »

فوقف اركاديوس مذهولا ، ولـكنه لم يتكلم . فقالت ارمانوسـة : « وما الداعى لهذا التأهب ؟ » . قال : « لان العرب دخلوا الحصن فى هـذا الصباح على حين‌غفلة ، وخرج سيدى المقوقس ومن بقى من الجند الى‌جزيرة الروضة على الجسر الذى كانوا قد نزعوه ، فاعادوه ومروا عليـه ، ونحن نتـوقع أن يتعقبهم العرب ويضطروهم الى المجىء الى هنا »

فلما سمع اركاديوس بسقوط الحصن ترقرقت الدموع فى عينيه ، فتوارى وراء حائط الشرفة لئلا يلحظ احد منه ذلك ، وجعل يحرق أسنانه ويتأوه . اما ارمانوسـة فراته بهذه الحال ، ولم يكن سـقوط الحصن شيئا غير متوقع عندها ، ولكنها تظاهرت بالاستغراب امام اركاديوس لكى تنطلى الحيلة عليه. فلما راته على هـذه الحال تركت الجنـدى يتكلم مع بربارة ، ودنت منه على الشرفة بحيث لايراها احد ، وامسكت بيده فاذا بدموعه تتساقط على خديه وهو لايبدى حراكا ، فقالت له : « الركاديوس يبكى ؟ لقد صدق القائل : (لا تذكر الحزن الا اذا رايت دموع الابطال !) . مالك ياحبيبى؟ » . فلم يجب لان العبرات خنقته ، فقالت : « ما بالك لا تجيب ؟ » . فحرق أسـنانه وتنهد ، وهو يتميز غيظا ، ولم يجب . فامسكت بيده فاذا هى باردة ترتجف ، واراد جذبها منها فضغطت عليها وقالت : « لماذا لا تجيب يا اركاديوس ؟ »

فالتفت اليها والدمع ملء عينيه وقال : « كيف لا ابكى يا ارمانوسـة وقد خرج الحصن من ايدينا ، وانا محبوس هنا لا استطيع حراكا ؟ ومن الغريب ان هؤلاء الرعاة لم يفعلوا ما فعلوه الا واركاديوس بعيـــــد عنهم . ولكن آه

يا ارمانوسة .. آه من الحب ! ما اعظم سلطانه ! ان الحب وحده كان سبب سقوط هذا الحصن ، فقد كان فى وسعى ملافاة الشر قبل وقوعه ، ولكن حبى أرمانوسة حملنى على التجاهل . فالعرب لم يغلبونا ، ولكنها خيانة أنا شريك فيها على غير قصد ، والحب يعمى ويصم .. آه منه ! »

فأدركت ارمانوسة مراده ، فعمدت الى مغالطته لئلا يزداد غضبه فقالت : « اجلس يا حبيبى ريثما نسأل هذا الرسول عن كيفية سقوط الحصن لعلنا نكشف امرا جديدا »

قال : « وماذا عسى ان تكشفى ؟ فقد كشفت الحقيقة ، وعرفت سر الامر . فهل استطيع بعد هذا كله ان أواجه ابى وأنا لا أدرى ما يكون ظنه فى ، الا يعدنى شريكا فى الخيانة ؟ » . قال ذلك وهو يحاذر ان يسمعه الرسول أو يعلم به ، وقد شاقه ان يعرف كيف سقط الحصن ، فقال لأرمانوسة : « اسأليه عن الحصن كيف سقط ؟ »

فعادت الى الجندى ، وكان فى انتظارها مع بربارة ، فقالت : « احك لناكيف دخل العرب الحصن ؟ » . فقال : « لا نعلم كيف دخلوه ، ولكننا أصبحنا فاذا هم يتسلقون الاسوار ، وكان سيدى المقوقس قد امرنا بالخروج الى جزيرة الروضة فعبرنا على الجسر واقمنا هناك »

فقالت : « ألم تدفعوا العرب عند دخولهم ؟ » . قال : « فعلنا ، ولكن جند الروم دافعوا قليلا ، ولم يترك العرب لنا فرصة للدفاع »

فقالت : « هل جاء ابى الى جزيرة الروضة ؟ »

قال : « نعم يا سيدتى ، ومعه رجال حكومته وسائر جنده »

فقالت : « وماذا جرى للاعيرج ورجاله ؟ »

قال : « اظنهم ساروا الى الاسكندرية ليتحصنوا فيها »

فقالت : « اذهب وحده أم سارت معه حاشيته ؟ »

قال : « اظنهم ساروا جميعا على غير نظام ، لأنهم انما خرجوا من الحصن فارين ، ولكننى لم أر ابنه اركاديوس معهم ، ولم اره ابدا . والناس يتحدثون بشأنه ، ويزعمون انه قتل أو فر قبل دخول العرب الحصن »

فقالت وهى تصرفه : « سنتاهب للرحيل طوعا لأمر ابى » . ودعت بربارة وقالت : « يجب أن نتاهب ، ولكننى فى قلق على أبى . فلنرسل اليه من يأتينا بتفصيل الواقعة ، فقد لايكون هناك داع للسفر »

أجابت بربارة : « ليس لهذه المهمة اليق من مرقس ، وهو الآن عند خطيبته » فبعثوا اليه فجاء مسرعا . ولما اخبرته بربارة خبر الحصن لم يستغرب ، لأنه كان على بينة من قرب سقوطه ، فقالت له : « أين مارية ؟ » . قال : « فى البيت مع ابويها » . قالت : « فلياتوا الينا جميعا ، وليقيموا فى القصر ، وام

انت فاذا رايت ثم حاجة الى فرارنا فعد الينا مسرعا »

قال : « سمعا وطاعة » ، وخرج فجاء بخطيبته ووالديها ، وودعهم جميعا ، وسأل عن اركاديوس فدلوه على مكانه ، فذهب اليه وقبل يده ، فاذا بأثر الدمع يبدو في عينه ، وامارات اليأس ظاهرة على وجهه . فتناثرت الدموع من عيني مرقس ، ووقف أمام أركاديوس وقال : « ما بال سيدى يبكى وهو البطل المجرب الذى لا تهزه الحوادث ؟ فهل يبكيك الفشل مرة ، وانت تعلم ان الحرب سجال ، وامد الحرب لا يزال طويلا ؟ »

فتنهد اركاديوس وقال : « دعنى يا مرقس ، ان كلامك هذا لايعزينى ، فما أنا ممن ييأسون من النصر ، والانكسار فى الحرب لايوجب يأسا ، لأن القتال سجال كما قلت ، ولكننى حزين لأنى تعاميت عن حقائق كنت اراها رأى العين ، واحسب انني لم ارها ، وأكذب نفسى ، لا لجهل اوسذاجة ، بل لغشاء غطى عيني واعمى بصيرتى ، وشاغل شغلنى عن أبى ووطنى ، ألا وهو الحب. واظنك خبرت شيئا منه وعرفت سلطانه . ولولا تلك الغشاوة لاستطعت إنقاذ الحصن ومن فيه ، وارجاع هؤلاء العرب على اعقابهم الى مراعى ابلهم وماشيتهم ، انما لقد سبق السيف العذل ، فأنا شريك فى الخيانة ، وعون على تسليم الحصن للعرب ، أفلا يحق ان ابكى واندب سوء حظى ، ألا أرثى حياتى ، وقد أضعت رشدى ، واصبحت آلة لا ارادة لها ؟ ارى اللص ينقب بيتى فأتغافل عنه ، فاذا أتم النقب تركت البيت له يفعل به ما يشاء ! » .

فأدرك مرقس ان اركاديوس لم يكن غافلا عن تواطؤ المقوقس مع العرب ، فتجاهل وقال : « انى لا أرى أن سيدى اركاديوس قد أتى أمرا يلام عليه ، فانك عمدة جند الروم وخير ابطالهم ، ولم تخرج من الحصن فارا ، والعناية قدرت لك النجاة من عار الفرار ، ولو أراد الله سلامة الحصن ما خرجت انت منه ولا دخله العرب ، ولكنها مشيئته ، فخفف عنك ، وها انذا ذاهب للبحث عن تفصيل الواقعة ، وسأعود اليكم بالخبر اليقين » . وودعه وخرج ، فناداه أركاديوس فعاد فقال له : « تفهم جيدا ، وأخبرنى ما عدد الجند ، وقل للمقوقس ان علينا أن نعيد الكرة على هؤلاء العرب من الجزيرة ، فان آنست منه قبولا فأخبرنى ، فانى لأبلون فيهم بلاء حسنا ، ولا اقعد حتى أعيدهم على اعقابهم او أقتل ، ولا تنس أن تبحث عن أبى أين هو الآن ، واحذر أن يعلم أحد انى هنا » . قال : « سمعا وطاعة »

عقد الصلح

ساء ارمانوسة كثيرا كدر اركاديوس ، ولكن سرها نجاح حيلتها ، ولم تكن تخشى بأس العرب لعلمها ان اباها ضالع معهم ، فانصرف همها الى تخفيف وقع المصيبة على اركاديوس وحمله على التسليم بما حدث . فلما ذهب مرقس أمرت بطعام فاعد لهم ، والشمس قد مالت الى المغيب ، فجلسوا الى المائدة واركاديوس يحسب انه فى حلم ، ولا يكاد يصدق خبر سقوط الحصن وفرار حاميته ، فقال لارمانوسة : « اراني فى حلم ، ولا استطيع تصديق الخبر ... أيدخل هؤلاء العرب الحفاة العراة حصوننا ونحن جنود الروم لنا العدة والسلاح وهم شرذمة قليلة ، انها لخيانة او لعله سحر او لعله غضب من الله » . فقالت ارمانوسة : « لعله الاخير » ، وتبسمت تريد مداعبته ، فاستمر قائلا : « ولنفرض انهم أخذوا الحصن ، فلسوف يخرجون قهرا فانه سهل علينا ان نحصرهم فيه ، ونقطع عنهم المؤونة برا وبحرا حتى يسلموا او يهلكوا جوعا ، اذ لا سبيل لهم الى المؤونة لان بينهم وبين بلادهم شقة بعيدة وجنودنا تملأ القطر »

فقالت أرمانوسة : « سوف نرى » . وقد آلت ألا تدعه يبتعد عنها مهما يحدث ، وبعد ان تناولا شيئا قليلا من الطعام نهض الجميع وذهب كل واحد الى حجرة نومه ، فلما اصبحوا وجدوا اهل منف فى قلق يتأهبون للفرار . وأما ارمانوسة فلبثت يومها تنتظر عودة مرقس ، فقضوا نهارهم فى الانتظار والقلق وكان اركاديوس قد خف يأسه ، وعادت اليه آماله فى استرجاع الحصن ، وفى اليوم الثالث ، اطلوا من شرفة القصر فراوا قارب مرقس فعرفوه ؛ فدنا وصعد اليهم وجلس يقص عليهم رحلته ، وكلهم آذان واعين ، وليس فى الغرفة الا هو وارمانوسة واركاديوس وبربارة ، وهذا ما حكاه :

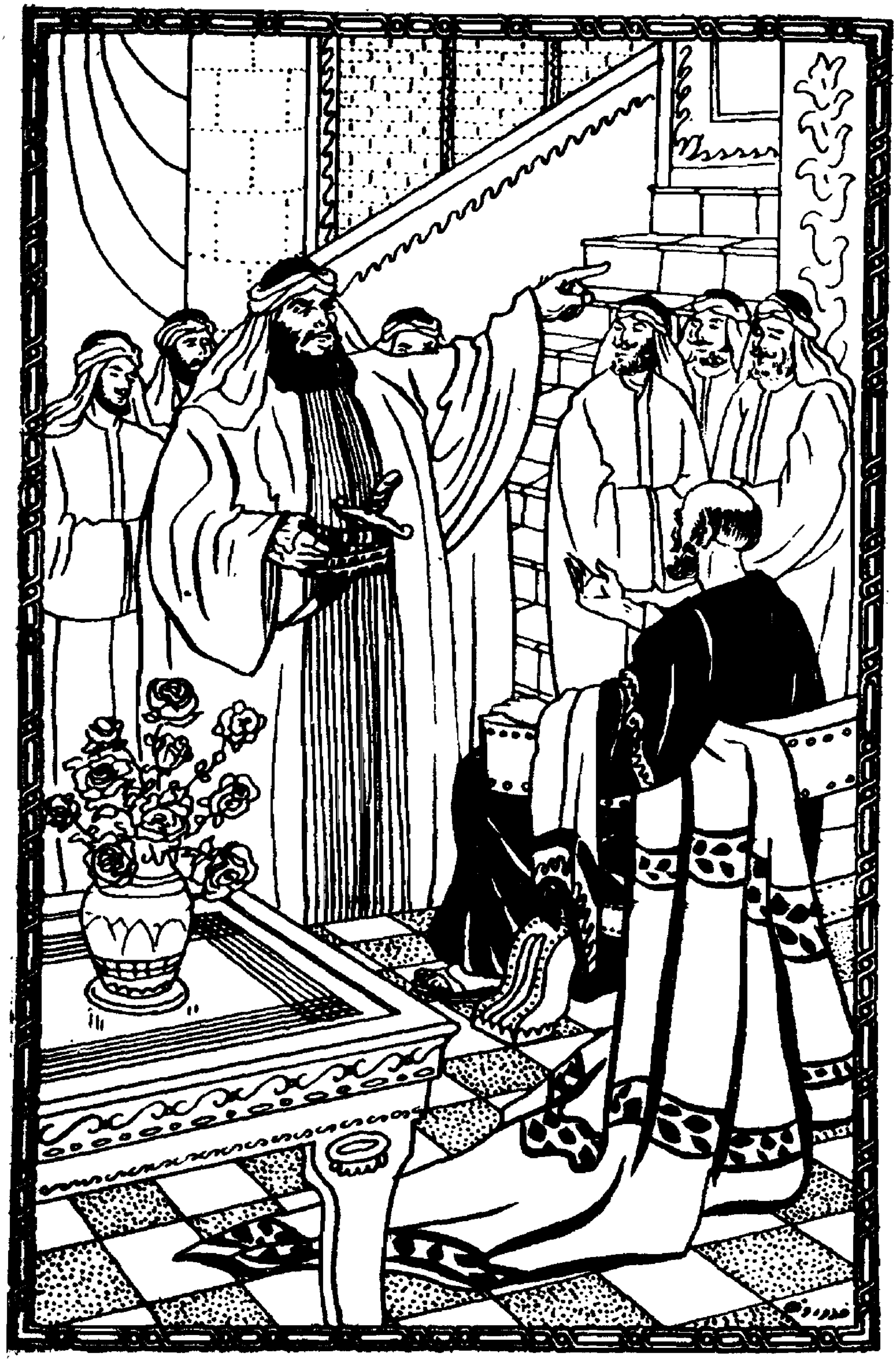
وصلت الى الجزيرة مساء أمس الاول فوجدت جندنا معسكرا فيها ، فذهبت الى سيدى المقوقس فقبلت يده ويد سيدى أرسطوليس وطمأنتهما على سيدتى ارمانوسة ، وقضينا الليل فى حديث الحصن ، فعلمت انه اخذ مفاجأة وان العرب مقيمون به الآن ، واما جند الروم فساروا الى الاسكندرية ، وفيهم مولاى الأعيرج . وقد فهمت من حديث سيدى المقوقس ان الناس فى ريب من امر سيدى اركاديوس ، فمن قائل انه قتل قبل فتح الحصن

وقائل انه فر بعد الفتح ، وظن بعضهم أنه قتل وضاعت جثته ـ حرسه الله ـ وعلمت ايضـا ان سـيدى المقوقس بعث الى امير العرب يعرض عليه صلحا على امر فيه خير للفريقين ، وأرسل اليهم قاربا يركبه وفدهم الينا ، فبتنا ليلتنا واصبحنا ننتظر مجىء الوفد ، فلما كان الضحى جاءنا نبأ بأنهم وصلوا الى الجزيرة ، فبعث سيدى وفدا استقبلهم عندالشاطىء وجاءوا بهم اليه ، وكان فى مجلسـه ، وانا بين يديه ، فما لبثنا ان رأينـا الوفد قادمين ، وكانوا عشرة من البدو ، وقد رايت أزياءهم فى بلبيس ، وتقدم واحد منهم لم ار افظع منه منظرا ، اسود فارع الطول ، ضخم الجثـة ، قالوا انه زعيمهم وخطيبهم ، واسمه عبادة بن الصامت ، وقد رأيت منه جرأة لم اعهدها فى احد من الناس حتى اليوم ، ولحظت ان سيدى واهل مجلسه هابوا منظره ، وكأنى سمعت سـيدى يطلب منهم ان يستبدلوا به غيره فقالوا : « هو كبيرنا المقدم فينا » . فقال له سيدى والترجمان ينقل كلامه : «تقدم يا اسود وكلمنى برفق ، فانى اهاب سوادك» . فتقدم وقال : «فهمت قولك ، وان فيمن خلفت من أصحابى الف رجل اسود كلهم أشد سوادا وأفظع منظرا ، واشد هيبة منى ، وقد وليت وأدبر شبابى ، ولكنى بحمد الله لا اهاب مائة رجل ، وذلك لرغبتنا فى الجهـاد واتبـاع رضوانه ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى الدنيا ، ولا زيادة فيها ، الا أن الله عز وجل قد احل لنا ذلك ، وجعل ما غنمنا منه حلالا ، وما يبالى احدنا ان كان له قنطار ذهب أو درهم واحد لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها ليسد بها جوعه ليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فان كان لا يملك الا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب انفقه فى سبيل الله ، واقتصر على هذا الذى فى يده ، لأن نعيم الدنيا ليس نعيما ، ورخاءها ليس رخاء ، انما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمر به نبينا ، وعهد الينا الا تكون همـة احدنا من الدنيـا الا ما يمسك به جوعه ويستر به عورته ، وان تكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه »

فلما سمع سيدى هذا الكلام قال لنا بالقبطية : « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ، لقد هبت منظره ، وان قوله لأهيب . ان الله اخرج هذا وأصحابه لخراب الارض ، وما اظنهم الا الغالبين» . ثم التفت الى عبادة وقال له : « أيها الرجل الصالح قد سمعت قولك وما ذكرت عنك وعن اصحابك. ولعمرى انكم لم تبلغوا ما بلغتم الا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليهم الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه منا لقتالكم جمع من الروم لا يحصى عددهم ، عرفوا بالنجدة والشدة ، ما يبالى احدهم من لقى ولا من قاتل ، وانا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، وقد اقمتم بين اظهرنا اشهرا وانتم فى ضيق وشدة ومسغبة ، وها نحن أولاء نعرض عليكم الصلح على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة

دينار، ولخليفتكم الف دينار، تاخذونها وتنقلبون الي دياركم قبل أن يغشاكم مالا طاقة لكم به » . فأجابه عبادة : « لا تغرن نفسك ولا أصحابك ، اما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وانا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما هذا مما يخيفنا ، ولا الذى يثنينا عما نحن فيه ، وان كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم ، واشد لحرصنا عليه ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه وقد قتلنا عن آخرنا ، فهذا أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما شيء اقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك ، واننا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين ، فاما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ، وانها لأحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا ، وان الله عز وجل قال فى كتابه : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين) . وما منا الا من يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، والا يرده الى بلاده ولا الى أرضه ولا الى اهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده ، وانما همنا ما امامنا . واما قولك اننا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن فى اوسع السعة ، ولو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا اكثر مما نحن عليه ، فانظر الذى تريده فبينه ، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ونجيبك اليها الا خصلة من ثلاث خصال ، فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك بالباطل . بذلك امرنى الامير ، وبه امر أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله من قبل الينا ، اما ان أجبتم الى الاسلام دين الله القيم الذى لا يقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته والذى أمرنا الله ان نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه ، فان فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان اخانا فى دين الله ، اما ان اجبت الى هذا وقبلته انت واصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة ، ورجعنا عن قتالكم ، ولم نستحل اذاكم ولا التعرض لكم . وان ابيتم فادوا الينا الجزية عن يد وانتم صاغرون ، على أن نعاملكم على شيء نرضى به نحن وانتم فى كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم فى شيء من أرضكم ودمائكم واموالكم ، ونقوم بذلك عنكم ان كنتم فى ذمتنا وكان لكم به عهد علينا . وان ابيتم فليس بيننا وبينكم الا السيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذى ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره ، فانظروا لأنفسكم »

فعجبنا لجرأته وقوة جأشه ، فأجابه سيدى : « هذا ما لا يكون أبدا . ما تريدون الا ان تتخذونا عبيدا ما كانت الدنيا » . فقال عبادة : « هو ذاك ، فاختر لنفسك ما شئت » . فقال سيدى : « افلا تجيبوننا الى غير هذه الخصال الثلاث ؟ » . فرفع عبادة يده الى السماء حتى كادت تدرك سقف الغرفة لطولها وقال : « ورب هذه السماء ، ورب هذه الارض ، ورب كل



« وتقدم عبادة بن الصامت إلى المقوقس على رأس الوفد العربي فقال له : تقدم يا أسود »

شيء ، مالكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروا لأنفسكم »

فالتفت سيدى اذ ذاك الى أرباب مجلسه وقال : « قد فرغ القوم ، فما ترون ؟ » . فقالوا : « أيرضى أحد بهذا الذل ؟ أما ما ارادوا من دخولنا فى دينهم فهذا لايكون ابدا أن نترك دين المسيح بن مريم وندخل فى دين لانعرفه. واما أن يسبونا ويجعلونا عبيدا فالموت أيسر من ذلك . فلو رضوا ان نضاعف لهم ما اعطينا مرارا كان اهون علينا » . فقال سيدى لعبادة : « ابى القوم فما ترى ؟ فراجع أصحابك على أن نعطيهم فى مدتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون »

فقال عبادة وأصحابه : « لا » . فقال سيدى لأرباب مجلسه : « اطيعونى واجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث ، فوالله مالكم بهم طاقة ، ولئن لم نجبهم اليها طائعين لنجيبنهم الى ما هو اعظم كارهين »

فقالوا : « واى خصلة نجيبهم اليها ؟ » . قال : « أما دخولكم فى غير دينكم فلا يسلم أحدكم به ، واما قتالهم فانا اسلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ، ولا بد من الثالثة » . قالوا : « فنكون لهم عبيدا أبدا ؟ » قال : « نعم ، تكونون عبيدا مسلطين فى بلادكم ، آمنين على انفسكم واموالكم وذراريكم ، فاطيعونى قبل أن تندموا » . فرضوا بالجزية على صلح يكون بينهم يعرفونه . فقال سيدى للأسود : « قل للأمير أن يجتمع بنا لنكتب عهد الصلح »

ثم خرج الوفد واهل الجزيرة يشيعونهم بانظارهم ، وقد بهروا لما شاهدوا من جراتهم ، ولبثنا ننتظر مجيء أميرهم عمرو ، فلما كان اصيل امس علمنا بمجيئه ، فخرج سيدى لمقابلته على الضفة ، ولا ازيدكم علما على ما تعلمونه من هيبة عمرو بن العاص ، فقد رأيتموه فى بلبيس . فلما التقيا تصافحا ودخل الجميع القاعة ، فصارت تمج عجيجا لاختلاط القبط بالعرب ، لأول مرة ، ولم يأت المساء حتى كتبوا الصلح بينهما فى اللغتين ، وامضاها الفريقان ، وقد تمكنت من استنساخها وهذا هو ذا نصها :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ودمهم واموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم ، لا يزيد شيء فى ذلك ولا ينقص ، ولا يساكنهم النوبة . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية ، اذا اجتمعوا على هذا الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم ، خمسين ألف ألف ، وعليه ممن جنى نصرتهم ، فان أبى احد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم ، وذمتنا ممن ابى بريئة ، وان نقص نهرهم عن غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن ابى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا ، وعليهم ما عليهم اثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ماعليهم ،

على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة امير المؤمنين ، وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا راسا ، وكذا وكذا فرسا ، على الا يغزوا ، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .. شهد الزبير ، وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وردان وحضر)

ولما كتب على هذه الصورة قرىء على الحضور من القبط والعرب باللغتين ، فتصافح الفريقان وصاروا جميعا يدا واحدة ، ثم كتب سيدى الى البطريق حاكم الاسكندرية يخبره بالأمر ، ولا ندرى ما يكون جوابه

وفيما كان مرقس يتكلم كانت أرمانوسة وبربارة ترقبان اركاديوس وما يبدو منه . اما هو فكان مصغيا الى مرقس وقلبه يتقطع ، ويكاد يتميز غيظا ، حتى سمع شروط الصلح ، وأن العرب والقبط تصافحوا بعد كلام المقوقس وتثبيط عزائم رجاله ، فوثب بغتة ونادي : « يا للعار ! قد قضى الأمر يا أرمانوسة لم يبق لى مقام بهذه البلاد ، فها هو ذا والدك قد اتم ما كان يبغيه من صلح العرب ، ولم تبق لنا حيلة فى دفعهم عنا ، وليس فى طاقتى أن أنظر الى ابيك ، وقد تحققت الآن أنه هو الذى ساعد العرب على فتح الحصن واخراج جندنا منه ، فالاقامة هنا لا استطيعها ، وقد عاهدتك واقسمت لك الأيمان المعظمة ان لا افارقك بعد واقعة الحصن ، فها قد انتهت الواقعة ، فنحن ــ انا وانت ــ روح واحد ، وبقاؤنا هنا تحت سلطة هؤلاء البدو مستحيل ، واذا ذهبنا الى الاسكندرية فلا آمن غضب ابى لأنه عالم بمساعى أبيك ، فلا يرضى ببقائنا معا . فما الحيلة اذن؟ » . قالت : « انى رهينة أمرك »

قال : « اعلمى يا أرمانوسة أن أباك قد ارتكب خيانة لن تمحو ذكرها الأيام ، لأنها ستؤدى الى خروج وادى النيل من أيدينا الى أيدى العرب ، فاذا عرف هؤلاء المحافظة عليه طالت اقامتهم به قرونا ، لأنه من خير بلاد الله تربة واكثرها خصبا ، فجعله ابوك غنيمة باردة للعرب ، وأصبحت الروم ومنازلهم وما ملكت ايمانهم فى قبضة هؤلاء العرب . انها خيانة لا استطيع عليها صبرا ، فاقامتى معه ضرب من المستحيل ، ولولا حبك الراسخ فى هذا القلب لسعيت الى قتله بهذا الحسام »

وكانت ارمانوسة اثناء كلامه مطرقة خجلا لما أتاه والدها ، وكأنها استيقظت من سبات فادركت كنه الجريمة فلم تحر جوابا

فاتم هو كلامه وقال : « ولكننى لا امسه بسوء اكراما لعينى ارمانوسة وطالما دافعت عنه عند ابى ، وكثيرا ما غالطته ، مع علمى بالخيانة ، فكأنى شاركته فيها ، وانا لا اصبر على جواره ، فاذا أطعتنى هجرنا هذه البلاد ، واقمنا ببلاد لا يعرفنا فيها احد الى أن يقضى الله بما يشاء »

فقالت : « انى معك حيثما توجهت ؟ »

فقال : « اما والحالة هذه فلنترو ولنتعقل ، فنحن الآن متحدان قلبا فلندع قسيسا يتمم عقد اتحادنا الجسدى »

وكان مرقس وبربارة يصغيان ليعلما عاقبة الحديث ، واستحسنا الراى، فاسرع مرقس فجاء بقسيس منف فصلى وبارك قرانهما فلما تمت صلاة الاكليل قال مرقس : « وانا لا اقامة لى هنا بعدكما ، فهل تسمحان بأن أكون فى خدمتكما انا ومارية ؟ »

فنصحا له بألا يلقى بنفسه فيما هو فى غنى عنه ، فأصر ، وبعث الى مارية ووالدها فحضرا فانبأهما بقصده . فقالا : « نحن نسير معكم ايضا ، ثم صلى القسيس وعقد قران مرقس بمارية

□

خلا أركاديوس بأرمانوسة يتشاوران ، فقر رأيهما على الذهاب الى بلد لايعرفهما فيه أحد . اما ارمانوسة فانها لما تحققت انها اصبحت زوجة اركاديوس، وسكن قلقها عليه ، انتبهت وكانها افاقت من سبات : كيف تعقد قرانا لا يعرفه ابوها ؟ وشعرت انها اثمت فى حق ابيها ، وبانها خرجت من بيته فى غيابه ؟ ثم تخيلته وقد جاء منف على اثر ما قاساه فى امر الحرب ولم يجدها فى منزله ، ولم يعرف أين هى . وقدكانتمنذحداثتها تسليته الوحيدة بعدوفاة والدتها ، ولم يكن يهمه شىء لايهمها ، ولولا اشتغاله بالحرب ومعداتها لما فارقها يوما واحدا ، فقدكان ينتظرعودته الىمنف بفارغ الصبر ليقضى بقية ايامه بجانبها ، فكيف يأتى ولايجدها ، وهى تعلم منزلتها عنده ؟ فجعلت هذه الهواجس تجول فى خاطرها ، وتتجاذبها وهى صامتة ، واركاديوس يفكر فى مثل ذلك ، لأن حاله تشبه حالها من هذا القبيل . وبعد ان صمتا برهة هب اركاديوس فجاة ورفع يده الى صدره ، وجعل يبحث بين اثوابه كانه اضاع شيئا ، فنظرت ارمانوسة اليه فرات البغتة والقلق باديين عليه فقالت « ما بالك يا حبيبى ؟ ما الذى جرى ؟ »

قال : « لقد اضعت شيئا لا تقل خسارته عن خسارة هذا الحصن »

قالت : « وماذا عسى ان يكون ذلك ؟ »

قال : « اضعت الصليب الذى أهديتنيه ، وقد كان معلقا فى صدرى تحت ثوبى حتى ليلة مجيئى اليك ، وكنت أخرجته لاقبله وانا انزع ثيابى للرقاد ، ووضعته امامى ، ثم جاءنى رسولك على عجل ، فاضطررت الى المجىء عملا بأمرك ، فلبست ثيابى ونسيته هناك ، وانى لأتشاءم أن نجتمع ويضيع الصليب ؟ »

قالت : « وكيف تستطيع الوصول اليه ، وفى دخولك الحصن بعد احتلال العرب ما فيه من الخطر ؟ »

قال : « ارى ان اصطحب مرقس الى الدير فهم يعرفونه : انه من اتباعك فلا يسيئون الظن به ، والبس انا لباسا مثل لباسه فندخل معا للبحث عن الصليب »

قالت : « وماذا بعد ذلك ؟ »

قال : « نضرب موعدا نلتقى فيه فى موضع نسير منه الى حيث نريد »

قالت : « كيف الفراق بعد الاجتماع ؟ »

قال : « لابد من خروج كل منا على حدة لئلا ينكشف امرنا ، فاذهب انا اولا ، وغدا او بعد غد تلحقين بى ، واكون بانتظارك فى عين شمس ومعى كل المعدات اللازمة ، فأرسل مرقس ليأتى بك وبأهله ، فنسير معا الى حيث نريد ، وليكن خروجك متنكرة »

فعظم عليها الفراق وما وراءه من الفرار فبهتت ولم تجب ، فحمل ذلك منها على محمل الحياء ، وودعا مرقس ، ثم ودعا ارمانوسة وخرجا ، وظلت هى فى حجرتها وحيدة ، وقد عظم عليها الامر ، كانها فى حلم ، وعادت اليها هواجسها ، وشعرت بحال والدها وما بينهما من الرابطة ، وبحبه لها ، فكيف تتزوج بلا علمه ؟ وكيف تهجره الى الابد ؟ وتصورت حاله بعدها . ثم تحول ذهنها الى اركاديوس وحبها له ، وما قاسته لأجله ، فانشرح صدرها انشراحا اشبه بلهيب اضاء بغتة فى ليل دامس ثم انطفأ . فأخذت فى البكاء . وكانت بربارة فى شاغل من امر البيت ، تعد معدات السفر وتجمع المتاع اللازم مما خف حمله وغلا ثمنه ، فعادت الى الغرفة لتسألها عن شيء اشكل عليها فراتها تشرق بدموعها ، فهمت بها وقالت : « ما بالك يا سيدتى تعودين الى البكاء وقد تم لك فوق ماكنت تتمنين ، فأركاديوس زوجك ، وقد قيل : (ما يجمعه الله لايفرقه انسان) . ولم يبق لهرقل ولا ابنه سلطان عليك ، لخروج البلاد من قبضته ؟ »

فتنهدت ارمانوسة وقالت : « آه يا بربارة ! لا ادرى اين هى السعادة ؟ فقد كنت احسبها فى لقاء الحبيبين فقط ، فلما ظفرت به ، نقصتنى فيه السعادة ، فما انا بسعيدة يا بربارة ! »

قالت : « ولماذا ؟ » . قالت : « اتسالينني وانت اعلم الناس بحال ابى الذى لو فتشت قلبه وبحثت بين جوارحه لم تجدى غير ارمانوسة ؟ فانا تعزيته فى اواخر ايامه . كيف يعود من تكاليف حياته غدا ولايرانى فى البيت ؟ ما الذى يخطر فى خاطره ؟ واذا عرف بعد ذلك سر غيابى الا يعيش بقية عمره حزينا كئيبا ؟ اترضى له ذلك ؟ اليس هذا عقوقا منى ؟ قد كنت يا بربارة تائهة وعلى عينى غشاوة . كان لهفى على اركاديوس وشوقى الى لقياه قد شغلانى عن

برى بأبى ، ولم أكن اتوقع الخروج من بيته هربا على هذه الصورة »

وكانت ارمانوسة تتكلم وهى تبكى ، وبربارة مصغية لا تبدى حراكا وكأنها افاقت هى الاخرى من غفلة ، ولسان حالها يقول : « لقد صدقت» . فلما اتمت ارمانوسة كلامها ظلتا صامتتين برهة ، ثم قالت بربارة : « وما العمل يامولاتى؟ ان اركاديوس لايرضى الاقامة مع ابيك بعدماظهر له من امر الحصن وتسليمه»

قالت : « لا أدرى يا بربارة ، انجدينى برايك ، فانى لا أعى شيئا »

قالت : « دعينى افكر فى الامر - وقومى الى الحديقة روحى عن نفسك ونزهى طرفك ، وان غدا لناظره قريب »

فنزلت ارمانوسة الى الحديقة ، واشتغلت بربارة بتهيئة المعدات ، وهى لا ترى بدا من السفر ، لعلمها ان تأخيره يحبط كل مساعيهم ، وقد عولت على استرضاء المقوقس واستعطافه بعد انقضاء الحرب

☐

لم يغمض لأرمانوسة جفن فى تلك الليلة لما تقاذفها من الهواجس وما تولاها من التردد ، وفى صباح اليوم التالى نهضت لصلاتها المعتادة فسمعت لغطا ووقع خطوات عرفت انها خطوات بربارة ، فتوقعت دخولها عليها ، وهى تدخل بلا استئذان ، فلم تدخل حتى أتمت ارمانوسة الصلاة . فقالت لها : « ما وراءك يا بربارة ؟ » . قالت : « ما ورائى الا الخير ، لقد جاء المبشرون بقدوم سيدى المقوقس الآن »

فبغتت ارمانوسة ، وكانت لا تزال جاثية تصلى ، وصاحت : « جاء ؟ اواه ! ما الذى جاء به ؟ ما العمل يا بربارة ؟ انى ارتعش خوفا وازداد خفقان قلبى ، وكنت قد ارتحت قليلا وأنا أصلى ، لأنى توسلت الى الله والقيت حملى عليه » . قالت ذلك واستلقت على السرير ، وهى لاتدرى كيف تقابل والدها . فقالت لها بربارة : « لعل الله قد هيأ لنا الخير ، سكنى روعك »

فما لبثت ان سمعت وقع أقدامه وقرع عصاه وصوت سعاله فى الدار ، فازداد خفقان قلبها ، وتحفزت للقيام وركبتاها ترتجفان . واذا به قد دخل ، واسرع اليها وضمها الى صدره وقبلها . أما هى فألقت نفسها على صدره ، وتذكرت حنانه فهاجت شجونها وتذكرت ما هى فيه مما لايعلمه ، فغلب عليها البكاء ، فجعلت تبكى وتنتحب . فبكى والدها وهو يعجب لحالها ، وكان يحسبها تبكى بكاء الفرح ، فلما طال بكاؤها سألها عما يدعوها الى ذلك فلم تجب

اما بربارة فهمت بيدى المقوقس فقبلتهما وقلبها يخفق مخافة ان تبوح ارمانوسة بسرها ، فيقع الجميع فى مأزق حرج . فجعلت تلتمس الاعذار عن

بكاء ارمانوسة ، وتحذرها خلسة ان تقول شيئا . وقالت للمقوقس : « أن طول غيابك يا سيدى سبب هذا البكاء ، فقد تركتنا والبلاد فى حرب ، وسيدتى ارمانوسة وحيدة هنا ، فهى لا تكاد تصدق انها تراك ، فغلب عليها البكاء وهو بكاء الفرح »

قال : « ولكنكم تعلمون الا خوف علينا من هذه الحرب ؟ »

قالت : « لم نخف الخطر ، ولكننا استوحشنا . فالحمد لله على سلامتك »

قال : « وهذا ما اشكو منه انا ايضا ، ولذلك فانى اذا سرت الى مكان يطول غيابى فيه اصطحبتها معى »

قالت : « عسى الا يحدث بعد اليوم سفر طويل ، فتبسم وقال : « لا بد من السفر ، وانى انما اتيت لنذهب معا الى الاسكندرية »

فخفق قلب ارمانوسة ، وعلا وجهها الاحمرار ، ثم امتقع لونها حيرة ووجلا، وادركت بربارة ذلك ، فقالت للمقوقس : « وما الذى يدعو الى هذا السفر يا مولاى ؟ »

قال : « ان العرب الذين دخلنا فى ذمتهم ، وانقذونا من ظلم الروم ، ذاهبون غدا الى الاسكندرية لفتحها ، وقدطلبوا الى ان اصحبهم اليها لنعد لهم المؤونة بعد طول الغياب ونسهل وسائل النقل . ولما كان شوقى قد اشتد الى ارمانوسة فقدجئت لأصطحبها ، ولاخوف علينا لأننا سنكون بعيدين عن مواقع الحرب »

فلما سمعت ارمانوسة ذلك ازدادت حيرتها ، ولبثت صامتة ، وذكرت دعاءها ربها فى صلاتها فى الصباح ، فقالت : « لعل الله قد فعل ذلك لأجلى ». ولكنها لم تدرك الخير فى بعدها عن اركاديوس، فسلمت امرها لله وقالت لأبيها : « أذهب معك الى حيث شئت »

قال : « هلمى يا بربارة مرى الخدم باعداد ما تحتاج اليه سيدتك من معدات الاسفار ، فاذا احبت الركوب على فرس او هودج أو عربة فليهيئوا لها كل ما تريد ، وليحملوه فى القوارب الى الضفة الشرقية ، ونحن نلتقى بهم أمام الحصن بالقرب من معسكر العرب ، ليركبوا ونحن فى مقدمتهم ، وحولنا حرس منهم حتى نأتى الاسكندرية » . قال ذلك وخرج فنادى الحراس وامرهم باعداد القوارب . فلما خرج قالت ارمانوسة : « ماذا نعمل يا بربارة لأركاديوس ؟ » . قالت : « نترك له خبرا مع مارية ليوافينا الى الاسكندرية ، فان العرب لايلبثون ان يفتحوها ، وبعد ذلك نتدبر سبيلا ينجيك من هذه القلاقل » . وسارت بربارة للتأهب فأخذت كل ما خف حمله وغلا ثمنه ، واطلعت مارية على ما وقع واوصتها بما تفعله ، ثم عادت وقد تم كل شيء ، فركبوا جميعا وجرت بهم السفن نحو الحصن ، فالتفتت ارمانوسة الى منف تودعها وهى تخاف الا تراها بعد اليوم . وكانت تظن أن والدها يعرج على

الحصن ، فلما دنت منه اخذت تنظر الى مراميـــه وابوابه واســـواره فلم تر احدا . وتجاوزته السفن الى معسكر العرب حتى رست عند الضفة ، وكان رجال القبط فى انتظار مولاهم ، فنقلوا الامتعة الى مكان اعدوه لهـا ، وكانت ارمانوسة قد اختارت العربة لركوبها فأعدوها لها هناك ، ولكنها عدلت عنها الى السفر فى النيـل . ونزلت أولا فى خيمـة ومعهـا ابوها وبربارة . وكان عمرو يهم بالسفر ، وقد امر بتقويض الخيام وتحميل الاحمال الى الاسكندرية ، فلما علم بمجيء المقوقس مر بخيمته فحياه ، ورحب به وبمن معه ، وجلس اليه يستشيره فى الطريق الذى يختاره فى الذهاب الى الاسـكندرية . ودار بينهما الحديث فى شتى الشؤون ، والمقوقس يصف له بواسطة الترجمان الطرق وقوات الروم والاماكن الحصـــــينة عندهم ، وبربارة مشغولة بالحديث مع ارمانوسة ، ورجال عمرو مشتغلون بالتقويض والتحميل

وفى الصباح التالى أرسل المقوقس ارمانوسة وبربارة ، ومعهما بعض الحاشية والخـدم ، فى ســفن تسـير فى النيـــل ، على أن يوافيهم الى مريوط . وفى الضحى أقلع العرب والمقوقس وحاشيته قاصدين الاسكندرية ، وكان المقوقس يتقدم العرب مسافة يوم او نحوه ليصلح الجسور ويســهل الطرق ويهيىء ما يحتاجون اليه من المؤونة ووســـــائل الحمل ، والروم يفرون امامهم الى الاسكندرية ، وهى آخر ملجأ يلجاون اليه ، فاذا أخرجوا منها لم يبق لهم مقر

▭

اما اركاديوس فتنكر بلباس جند القبط ، واصطحب مرقس الى حجرته التى كان ينام فيها بالقرب من كنيسة المعلقة ، فمرا بالـكنيسة ، وكان اركاديوس يتوقع أن يراها خرابا محطمة الايقونات متهدمة المذابح ، ولكنه بغت لما رآها لا تزال سليمة ، والمسلمون والأقباط يدخلونها ويخرجون منها باحترام ووقار ، فعظم أمر المسلمين فى نفسـه . ولم يكن مرقس اقل استغرابا منه ، لأنه لم ينس ما فعله جند الروم فى تلك الكنيسة ، يوم جاءوا لاحتلال الحصن منــذ بضـعة اشهر ، واركاديوس معهم ، فحدثته نفســه ان يذكر اركاديوس بذلك . ومشيا فى الكنيسـة لا يعترضهما احد ، لأن اكثر الناس هناك يعرفون مرقس لعلاقتــه بالمقوقس ولدخوله معسكرهم مرارا . وفيما هما ماشيان لقيتهما الراهبة التى كانت قد حفظت كتاب البطريرك بنيامين للمقوقس حتى اخذته بربارة لتوصيله اليه . فلما رات مرقس هشت له واستقبلته محيية وهى تبتسم مستبشرة ، فسلم عليها وسالها عن حال الراهبات ، فقالت : « نشكر الله على نجاتنا من الروم (ولم تكن تعلم أن رفيقــه رومى) وابشرك يا بنى بأن البطريرك بنيـــامين حبيبنـــا التقى الورع سيأتى عما قليل » . فتجاهل مرقس قولها اخفاء لقصة البطريرك فقال لها :

« كيف هؤلاء العرب ممكن ؟ » . قالت : « انهم من خيرة النــاس ، وقد كنت اخشى ان يفعلوا فى هذه الكنيسة ما فعل الروم يوم دخلوها ، فما شعرت الا والامير نفسـه قادم الينا يطمئننا ويخفف عنا ، ويقول : (لاباس عليكن) . فلما آنست فيه هذا اللطف دعوت له وطلبت اليــه أن يستقدم الينــا البطريرك بنيامين ، فوعدنى خيرا حفظه الله وأدام سلطة العادلين »

وكان اركاديوس يسمع كلامها وهو يتقد غضبا ، ولكنه علم ان اطلاعها على امره لا يخلو من الخطر الشديد فسكت ، وقد شعر بما كان يقاسيــه الأقباط من العنف والاستبداد فى أيام دولتهم . وظلا سائرين حتى دخلا الغرفة ، وبحثا فيما بقى من الأثاث ، فوجدا السلسلة والصليب فى بعض اركان الحجرة ، لم يمسهما الفاتحون ، فتناولهما اركاديوس وقفل راجعــا ، وكان الليل قد أسدل نقابه . وفى اليوم التالى أنفذ مرقس الى ارمانوسة ، وكانت قد خرجت من منف . فلا تسل عن حاله لما عاد مرقس وانباه بالخبر ، فانه استعاذ بالله ، واسودت الدنيا فى عينيه ، فقال له مرقس : « لا تجزع ان سيدتى أرمانوسة فى حفظ وامان ، لا خوف عليها فى صحبتها والدها ، فاذا رايت أن تسير الى الاسكندرية فتــلاقى اباك وتخبره بما أنت عازم عليه فافعل ، فلعل القلوب تصفو . وأنا اذهب الى سيدتى أرمانوســة لاكون بمعيتها حيثما توجهت ، وآتيك بأخبارها وآتيها بأخبارك، حتى ينقضى امر الاسكندرية ، فتكون مصر اما للروم واما للعــرب ، وفى الحالين انت لأرمانوسة وهى لك . فهى لا تلام على ذهابها مع أبيها ، وهو لا يعلم شيئا من أمركما ، فأرجو أن تتدبر الأمر حتى يرتاح ضميرها »

فقال اركاديوس : « لا لوم عليها ولا تثريب » . ثم فكر قليلا وقال : « انى أعهد فى امر ارمانوسة اليك ، وما دمت الواســطة بينى وبينها ، فانك لاشك تقوم بما فيه نفعنا »

قال : « انى عبــدكما ، وكل ما اتيتــه فهو منكما واليكما ، ولم يكن لى فى الدنيا مأرب غير اجتماعكما على سكينة وطمأنينة »

فقــال اركاديوس : « بورك فيك ، وها انذا ذاهب الى الاســكندرية لعلى القى ابى هناك ، او القاه قد يئس من حياتى وسافر الى القسطنطينية . وعلى كل حال فانى ساقيم فى معسكر الروم لعلى اشفى غليلى من العرب . واما انت فجئنى بخبرها ومكانها بعد ان يصل العرب الى الاسكندرية »

فقال مرقس : « ولكن كيف استطيع الوصول اليك ، والاقباط الآن اعداء الروم ؟ . على ان فى استطاعتك ان تحل هــذه المشكلة ، ومشكلة غيابك عن الحصن معا . فتذكر لهم انى جاسوس على المقوقس ، وانى انبــأتك بخيانته فلم تصدق وخرجت معى متنكرا لتتحقق الامر، فسقط الحصن خلال ذلك» . فوافقه اركاديوس على هذا الرأى

فسطاط عمرو

امتطى اركاديوس جواده وسار قاصدا الاسكندرية فى غير طريق الجند ، وقد امتلأ صدره أملا بالفوز على العرب والأخذ بالثأر ، وكلما تخيل ذلك انتعشت آماله ، وآثر أن يرى أرمانوسة وقد كلله الظفر ، على أن يفر بها خلسة الى حيث لايعلم احد

اما مرقس فيمم معسكر العرب بالقرب من بابل ، فى المكان الذى فيه جامع عمرو الآن ، فراى الارض مقفرة ليس فيها الا بقايا الأطناب وما تركه الجند من الألبسة والأسلاب ، وراى فسطاط عمرو لا يزال منصوبا فى مكانه لا يخفره احد ، فعجب لذلك ومشى حتى دنا منه فاذا هو خال ليس فيه الا بعض اليمام المعشش فى سقفه او فى بعض ثنايا الجدران ، فوقف ينظر يمنة ويسرة ، فراى عبدا يقترب منه عرف انه من عبيد العرب الذين يقومون بخدمة الجند من احتطاب وسقاية ونحو ذلك ، وقبل ان يصل العبد صاح فى مرقس أن يخرج من الفسطاط على عجل ، فعجب لذلك وخرج ينتظر وصوله ، فلما وصل سأله بالعربية ، وكان قد حفظ بعضها : « ما أمر هذه الطيور وهذا الفسطاط ؟ » .

قال : « ان مولانا الأمير أمر ببقاء الفسطاط منصوبا محافظة على حياة هذه الطيور لأنها كانت معششة فيه يوم عزمنا على الرحيل ، فلم يشأ الأمير عمرو تقويض هذه الخيمة رفقا بصغارها . وبعد أن أقلع الجند وساروا ، خاف أن يعتدى احد المارة على هذا الفسطاط لجهله سبب بقائه ، فأمرنى بالرجوع والاقامة هنا ريثما يعود هو من الاسكندرية ظافرا حامدا ان شاء الله »

فأعجب مرقس بالمسلمين وازداد ميلا الى الرضوخ لسلطانهم ، ثم سأل العبد عن مسير الجند فقال : « انهم سائرون على رأى المقوقس » . قال : « وهل سار المقوقس معهم ؟ » . قال : « انه فى مقدمتهم ، بل هو يتقدمهم عدة أميال يهيىء لهم وسائل النقل والطعام ، ويمهد لهم الطريق ، وينشىء الجسور وغير ذلك مما يحتاج اليه الجند فى مسيرهم » . قال : « ومتى اقلع المقوقس ؟ » . قال « بعث أهله فى الصباح باكرا ، ثم اقلع الجند فى الضحى وهو معهم ولكنه تقدمهم كما اخبرتك »

قال : « الا تعلم أين سار أهله ؟ » . قال : « لا ادرى ، وما يهمك من اهله ؟ » . قال : « أنا من اهل قصره » . قال : « اذا اسرعت ادركت المقوقس والجند لأنهم سائرون ببطء »

فودعه وسار مسرعا على جواده ، فأدرك العرب قبل ان تغرب الشمس وقد حطوا رحالهم للمبيت ، فوجه انتباهه نحو خيمة سيده فلم يرها ، فسأل عنه فقيل له انه على بضعة اميال فى المقدمة ، فأسرع حتى بلغ مضربه ، وقد خيم الغسق ، فلم ير احدا غير الحاشية ، فسأل عن المقوقس واهله فاجابوه بأنه تحول الى بعض القرى يخابر شيوخها ليعدوا الرجال لخدمة العرب فيما يحتاجون اليه فى اثناء مسيرهم لأن رجاله وحدهم لا يكفون ، وقد ارسل بعضهم الى شيوخ القرى فى بعض المهام

فقال : « واين السيدة ارمانوسة ؟ » . قالوا : « أرسلها وخادمتها فى سفينة الى بلدة فى ضواحى الاسكندرية تقيم مع بعض اهلها ريثما تنتهى الحرب »

قال : « ما اسم تلك البلدة ؟ » . قالوا : « مريوط »

فعرفها واراد الخروج توا قبل ان يأتى المقوقس ويستبقيه معه ، ولكن الظلام منعه ، فتنحى للمبيت فى قرية قريبة يعرف فيها صديقا ، فبات عنده وبكر قاصدا مريوط

اما ارمانوسة فكان ابوها قد أرسلها الى مريوط وقاية لها من غوائل الحرب فسارت فى مياه النيل المبارك ، وقد أعد لها الملاحون سفينتها وجهزوها بكل ما تحتاج اليه من أسباب الراحة ، فجلست فى صدر السفينة وبربارة بين يديها ، ثم تذكرت حالها واخذت تفكر فى اركاديوس وما قد يبدو منه بعد علمه بسفرها ، وتوقعت ان يأتيها مرقس بالخبر ، وكانت تخاف أن يكون مكدرا ، وكلما فكرت فيه تقلب شعورها بين الخوف والاضطراب والارتياح والبغتة . وما زالوا سائرين يرسون ليلا ويقلعون نهارا حتى أدركوا مريوط بعد بضعة أيام ، وكان مرقس قد سبقهم ، ووقف فى انتظارهم عند مرسى السفن ، فراى أهل المدينة يتأهبون لاستقبال ابنة حاكمهم ، وقد وقفوا عند الضفة فوقف معهم

□

فلما رسا القارب تقدم بعض النسوة من اعيان البلدة ، فاستقبلن ارمانوسة ، وبربارة تصحبها ، واشتغل الرجال بنقل الامتعة ، وارمانوسة تسلم سلاما رقيقا ، والكل ينظرون اليها ويعجبون بهيئتها وجمالها . اما مرقس فلم ير الظهور أمامها حينئذ لئلا يضرها الاضطراب او البغتة ، وكانوا قد

اعدوا لها مركبة ذهبت فيها الى منزل شـيخ البلد . فسار مرقس فى أثرها حتى اذا دخلت استاذن عليها فاذنت له ، واستقبلته بربارة اولا وسـالته ، فقص الخبر عليها فدخلت به الى ارمانوسة ، فحالما راته خفق قلبهـا واستطلعته الخبر فطمانها ، وروى لها ما تم عليه الاتفاق مع اركاديوس ، ففكرت قليلا ثم قالت : « اذهب اركاديوس الى الاسكندرية للحرب ثانية ؟ »

قال مرقس : «نعم يا مولاتى ، ولكنه حريص على حياته ، والله حارس له »

فنظرت الى بربارة وقالت لها : « ألم يقسم لى انه لن يشهد حربا ؟ »

فقال مرقس : « العفو يا سيدتى ، وما الذى يفعـله وقد راى نفسه وحيدا وانت مع سيدى المقوقس ؟ »

فقالت والدمع يكاد يتناثر من عينيها : « نعم ان الذنب ذنبى . نعم انا تركته وهو لم يتركنى » . وحولت وجهها فادرك مرقس انها تريد الاختلاء ببربارة فخرج من الغرفة . فما كاد يخرج حتى أطلقت سراح دموعها وقالت : « لقد ارتكبت ذنبا كبيرا ، ولـكن ما العمـل ؟ . . آه ماذا أفعل ؟ أكنت أترك أبى واهجر بيتـــه ، وقد ربانى وكفلنى واحبنى وترك كل شيء من أجلى ؟ آه . آه . . » . واجهشت فى البـــكاء ثم قالت : « ولـكن أركاديوس . . اركاديوس حبيبى . . . » . وكانت بربارة مطرقة تفكر صامتة ، فلما قالت ارمانوســة : « حبيبى » رفعت رأســها وقالت : « بل هو الآن أقرب من حبيب» . فادركت انها تذكرها باقترانهما ، وانه أصبح زوجها فقالت : « نعم انه أقرب من الحبيب والصق من الأخ وأعز من الروح »

فقالت بربارة بصـوت منخفض : « بل هو أقرب من الاب ، تذكرى قول الكتاب المقدس » . فعلمت أنها تذكرها بأمر الـكتاب القائل : « يترك الرجل اباه وامه ويلتصق بامرأته » . فقالت لها : « ولـكنك لا تجهلين يا بربارة أن اكرام الوالدين من وصايا الله العشر » . فأفحمت بربارة وصمتت ، ثم قالت : « هلم يا سيدتى الى الاغتسال وتبديل الثياب والاستراحة من وعثاء السفر ، وانا اضمن لك الراحة ، وهى لاتكون الا بالوفاق بين والدك وعريسك ، وعلى الله التوفيق » . فلما سمعت أرمانوســة قولها اشرق وجهها ولـكنها استبعدت ذلك الوفاق وظلت صامتة ، ثم تحولت الى حجرتها وخدم المنزل ينتظرون اوامرها

أما مرقس فظل فى حديقة المنزل ينتظر اشارة ارمانوسة حتى خرجت بربارة واوصته بأن يذهب الى الاسكندرية ويحتال فى الدخول على أركاديوس ويطمئنه على ارمانوسة ثم يعود فيطمئنها عليه

فاستراح بقيــة ذلك اليوم ، واصبح فى اليوم التالى فلبس لبـاس الروم وحمل بيـده علما احمر كان أركاديوس قد اوصـاه بحمله ليعرفه به عن بعد

فيدعوه اليه . فلما أطل على أسوار الاسكندرية وقف على مرتفع فأشرف على المدينة وقصورها ، ووراءها بحر الروم يرغى ويزبد ، وقد علا هديره ، ووقف الجند على الأسوار فى مراميهم وأبراجهم ، وخفقت الأعلام فوق رؤوسهم ، فهاله منظرهم ، وخاف أن يرميه احدهم بنبل أو سهم ، فسار مبتعدا على حذر حتى أتى الموضع الذى عينه له اركاديوس ، ولم يكد يقف هناك هنيهة حتى رأى رجلا خارجا من المدينة يناديه ، فأسرع اليه فاذا هو رسول اركاديوس فى انتظاره ليأتى به اليه فدخلا المدينة ، ولم تكن هذه اول مرة دخل فيها الاسكندرية ، ولكنه رأى فيها هذه المرة غير ما عهده فقد تزاحمت الأقدام ، لما تقاطر اليها من جالية الروم من سكان وادى النيل بعد فتح الحصن ، فازدحمت أسواقها بهم ولا سيما سوق المأكولات والمشروبات ، ومشى يتأمل المساكن وحال الناس من الاضطراب ، فوصل الى منزل عرف انه منزل يحيى النحوى وكان قد سمع حديثه من زياد العربى ، فأحب أن يراه لأنه على رأى المقوقس فسأل رفيقه قائلا : « أليس هذا بيت يحيى النحوى ؟ »

قال : « بلى ! هذا هو بعينه ، ولكنه ليس هنا الآن ، فقد هجر الاسكندرية منذ اضطهده القوم أكثر من ذى قبل » . فقال : « والى أين ذهب ؟ » . قال : « لا أدرى ، لعله يقيم فى بعض الاديار أو بعض المكتبات »

ثم مل مرقس السير فقال : « الى أين نحن ذاهبان ؟ » . قال : « نذهب الى القائد اركاديوس »

قال : « وأين هو ؟ » . قال : « هو فى الملعب مع سائر القواد يلعبون بالأكر ترويضا لأجسامهم ، وكذلك يفعلون فى كل صباح »

قال : « وما ادراك انى آت اليه ؟ » . قال : « علمك الأحمر ، لأن مولاى القائد اركاديوس أوقفنى عند باب الحصن ، وقال اذا رأيت رجلا حاملا علما احمر مارا بجانب السور فجئنى به ، وقد أوصانى الا أكلمك أثناء الطريق ، وهذا شأننا فى مثل هذه الحال ، فالأولى السكوت لئلا يرانا احد فيشى بنا فأعاقب

فسكتا وسارا حتى اتيا الملعب فى أطراف المدينة من جهة البحر ، فدخل الرسول أولا ، ثم دخل مرقس الى ساحة كبيرة فرأى أركاديوس قادما نحوه ، وقد ترك رفاقه القواد جلوسا على كراسيهم وعلى دكة من الرخام قائمة على أعمدة منقوشة ، وفيهم بطريق كبير على كرسى ضخم مموه بالذهب الخالص . فلما التقى بأركاديوس هم بتقبيل يده ، فدعاه أركاديوس الى السير معه ، حتى دخلا غرفة من غرف الملعب ، وسأله عن أرمانوسة ، فقص عليه خبرها وخبر الجند ، فقال اركاديوس : « الذى اعلمه ان العرب حاربوا جندنا فى مريوط »

قال مرقس : « تلك مدينة ، وهذه قرية والاسمان متشابهان »

فسر لوجودها فى مكان أمين بعيدا عن المعسكر وأوصاه ان يعود اليها بالتحية ويطمئنها

وكان البطريق وقواده قد علموا بقدوم مرقس جاسوس أركاديوس ، وأنه أتاه بأخبار العرب وحركاتهم فلما خرج انصتوا لسماع ما سيقصه عليهم أركاديوس فاطلعهم على ما علمه وزاد فيه وهذب

فقال البطريق : « يلوح لى ان جاسوسك عالم بدخائلهم »

قال : « انه يا مولاى واحد منهم ، وهو اقرب القبط الى المقوقس ، ولكنه لا يرى رأيه فى خيانة الدولة ، وسيأتينا بالأخبار ويبين عدد جند العرب وكل حركاتهم ومقاصدهم »

فضحك البطريق ضحكة ارتج لها بطنه وأجفل سامعوه وقال : « ما عسى ان يكون امر هؤلاء البدو الحفاة ؟ المثل هؤلاء اقمنا المتاريس ونصبنا المجانيق واعددنا الرجال ؟ » . قال ذلك وأغرق فى الضحك .. وفى ضحكه معنى لم يدركه من الحضور غير اركاديوس ، فاستشاط غيظا لعلمه انه يوبخه لخروج الحصن من ايديهم الى تلك الشرذمة من العرب الحفاة . وكان البطريق قد وبخ أباه الأعيرج عند عودته من الحصن وهدده ولامه على انكساره وفراره بمن معه من الرجال ، وارسله الى القسطنطينية ليرى الامبراطور هرقل رايه فيه ، وكان أركاديوس عند وصوله الى الاسكندرية ، واظهاره العذر الذى تم الاتفاق عليه مع مرقس لم يؤانس ارتياحا من البطريق ، لأن هذا لايريد أن يكون لغيره يد فى قهر ذلك العدو ، ولم يصرح بذلك ، لكن عبارته نمت على ما فى ضميره

اما أركاديوس فلم يكن يجهل شيئا من سر البطريق ، ولكنه تجاهل التماسا لنيل بغيته

وبعد بضعة أيام جاء العرب وعسكروا عند أسوار الاسكندرية وحاصروها ، ومرقس يتردد سرا بين أركاديوس وارمانوسة

واستمر الحصار واركاديوس لايدرى ما الذى يصيبه من عواقب تلك الحرب ، فان كانت الغلبة للروم ، وهذا ما يتمناه قلبه ، خاف أن ينتقم الروم من المقوقس ، فيفتكوا به وبأهله ، فيصيب ارمانوسة سوء لايستطيع دفعه ، واذا كانت الغلبة للعرب وتصور دخولهم الاسكندرية واستيلاءهم على قصورها وخزائنها واسواقها وخيراتها اسودت الدنيا فى عينيه ، ولكنه كان يرى من خلال تلك الظلمات سلامة أرمانوسة تشرق كالقبس فى الديجور ، فلبث ينتظر ما يجيء به القضاء

وطال الحصار اشهرا ، ومل العرب الانتظار فأجمعوا على الهجوم وتسلق

الاسوار ، وجاء من ابلغ ارمانوسة الخبر فخافت على اركاديوس ، فارسلت من جاءها بمرقس فقالت له : « هل اتاك خبر العرب ؟ »

قال : « قد علمت . . ثم ماذا ؟ »

قالت : « ماذا علينا أن نعمل واركاديوس فى المدينة فى خطر القتل ؟ »

قال : « أيحتاج مرقس الى تنبيه وقد وقف حياته وسخر عواطفه وقواه وجوارحه لخدمتك ؟ انى محتاط محاذر ، فالقى عنك القلق واتكلى على الله » . ثم ودعها وقصد الى معسكر العرب وتفهم خططهم ، فعلم انهم مهاجمون المدينة فى الصباح الباكر من جانبها الغربى ، ففتقت له وسيلة ينقذ بها اركاديوس من الخطر ، فذهب الى الاسكندرية على عادته ، ووقع ذلك فى عيد مريم العذراء ، فلقيه اركاديوس وسأله : « ما خبرك ؟ »

قال : « كانت سيدتى قد نذرت يوم حصار الحصن ان تجعلك توقد شموعا للعذراء مريم بيدك لكى ينقذك الله من الخطر فنجوت ، وشغلتم بالاسفار والنذر باق لم يوف . وقد رات سيدتى بالامس مريم العذراء كما يرى النائم ، فعتبت عليها هذا الاهمال ، فافاقت مذعورة للاخلاف فى وفاء النذر وانت فى خطر . ولما كانت ذكرى سيدتنا مريم تقع غدا فاستحلفك بمحبتها ان تاتى معى الى كنيسة العذراء فى الصباح لتفى بالنذر »

قال : « واين هى الكنيسة وكيف أفارق حصنى ؟ »

قال : « اما الكنيسة ففى طرف المدينة بالقرب من الرابية التى كانت المكتبة عليها قبل احتراقها ، فلنذهب معا ، ونعود قبل الضحى ، اما حصنك فقد مضى أشهر والعرب ساكنون لايبدون حراكا ، فهل يتفق ان يهجموا اليوم وانت غائب ؟ . فهب انك لاتزال نائما » . فاذعن اركاديوس . وفى فجر الغد ايقظه مرقس واخترقا المدينة حتى انتهيا الى كنيسة العذراء ، فقرع مرقس الباب وطلب القسيس ، فاستغرب هذا لأن الكنيسة للأقباط اليعاقبة ، والذين ارسلوا يدعونه من الروم الملكيين ، ففتح الباب بمفتاح ضخم ويداه ترتجفان ضعفا وخوفا ، ودخلا من باب ضيق . فكلمه مرقس بالقبطية وطمأنه ، فرحب بهما ، فافهمه مرقس انهما آتيان لوفاء نذر للعذراء والصلاة واضاءة الشموع ، واوعز اليه ان يطيل الصلاة اجابة لرغبة الطالب ، فوقفا واركاديوس قلق على معقله ، وخاف أن يراه احد من الروم هناك فيشى به الى البطريق . وكان مرقس يحتال فى اثناء الصلاة فيخرج من الكنيسة ويتسلق الاكمة فوق انقاض المكتبة فيشرف على الاسوار ، فعلم من حركات الجند هناك ان العرب قد هاجوا المدينة باكرا جدا ، ولم يأذن بانتهاء القداس حتى انقضى الهجوم ورجع العرب عن الاسوار . فما كاد القسيس يفرغ من صلاته حتى خرج اركاديوس مسرعا يلتمس السور ، وكان الوقت ضحى ، ومرقس معه فما وصلا الى الطرق العامة حتى رايا الناس فى هرج يهرعون

الى قصر الحكومة فبغت اركاديوس واستفهم ، فاخبروه الخبر ، فأسرع يلتمس معقله . ومرقس في اثره فمرا بدار البطريق فرأيا النـاس يتزاحمون بالمناكب رجالا ونساء كأنهم يتطلعون الى شيء غريب هناك ، فسأل مرقس عن السبب فعلم ان ثلاثة من العرب دخلوا المدينة فقبضوا عليهم وسيقوا الى الحاكم

فقال اركاديوس : « وهل دخل العرب الاسكندرية ؟ »

قالوا : « كلا ، ولكن هؤلاء الثلاثة دخلوها من ثغرة في السور ، ثم اقفلت الثغرة فظلوا اسرى ، وتقهقر رفاقهم وانتهى الهجوم »

▭

نظر اركاديوس الى مرقس نظرة استفهام ، ولسان حاله يقول : « ما قولك في هذا الاتفاق الغريب ؟ »

فقال مرقس : « هلم بنا يا سيدي ندخل الدار لعلنا نعرف أحدا منهم »

فقال اركاديوس : « كيف ادخل؟. قد يراني البطريق، وعهده بي اني مقيم في حصني؟ لا أقول هذا خوفا منه ، ولكني لا اريد أن يظن بي الجبن أو الخيانة »

فقال مرقس : « ان الهجوم لم يكن من جانب حصنك ، وما انت بمقصر ، فضلا عن ان الواقعة انقضت ، ورجع العرب الى معسكرهم ، وانظر الى قوادكم كيف تجمعوا في الدار لمشاهدة الاسرى . الست واحدا منهم ؟ فاجعل انك جئت فيمن جاء منهم . وثق يا مولاي ان صلاتنا في هذا الصباح هي التي ساعدت على رد العرب وحفظ اسوار المدينة ، فان للسيدة العذراء كرامة »

فسكت اركاديوس وتحول الى الباب المعد لكبار الضباط فوسعوا له ، فدخل ودخل مرقس معه ، فرأيا صحن الدار غاصا بالناس من الاعيان والوجهاء والقواد ، فانخرطا في سلكهم وتطلعا فرأيا ثلاثة من العرب في لباس متشابه جيء بهم الى القاعة التي فيها البطريق . وتفرس مرقس فيهم عن بعد فلم ير غير اقفيتهم ، فلما وصل الناس الى باب القاعة لم يأذن الحجاب لغير كبار القواد ، فدخل اركايوس . ودخل مرقس معه . وجلس الجميع على كراسيهم بين يدي البطريق، واوقفوا الاسرى في الوسط ، وكان مقعد البطريق على دكة في الصدر ، ومجالس القواد على كراسيهم الى يمينه ويساره ، وارض القاعة مرصوفة بالرخام الملون ، والجدران مزينة بالرسوم الجميلة على ابدع ما رسم الرسامون

وما كاد نظر مرقس يقع على الاسرى حتى عرف انهم عمرو بن العاص ، ووردان ، ومسلمة بن مخلد . فنظر الى اركاديوس فرآه يرنو اليه كأنه

يستقدمه فتقدم ، فهمس اركاديوس فى اذنه : « اليس هذا هو الامير عمرو ابن العاص ؟ » . قال : « بلى »

فسر اركاديوس بأسره ، ثم ذكر يوم رآه للمرة الاولى فى بلبيس ، وما كان من حمايته ارمانوسة وتأمينها ، وكيف ارسلها الى ابيها سليمة آمنة ، فلبث صامتا يترقب

اما عمرو فكان ينظر الى البطريق ، ويلتفت يمنة ويسرة لايعبأ بما يبرق امامه من السيوف ، وما يتلألأ على رؤوس الجماعة من القلنسوات المزخرفة ، أو الخوذ اللامعة ، أو الثياب الموشاة بالالوان الزاهية ، ووقف رابط الجأش ورفيقاه الى جانبيه ، وتطلع بهدوء وسكينة فى وجوه الجالسين ، فعرف مرقس ، وتأمل وجه أركاديوس فخيل اليه انه يعرفه ، ولكنه لم يذكر اين رآه . ولم يعجب من لقاء مرقس هناك لأنه كثيرا ما سمع بخروجه الى الاسكندرية ليتجسس للمقوقس

فصاح البطريق يطلب الترجمان قائلا : « اين الترجمان ؟ اين زياد العربى ؟ »

فدخل زياد ، فعرفه عمرو ، وكان قد عاد الى مولاه يحيى النحوى بايعاز من عمرو بعد فتح الحصن ، ليكون عينا له عند الحاجة ، فوجد الروم قد زادو فى اضطهاد يحيى حتى لم يعد يستطيع الظهور ، فاختبأ ، والروم يعتقدون انه فر من الاسكندرية . فتظاهر زياد بنصرة الروم ، وكانوا فى حاجة لمعرفة اللسان العربى ، فصار فى جملة المترجمين . ونظر زياد فى الجالسين فرأى اركاديوس ومرقس ، فتذكر ما مر بهم جميعا امام حصون بلبيس ، وان عمروا احسن اليهم جميعا

وخاطب البطريق الاسرى بلسان زياد قائلا : « ها انتم اولاء اسرى فى ايدينا ، فقولوا : ما الذى جاء بكم الى بلادنا وحملكم على قتالنا ؟ »

فأجابه عمرو بقلب لا يهاب الموت : « اتينا ندعوكم الى الاسلام فيكون لكم ما لنا ، أو ان تدفعوا الجزية عن يد وانتم صاغرون ، والا فلا مفر عن قتالكم ، فان الله يأمرنا بجهاد عدونا الا اذا اجبتمونا الى احد الامرين »

فلما فهم البطريق قوله عجب لأنفته وشهامته ، وقد كان يتوقع ان يراه يتذلل ويستعطف ، فارتاب فى امره ، والتفت الى اعضاء مجلسه ، فاذا هم فى مثل حاله ، فقال لهم باليونانية : « يظهر من انفة هذا الرجل وكبر نفسه انه من وجوه العرب ، وقد يكون من كبار قوادهم ، فلا بد لنا من قتله » . ودار الحديث بين القواد فى مثل هذا المعنى ، فخاف مرقس ان يقتل عمرو فيفشل جند العرب ويتغلب الروم ، فتعود العائدة على المقوقس وارمانوسة ، فمال الى انقاذ عمرو . اما اركاديوس فقد هم بأن يصرح بما يعلمه عن عمرو ، غير ان مرقس تقدم اليه وقال : « اذكر يا مولاى انه لولا هذا الرجل لكانت سيدتى ارمانوسة ترابا او فى قبضة يوقنا الخائن ، فلولاه لقبض عليها وسافر

بها الى القسطنطينية غنيمة باردة ، فانقذها منه وحفظ حياتها ، وأنا كنت الوسيط فى ذلك كما تعلم ، فهى مدينة له . افيليق بنا ان نساعد على قتله ؟ وهب انهم قتلوه ، فعند العرب كثيرون غيره » . فسكت اركاديوس ، ولكنه لم يستطع البقاء فى القاعة ، فخرج ، وظل مرقس وفى قلبه وجل على حياة عمرو . وأما زياد فكان ينظر الى عمرو بطرف خفى كأنه يلومه على مجازفته . وكان وردان يعلم اليونانية فلما فهم ما قاله البطريق أحب أن يفهمه عمرو فلم ير خيرا من أن يلكمه منتهرا ، فلكمه وصاح فيه : « مابالك تهذى يارجل؟ ومن أنت حتى تنسب الى سادتك ما قد نسبت ؟ ومن اقامك متكلما عنهم ؟ وما أدراك بأغراضهم ؟ ولست الا من صعاليكهم »

فسأل البطريق زيادا عما يقول وردان ، فترجمه للبطريق وفخمه وزاد فيه ما يرفع الشبهة عن عمرو ، فازداد البطريق تعجبا لصدور تلك الجراة من صعلوك ، فقال لوردان : « وما غرضكم الآن ؟ »

قال : « اعلم يا سيدى ان أميرنا اعزه الله اقرب الناس الى المسالمة ، ولكنه يود قبل النكوص ان يعقد مجلسا من كبار الجيشين يتفقون على شروط الهدنة فلذا اذنت برجوعنا اليه أخبرناه بما لقينا من حسن الوفادة وكرم الاخلاق »

فضحك البطريق وقال : « شروط الهدنة ؟ اى شروط تريدون ؟ سوف نعيدكم على أعقابكم القهقرى . قولوا لأميركم ان حامية الاسكندرية ليس فيها أحد من القبط ، وانما هى كلها من أبطال الروم ، وليعلم انه لولا خيانة المقوقس ما استطاع البقاء فى وادى النيل يوما واحدا ، وسيلقى ذلك الخائن منا ما يشيب لهوله الاطفال . ووالله ومريم العذراء لأجعلن لحمه ولحم أهله طعاما للأسماك . عودوا الى اميركم بذلك »

فهاج غضب عمرو لتلك اللهجة ، ولكن زيادا ووردان ومرقس كانوا ينظرون اليه خلسة يخففون عليه مخافة ان يصيبه الاذى ، فصمت ولم يجب ، واشار البطريق أن يخرجوهم ، فعادوا بهم الى باب المدينة واطلقوا سراحهم ، فنجوا

اما اركاديوس فقال لمرقس بعد خروج عمرو : « لقد ارتكبت عارا كبيرا يا مرقس لأنى كنت استطيع قتل امير العرب ولم افعل »

فقال مرقس : « كيف تقتله وكنت اسيرا عنده ولم يقتلك ؟ » . قال : « ولكنه لم يطلق سراحى »

قال : « الم يطلق سراح سيدتى ارمانوسة ؟ الم ينقذها من خيانة يوقنا اللعين ؟ الم يكن مجىء العرب الى هذه البلاد سببا لنجاتها من قسطنطين بن هرقل ؟ لاتندم يا سيدى على خير فعلته جزاء لخير نلته ، وزد على ذلك أن مثلك يفتخر بقتل الامراء فى ساحة الوغى وليس فى أغلال الحديد »

فافحم اركاديوس وسكت ، ثم تحول مرقس الى زياد فسلم عليه واطنب فى حسن ترجمته ، ثم ودع وانصرف . ولم يكن اركاديوس قد راى زيادا فى

الاسكندرية منــذ رجوعه اليها ، فلما لقيــه دعاه اليه وقال له : « عهدتك فى جند العرب ، فما الذى جاء بك ؟ » . قال : « عدت الى بلدى ، فقد كنت فى جند العرب لمهمة ورجعت » . فلم يشأ اركاديوس ان يطيــل الحديث لعلمه باطلاع زياد على كثير من سرائره فى حب ارمانوسة

وخرج عمرو من السور ومعه رفيقاه وكأنه فى حلم لايكاد يصدق انهم نجوا ثم التفت الى وردان وقال له : « الم تر يا وردان رجلا قبطيــا كنت اعهده فى خدمة المقوقس ، واخالنى رايته مرارا ؟ »

فقال وردان : « نعم رايته وعرفته فهو مرقس الذى جاءنا مع زياد العربى يوم وصلنا الى الفرما . ورأيت زيادا وهو يترجم كلامك للبطريق، لقد سررت والله بترجمتــه ، لأني رايته يترجم ويفسر على هوانا ، ولــكننى رايت رجــلا بالقرب من مرقس لا أظنك عرفتـــه ، أما انا فأرانى عرفته من قبــل ، ولعله الرجل الذى قبضنا عليه خارج بلبيس ولم نعرف حقيقته ، ثم فر منا أثناء الهجوم ، ويلوح لى انه من كبار القواد ، ويستدل على كبر نفســه من كتمانه أمرك ، ولاريب فى انه عرف انك الامير، وتلك مروءة اهل الوفاء » . ووصلوا الى المعسكر والجند يبحث عنهم ، فسروا بقدومهم ، فجلسوا يقصــون الخبر عليهم وهم فرحون

▭

وكان بعض اهالى الاسكندرية قد ملوا الحصار ، فأخذوا فى الفرار بالسفن والزوارق . ولم يكن اركاديوس غافلا عن حال الاسكندريين وضعفهم وخوفهم وهجرتهم ، ولــكنه بقى ثابت الجاش صابرا على اداء واجبــه ، مع علمه بأنه لايستطيع فرارا ، ولاهو يبغيه، لأن قلبه عالق بمصر، فقضى الشهر الاخير من الحصار فى قلق شديد ، يظل ليلته ساهرا يفكر فى حاله وحال الاسكندرية ، فاذا خيل اليه ان العرب فتحوها تحير فى أمره وعز عليه أن يقابل ارمانوسة مغلوبا على أمره ، كما يعز عليه أن يرى اباها وهو الذى خانهم ونصر عدوهم . وفى ليلة من الليالى المقمرة طال الليل على أركاديوس ، وعز نومه ، فخرج الى السور ، واتجه الى الشاطىء يصرف هواجسه بمنظره وباستنشاق نسائمه لعل النعاس يأتيه ، فمر فى الاسواق، واهلها نيام ، فلم يسمع غير نداء الحراس ينبه بعضهم بعضا بشعار الليل ، حتى انتهى الى الشاطىء فأحس برودة الهواء ، وتنسم رائحة البحر ، والتف بعباءته وجلس على صخرة ناتئة ، ونظر الى البحر ونور القمر ينعكس على سطحه فينكسر بتحرك الامواج وينتقل بريقه من موجة الى اخرى ، وحركة الموج تبدأ ضعيفة خافتة فاذا دنت من الشاطىء تعاظم صوتها وازبدت وتصاعدت منها فقاعات صغيرة تزداد بها رائحة البحر حرافة ، فاذا

لطمت الصخور عادت متقهقرة وقد تحول ارعادها الى دمدمة ، كجيش ضعيف هاجم جيشا قويا ، فلما دنا منه أطلق قنابله وكر راجعا وعدوه ثابت لا يكترث به . وقد سرى هذا عنه برهة ثم عادت اليه همومه ، وظل يفكر فى امره وفى الحرب وارمانوسة حتى شعر بالبرد القارس وبالنعاس فنهض وعاد يلتمس حجرته فوق السور

فلما وصل الى الحجرة وقف له الحراس فسلم وهم بالدخول ، فاقترب منه أحدهم فعلم انه يبغى امرا فوقف مصغيا ، فقال الحارس : « ان رجلا اظنه من اعيان الاسكندرية افتقدك ، وهو فى انتظارك »

قال : « واين هو ؟ » . قال : « هو فى غرفة الحراس » . قال : « ادعه »

ودخل حجرته وقد أضاءها بالشمع ، ولم يكد ينزع القباء والخوذة حتى عاد الحارس ومعه رجل قصير القامة نحيل الجسم متجعد الوجه طويل شعر اللحية عريضها وقد وخطها الشيب ، غائر العينين ، وعلى راسه قلنسوة العلماء وفى وجهه ملامح الرومانيين ، وتدل قيافته على الزهد والتقشف . فلما دخل تهيبه أركاديوس فوقف وتلقاه بالتحية ورحب به ، واجلسه ، وتأمل فى وجهه فلم يعرفه ، فعجب لقدومه اليه فى الليل ، واشتدت رغبته فى استطلاع حقيقة أمره ، ولبث برهة والرجل يردد أنفاسه يلتمس الراحة من تعب الطريق ، ويتهيأ للكلام ، ثم نظر الى وجه أركاديوس وقال : « الانت اركاديوس ابن الاعيرج ؟ » . قال : « نعم ، ومن أنت ؟ » . قال : « سوف تعلم ، ولكننى استحلفك بشرفك وبمن تحب أن تسمع حديثى الى آخره ، فاذا لم تر العمل به اطلقت سراحى فأعود من حيث اتيت ، فهل تعدنى بذلك ؟ » . قال أركاديوس : « فمن انت ؟ » . قال : « لاشك انك اذا عرفتنى استغربت جراتى فى القدوم اليك ، ولكننى جئت ناصحا ، فاذا لم تنتصح عدت وما على بأس »

فقال أركاديوس : « قل ما تريد . . ولكن ما اسمك ؟ » . قال : « قلت لك يا ولدى انى ساطلعك على اسمى ، وغاية ما ارجوه منك ان تجيبنى عن بعض الاسئلة قبل ان أبوح لك باسمى ، وانا على الحالين بين يديك » . قال : « اسأل »

فتنحنح الشيخ ومسح وجهه بيده الى اسفل لحيته ، وهو يتفرس فى أركاديوس ويبتسم ابتساما مقرونا بالحزن ، وقال : « ألست القائد أركاديوس بن الاعيرج قائد حامية الروم فى مصر ؟ » . قال : « قلت لك انى هو » . قال : « واين ابوك ؟ »

فزفر أركاديوس وقال : « ذهب الى القسطنطينية » . قال : « ولماذا ؟ »

قال : « لا ادرى ، ولعله ذهب اليها ليسأل عن سبب سقوط الحصن فى ايدى العرب وهو قائد حاميته »

قال : « وما ظنك بالاسكندرية ؟ »

فاطرق اركاديوس برهة يفكر ، وهو يحاذر ان يبوح بضعف امله لئلا يكون الرجل جاسوسا ، ثم قال : « لو اجتمعت قلوب القواد واتحدت كلمتهم وثبتت أقدامهم فانها تمتنع على جند العرب ، ولو كانوا الوف الالوف »

قال : « ذلك ما نشكو منه ، ولكنني اسالك عن رايك ؟ هل تقوى على دفع العرب ؟ » . فقال : « اظنها تقوى »

فقال الشيخ : « وما دليلك على ذلك وانت ترى الناس يهجرونها ؟ وقد تفرقت كلمتهم وضعف أمرهم ، وما ضعفهم الا من اختلال حكومتهم وانقسام حكامهم »

قال وقد تجاهل حقيقة الواقع : « واى انقسام تعنى ؟ »

قال : « أعنى الانقسام الذى وقع بعد وفاة الامبراطور هرقل فى هذه الاثناء وكثرة من ادعوا الحق فى الملك وقاموا يطالبون به ، فأفضى الامر الى قسطنطين ابن هرقل ، فقتلوه بالسم بعد مائة يوم ، سقته اياه مارتين امراة ابيه »

فلما سمع اركاديوس اسم قسطنطين ، وانه مات ، تذكر انه مناظره القديم على ارمانوسة . واتم الشيخ كلامه قائلا : « وعقد الملك بعده لهرقلينة ابنة مارتين هذه ، ولم تمض مدة حتى نصب قسطان بن قسطنطين ، وهم مع ذلك فى نزاع دائم فقد تولى كرسى القسطنطينية ثلاثة اباطرة فى وقت واحد . أليس ذلك مضعفا للعزيمة موهنا للقوى ؟ ما الذى ترجوه من جند هذه حال دولته ؟ كيف يثبت فى ساحة القتال ؟ وكيف يقاوم العدة والرجال ؟ ان الخلل تمكن من هذه الدولة حتى كاد يذهب بها . اقول ذلك والاسى ملء فؤادى لأني ولدت رومانيا ، والدم الرومانى فى عروقى ، والحمية الرومانية فى كل جوارحى ، ولكننى ارى المستقبل امامى راى العين ، وهذا شأن الدول منذ اول العمران . وهب ان الاسكندرية دافعت العرب ولم يفتحوها ، فهل يستطيعون اخراجهم من مصر والاقباط عون لهم ؟ »

وكان اركاديوس مطرقا يسمع حديث الشيخ ولا يرى ما يدفع به حجته، فلما وصل الى ذكر القبط خفق قلبه لتذكره ارمانوسة فقال : « لا تذكر القبط ، فانى لا احب ذكرهم ، لأنهم هم الذين اخرجوا البلاد من ايدينا الى أيدى العرب ، وهم الذين باعوا دولتهم ووطنهم للغرباء ، ولولا ذلك ما استطاع العرب سبيلا الى وادى النيل . تبا لك يا مرقس » . قال ذلك وحرق اسنانه

فتبسم الشيخ والتفت الى اركاديوس كانه يستمهله اتمام حديثه ثم قال : « نعم يا ولدى ، ان المقوقس خان دولته وسلم البلاد لعدوها ، ولكنك لو انصفته لالتمست له عذرا »

فقال : « واى عذر التمسه وقد خان البلاد خيانة صريحة ؟ »

قال : « انه خان البلاد ولكنه لم يبعها بثمن ، ان المقوقس خان دولة

الروم مضطرا وهو رومي الأصل مثلنا . فما الذى حمله على الخيانة ؟ أطمع فى مال أو سلطان ؟ أم رغبة فى التقرب من عظيم أو زعيم ؟ كلا ان المقوقس خان الروم فرارا من الظلم وتخلصا من جور دولتنا واستبداد حكامنا ، ما الذى ترجوه من حاكم يسمع كلامهم فى تحقيره بأذنه ، ويرى قومه يهانون وتهضم حقوقهم امام عينيه ؟ ويرى كنائسه تقفل وايقوناتها تكسر وبطاركتها ينفون ويقتلون ؟ وكهنتها يزجون فى السجون ؟ وما الذى ترجوه من طائفة ذاقت عذاب الموت وقاست الذل والخسف قرونا متوالية ؟ اترجو منها الاخلاص والطاعة؟ أم تخاف عصيانها وتمردها ؟ . فالقبط انما ابتاعوا حريتهم وراحتهم بتسهيل الفتح على الفاتحين . ونحن لا ننكر خيانتهم وانما أعقل الناس من عذر الناس . هب ان القبط حاربوا مع الروم فهل كنت تتوقع الفوز ؟ »

فرفع اركاديوس رأسه وقال : « نعم كنت ارجوه ولا اشك فيه »

قال : « اراك مخطئا ، وقد رايت ما حل بالشام وفلسطين والعراق من قبل . ان هؤلاء العرب تألفوا يدا واحدة على عمل ففازوا وفتحوا البلاد ، وأخرجوا الروم من الشام ، والفرس من العراق ، ولا ريب انها دولة أرسلها الله لاكتساح بقايا الدول الفاسدة من الروم والفرس ، فلا بد من فوزها ان عاجلا أو آجلا . فلا يلام القبط على استبدالهم بنير الرومانيين نير العرب وقد وقع الى أن جندكم لما دخلوا الحصن لحمايته ووصلوا الى كنيسة المعلقة أخرجوا راهباتها مهانات وهن مسيحيات وكسروا الأيقونات والكنيسة مسيحية مثل كنيستهم »

فخجل اركاديوس لأن رجاله هم الذين فعلوا ذلك ، ولكنه تجاهل وظل صامتا ، فأتم الشيخ كلامه فقال : « أتدرى ما فعل العرب عند دخولهم الحصن وقد فتحوه وحل لهم نهبه ؟ »

قال : « ماذا فعلوا ؟ »

قال : « دخلوا الكنيسة دخولهم معبدا من معابدهم ، فطمأنوا الراهبات وخففوا عنهن ، وأقروهن فى ديرهن ، وكن قد أخرجن منه يوم دخولكم . وزد على ذلك أنكم نفيتم بنيامين بطريرك القبط ، أما العرب فبعثوا يستقدمونه مكرما معززا . وان عجبت لشيء فاعجب لأنهم يرفقون بالحيوان فلا يمسونه بسوء ، فقد ترك أميرهم عمرو فسطاطه منصوبا بقرب الحصن لأن تقويضه يقضى على يمام عشش فيه . فهل يلام المقوقس لنفوره من الروم وميله الى العرب ؟ ما الذى يرجوه من هؤلاء الفاتحين لنفسه ؟ انه لا يرجو مالا ولا متاعا ولا جاها ولا شيئا آخر ، ولكنه سبق الى ذلك مكرها . قد يعد عمله خيانة ، ولكن فاعله لا يعد خائنا بل منتقما »

وكان الشيخ يتكلم وشفتاه ترتجفان ، ولحيته تنتفض ، وأنامله ترتعش ،

وقد اخذ منه الغضب كل ماخذ ، واركاديوس مطرق يصغى يفكر فى امر هذا الرجل . على انه أنزله من نفسه منزلة رفيعة لما سمعه من حديثه ، وعظم عليه حال الروم لعلمه ان كلام الشيخ حق لاريب فيه ، فنهض واخذ يمشي فى ارض الحجرة ذهابا وايابا صامتا يفكر ، والشيخ جالس كانه ينتظر ما يبدو من اركاديوس . فوقف أركاديوس وقال : « وما العمل يا مولاى ؟ »

قال الشيخ : « العمل الا تلقى بنفسك الى التهلكة بعد ان علمت ما علمته من ضعف الروم وفرارهم ، أما انت فكلنا يعرف فيك من عزة النفس والبسالة ما يجعلك بمنأى عن اساءة الظن بك ، فانت لاتفر من ساحة الحرب ولا تسلم للعدو سلاحك ، ولكن الرأى قبل شجاعة الشجعان »

قال : « وماذا افعل اذن ؟ » . قال : « أرى أن تتنحى عن الحرب الى مكان تأمن فيه على نفسك ، فاذا وضعت أوزارها بعث أمير العرب يستقدمك اليه معززا مكرما . فالاسكندرية مفتوحة لا محالة ، ولا يمضى يومان حتى تكون فى قبضة العرب عنوة » . قال ذلك وتأوه ، ثم عاد الى الحديث فقال : « تصور يابنى ان الاسكندرية ام العلوم ومحور التجارة ومثال العمران بما فيها من المدارس العالية والمكتبات الشهيرة والكنائس العظيمة والطرق العامرة والأحياء الآهلة والقصور الفخمة والحمامات الكثيرة والمصارف والحوانيت وغير ذلك . تصور انها ستصير كلها الى ايدى هؤلاء البدو الخارجين من بلاد قاحلة ليست بذى زرع »

فقال أركاديوس : « معاذ الله ان تصير اليهم » . فقال الشيخ : « هب انها لم تصر اليهم الآن فستصير اليهم غدا وعندها لايتيسر لك الفرار والاختباء »

فابتدره أركاديوس قائلا : « ولماذا التستر ؟ وما الفائدة من الحياة بعد الذل ؟ ان ذلك عار على الرجال » . فتبسم الشيخ وقال : « انك لا تزال فى ابان الشباب ، ويلوح لى أنك لا أهل لك ولا زوج يهمك أمرها . وهب أنك وحيد فى العالم لاتحب احدا ولايحبك احد ، فانى لا ارى فى اجتنابك هذه الحرب عارا ، انما العار ان تلقى بنفسك الى الموت . وفى الدنيا من يموت لموتك ويعيش لأجلك . عمن تدافع ؟ وماذا ترجو ؟ وقد قلت لك وانا شيخ عركنى الدهر وعركته ان دولة الروم لم يبق لها ظل على مصر والشام ، فقد خرجت البلدان من حوزتها لفسادها وانقسام رؤسائها فيما بينهم على خزعبلات دينية ما انزل الله بها من سلطان . ولم يكن هذا رأيى اليوم فقط بل هو قول قلته منذ اعوام ، فغضب على حكامنا واضطهدونى ونفونى »

فاشتاق اركاديوس الى معرفة الشيخ فقال : « الم يان لك ان تصرح لى باسمك ؟ » . فوقف الشيخ وقال : « لقد عاهدتنى عهدا صادقا الا تلحق بى سوءا ، والوعد على الحر دين ، فهل انت على وعدك ؟ »

قال : « قل ولا تخف ، فانك شيخ جليل ، لا بأس عليك »

قال : « انى يحيى النحوى »

فعرفه لأنه كان معروفا فى الاسكندرية ومعدودا من علمائها وقد اضطهده الروم لانه يعقوبى المذهب كالاقباط ، فازداد احترام أركاديوس له وتقديره

ونهض الشيخ وودع اركاديوس فاذن له ، واوصى بعض الحراس بان يوصله الى مأمنه ، وعاد الى حجرته وكلام الشيخ يقرع راسه ويرن فى اذنيه، ولا سيما ما ذكره له عن حياته واحبائه ، فهاج به الغرام فاقفل بابه وجلس الى نافذة تطل على ساحة وراء السور تنتهى الى معسكر العرب . فاخذ يفكر فى امر دولة الروم وخروج مصر والاسكندرية من يدها وتقلص ظلها عن مصر والشام ، وما هى فيه من الفوضى حتى حكم العقلاء بقرب انقضائها ، فأسف اسفا شديدا واشتد به الاسى . ثم تذكر ارمانوسة وانها زوجه ، وانه اذا أصابه سوء مسها هى الضر ، فوقع فى حيرة ، وآثر أن يحافظ على حياته ، لشعوره بعظم التبعة التى ألقاها عليه زواجه بها . ولكنه أستصعب ترك الاسكندرية والتقاعد عن الدفاع فقضى بقية ليله مترددا لايقر له قرار . وفى مساء اليوم التالى جاء مرقس ، فحالما رآه خفق قلبه وتذكر مجيئه اليه فى حصار الحصن ، فتوقع أن يسمع منه خبرا فلما دخل وحياه . قال أركاديوس : « ما وراءك ؟ » . قال : « ما ورائى الا الخير » . وسكت

قال : « ما بالك لا تتكلم ؟ قل ما وراءك ؟ انى اراك قلقا » . قال : « ليس ما يوجب القلق يا سيدى »

قال : « وهل من باس على أرمانوسة ؟ » . قال : « لا باس عليها ، ولكنى آنست منها اليوم شوقا عظيما اليك ، وقد مضى الصوم الكبير ، ونحن فى أسبوع الآلام ، وهى تصلى وتتضرع الى الله ان يحرسك ، فلما أصبحت اليوم وهو يوم خميس العهد افاقت مذعورة وفى نفسها شوق شديد لرؤيتك وتود أن تؤديا فريضة الصلاة غدا معا فى الكنيسة لانه يوم الجمعة الكبيرة »

فابتدره أركاديوس قائلا : « وأى كنيسة ؟» . قال : « كنيسة القديس بولس » . قال : « وأين هى ؟ » قال : « فى مريوط »

قال مغضبا : « أتريد منى يا مرقس ان اخرج من السور كما فعلت بى يوم حصار الحصن ؟ ذلك لا يكون ابدا »

فاجفل مرقس لما رأى من غضب أركاديوس ولم يبد جوابا

فاخذ اركاديوس يذرع الحجرة ذهابا وايابا والاستياء باد عليه ، ومرقس واقف ، وبعد برهة قال مرقس : « اياذن لى مولاى فى كلمة اقولها ؟ »

فوقف اركاديوس وقال : « قل يا مرقس ، واذكر انى ارتكبت فى خروجى من حصن بابل غلطا لا اريد ان ارتكبه هنا »

قال : « حاش لك يا مولاى أن ترتكب عارا ، ولكنني اذكرك بشخص عاهدت الله ان تحبه وتحافظ على حياته ، فاذا تذكرته فافعل ما يبدو لك »

فلما سمع اركاديوس ذلك التعنيف اللطيف اطرق برهة ثم قال : « تظنني ناسيا ارمانوسة أو انني اتخلى عنها ، ولكن الشرف والمروءة يا مرقس .. ولا اظن ارمانوسة نفسها ترضى ان يكون زوجها جبانا يفر من ساحة الوغى »

قال : « كيف يكون حالها اذا اصاب الاسكندرية سوء ؟ ولا اخفى عليك اننا نتوقع سقوطها قريبا ، لأن العرب يتهيأون للهجوم عليها ، والروم يفرون منها ، ولا انكر على سيدى البطل أن الشهامة تقتضيه الثبات الى آخر نسمة من حياته ، ولكن ارمانوسة .. أذكر ارمانوسة وما يحل بها »

فضاق اركاديوس ذرعا بالتردد ورفس الارض وعاد يذهب ويجيء ومرقس يتضرع الى الله ان يغير ما بقلبه ويلهمه ان يأتى معه

فعاد اركاديوس واشار الى سيفه وقال : « اتريد يا مرقس أن افر من الحصن ولا أستحيى من حسامى هذا ؟ كيف لا اخجل ؟ بل كيف لا أذوب خجلا اذا قيل انى فعلت ذلك وانا اركاديوس بن الاعيرج زوج ارمانوسة ؟ فاعلم انى اذا خرجت من هذا الحصن وسقطت الاسكندرية فى أثناء غيابى فانا مائت لامحالة . فدعنى ادافع عن دولتى ووطنى وشرفى ، فاذا عشت عشت شريفا ، واذا قتلت مت شريفا وفاخرت ارمانوسة بأن زوجها كان شهما مات فى سبيل الدفاع عن وطنه وشرفه . ذلك خير لها من الخجل كلما ذكرت الاسكندرية او دولة الروم »

فترقرقت الدموع فى عينى مرقس لعلمه بقرب الخطر ، وبأن العرب يهاجمون المدينة فى صباح الغد ، فلما رآه اركاديوس يبكى رق لغيرته وحنانه ، وتقدم منه فامسكه بيده وقال : « لماذا تبكى يا مرقس ؟ هل خفت على اركاديوس من الموت ؟ ليس الموت يا صاحبى بالامر الذى يخافه العاقل ، وانما خوف العاقل من العار . وانى وايم الله شاكر شعورك ومحبتك وغيرتك على وعلى ارمانوسة ، وان ذلك لمما يطمئن له قلبى فتكون لارمانوسة نعم العون اذا مسنى سوء » . قال ذلك وشرق بدموعه ، ثم تجلد ونأى بوجهه عن مرقس الى النافذة فاطل منها على معسكر العرب ، وكان البدر قدطلع فارسل أشعته على تلك الغياض ، واكثرها من النخيل الا سهلا رحبا عسكر العرب فيه ، فوقف اركاديوس برهة ينظر الى تلك الضاحية وهو لايرى شيئا لعظم قلقه واضطرابه ، ومرقس واقف يهجش فى البكاء ، فانتبه اركاديوس لصوت بكائه والتفت اليه وقال : « انك يا مرقس شديد الغيرة صادق الود ، وما انا بناس مودتك ماعشت ، واذا مت فاذهب الى ارمانوسة وخفف عنها ، واذكر لها ان اركاديوس ابى ان يكون جبانا لئلا يقال انه ليس اهلا لها . قم يامرقس واذهب

اليها الآن ، واحتفظ بها ، وما انت فى حاجة الى من يوصيك بأرمانوسة . وارجو ان اراكم ظافرا والا . . » . وسكت وأمال وجهه ، ومرقس لايزال يبكى . ثم مسح مرقس دموعه وتجلد وقال : « كيف اخرج من عندك وانا أرى الخطر قريبا ؟ أسأل الله ان يبعده عنك »

قال : « ان الاعمار بيد الله ، فرب رجل يموت فى ابان نعيمه وراحته ، وآخر يخوض المعامع ويستقبل النبال والرماح بصدره ويعمر طويلا . والعمر يا مرقس طال ام قصر لابد من انقضائه ، واما العار فانه باق لايمحى . وأرى الآن ان تذهب الى ارمانوسة ، وكن انت معها فى ساعة الرهبة ، وساعدانى بالصلاة ، وقل لها ان صليبها فى عنقى ، وهو يدفع عنى كل شر »

فعلم مرقس انه لامناص من رجوعه ، فتقدم من أركاديوس وهو يمسح دموعه وقال : « اما وقد أصررت على البقاء فانى أبوح لك بأن العرب سيهاجمون الاسكندرية غدا فى الصباح الباكر فكن على حذر » . قال ذلك وودعه وخرج كاسف البال حزينا لايدرى كيف يقابل ارمانوسة

وكانت ارمانوسة قد مكثت يوما كاملا بعد ذهاب مرقس وهى تنتظر عودته ، فلما انقضى بعض الليل ولم يأت، قلقت ، وكانت بربارة أشد قلقا منها لعلمها بعزم العرب على الهجوم فى صباح اليوم التالى كما أنبأها مرقس . فانتهزت فرصة وخرجت من الغرفة الى الحديقة لعلها ترى مرقس قادما . وما لبثت ان رأت شبحا عن بعد ، اخذ يقترب منها حتى تبينت انه هو مرقس فسارعت اليه، وخفق قلبها حين استقبلها باكيا ، وسألته : «ما الخبر؟ »

فأنبأها بما كان من أمره مع أركاديوس ، واصرار هذا على البقاء فى الإسكندرية ، فدقت يدا بيد ، وقالت : « الافضل الا تدخل على ارمانوسة الآن ، والا نطلعها على شىء من هذا حتى لايقتلها الحزن »

ولم تشرق الشمس حتى كان العرب قد اقتحموا أسوار الاسكندرية ، وجاءت رسل المقوقس الى ارمانوسة يبشرونها بذلك ، وليمكثوا عندها لحراستها حتى يلحق بهم اليها ، فاشتد بها الجزع على أركاديوس ، وأخذت فى البكاء والنحيب

فتح الاسكندرية

بقي اركاديوس بعد ذهاب مرقس وحيــــدا فى غرفتــــه ، وقد اخــذت الحمية منه مأخذا عظيما ، وصمم على الدفاع عن وطنه ودولته الى آخر نسمة من حياته ، فخرج لينبىء البطريق بما نواه العرب فى الصباح التالى ، فوصل الى قصره فلم يجده هناك ولم يهده أحد الى مقره ، فالح فى طلبه ، وارسل الرســل فى البحث عنه ، فلم يقفوا له على خبر ، فعرف من ذلك ، ومن قرائن أخرى ، انه فر من الاسكندرية لما رأى أهلها يفرون . فشق الأمر عليه وقال : « لقد صدق يحيى النحوى ، والله ان الدفاع عن هــذه الدولة حرام . ان الله قضى عليها فماذا يجدى الدفاع؟ » . وحدثته نفســه أن يخرج هو ايضا ، ولكنه خشى أن يقولوا عنــه كما قال هو عن البطريق ، فعاد الى حصنه وتهيأ للدفاع جهده ، وبات بقية ليلته على حذر

فلما طلع الفجر افاق واطل من مرامى السور ، فرأى المسلمين بفرقهم ورماحهم ونبالهم وتروسهم قد تفرقوا ، وأمامهم الفرســان يحملون الاعلام ويتأهبون للهجوم ، فأمر رجاله بالاستعداد والوقوف عند مراميهم ، ولبس درعه ولامته وتقلد حسامه وخنجره ، ووقف يرقب تقدمهم ، فرأى كل فرقة منهم قد سارت وعلمها أمامها الى ناحية من السور ، وظلت فرقة صغيرة متجهة نحو حصنه ، فأمر رجاله فرموها بالنبال فلم تجبهم ، وبقيت تتقدم حتى صارت على مقربة من السور ، وامامها بضعة فرسان بالدرق والسيوف . فلما دنوا من السور أمرهم لميرهم فتحولوا الى جانب من السور يبعد عن معقل اركاديوس ، واخــذوا يتسلقــونه متزاحمين كأنهم يتسابقون الى وليمة . فلما سمع اركاديوس صوت القائد تنسم منه صوت عمرو بن العاص فقال : « هذا قائدهم .. ها قد التقينا فى حومة الوغى ، وجاز لى قتاله كما قال مرقس ، وليس فى اغلال الحديد » . ولــكنه لم يتثبته لانه لم ير وجهه المغطى بالخوذة والدرع ، فاطــل من المرمى فلم يره . ولــكنه رأى العرب قد دخلوا المدينــة وعلا الصــياح فى أنحائها . ثم سمع ضجة فى معقله من الداخل فاستل حسامه ، وتحول نحو الصوت فلقيه بعض رجاله فانبأوه بدخول العرب المدينة وسقوطها فلم يبال . وظل سائرا حتى رأى اصحاب الصــيحة فاذا هم بعض العرب قد دخلوا معقله فصــاح فيهم والسيف مشهر فى يمينه : « اين هو اميركم ؟ فليبارزنى . انا اركاديوس

ابن الاعرج » . فما اتم كلامه حتى رأى بدويا مدرعا تقدم نحوه وسيفه مغمد ويداه فارغتان ، فنكس اركاديوس سيفه ، وقد عجب لذلك الرجل ، وما لبث أن جاء العربى وحسر الدرع عن وجهه ، فاذا هو عمرو بن العاص يبتسم، فاستغرب اركاديوس مجيئه فى تلك الحال ، وقال له : « جرد حسامك وعليك بالبراز » . فلم يفهم عمرو ، وكلمه بالعربية فلم يفهم اركاديوس وان تبين من ملامح وجهه انه جاء مسالما لا محاربا . والتفت عمرو خلفه فاذا بزياد قد دخل ومعه مرقس ، فخاطب عمرو أركاديوس بوساطة زياد قائلا : « انى لم آت لأقاتل أركاديوس البطل الشهير . ان مثلك لا يقاتل . وقد جئتك وسيفى مغمد لعلمى أن الخيانة ليست من شيمتك »

فعجب أركاديوس من مروءته وقال : «لماذا لم تأتنى محاربا هيا نتبارز ؟»

قال : « لأنى أشعر بجميل لك على يوم ضمنا واياك مجلس البطريق ، واختلفوا فى أمرى ، وكنت عالما بى فأغضيت . وهو جميل ذكرته لك ، وما زلت أتوقع أن أكافئك عليه ، فأنت صاحب الفضل السابق »

وكان أركاديوس كثيرا ما سمع بوفاء العرب وكرم أخلاقهم ، فلما اختبر ذلك بنفسه ، نظر الى مرقس فاذا هو واقف مع زياد ، وكل منهما ينظر اليه ويبتسم سرورا بنجاته من الموت . فأدرك أركاديوس ان ذلك كله انما كان بمساعى مرقس ، فوقف يتردد بين الفرح بالنجاة شريفا عزيزا وبين الحزن لسقوط الاسكندرية ودخولها فى حوزة المسلمين . اما عمرو فهم بأركاديوس وصافحه قائلا : « ها انذا أصافحك وأؤاخيك منذ الآن ، واعلم انك صديقنا ولا تحسبنا اخذناك فى الحرب ، فاننا جئناك زائرين لنشكرك على جميل سبق لك علينا ، وها انذا تارك عند معقلك جنودا يمنعون رجالنا من دخوله »

فازداد أركاديوس اعجابا بتلك المروءة وقال : « بورك فيك من شهم ، فأوصيك بالاسكندريين خيرا . لا تدع رجالك يفتكون بهم . فقد كفاهم الأسر »

فلما خلا اركاديوس بمرقس قال : « ماذا فعلت يا مرقس ؟ وكيف حال ارمانوسة ؟ »

فهم مرقس بيده يقبلها ويقبل الارض كأنه لا يصدق نجاته من الموت ، وقال : « الحمد لله على سلامتك يا سيدى ، ها قد رأيت ما تشتهيه نفسى ، ولا فضل لى فى ذلك ، لأن عمروا شعر بفضلك عليه فعزم على أن يوافيك وها قد نجوت من الخطر شريفا بعد ان طلبته للمبارزة فلم يبارزك . اما ارمانوسة فانها فى قلق عظيم ، ولا ادرى ما حل بها ، فأذن لى بالذهاب اليها لأبشرها بسلامتك ، وأعود اليك فنسير معا اليها »

قال ذلك وخرج ، وبقى أركاديوس وزياد ، فدخلا الحجرة فقال اركاديوس:

« ما علاقتك يا زياد بالعرب والروم ؟ »

قال : « انی خادم يحيى النحوى ، ولكننى فى الأصل صديق عمرو ، وكنا نرعى الابل معا فى الجاهلية ، ثم افترقنا ، فأقمت انا فى الاسكندرية ، ودخل هو فى الاسلام وصار من أمراء المسلمين ، ولكننى اعرفه شهما غيورا ، فلما وقع فى الأسر ، أحضروه الى فى مجلس البطريق ، وكنت حاضرا ، فعرفك وخاف أن تذيع أمره ، فلما رأى منك الكتمان عد ذلك فضلا لك عليه ، وود انقاذك . وقد كنا امس عنده فى المعسكر ، فجاءه مرقس بعد نصف الليل ، فسأله هو عنك وعن معقلك حتى يحميه ، فأخبره . وجئنا فى هذا الصباح معه كما رأيت »

فقال أركاديوس : « وأين سيدك يحيى ؟ » . قال : « مختبىء فى مأمن »

فقال اركاديوس فى نفسه : « هذا هو الفساد وهذه هى الفوضى ، وكيف يفوز قوم فى حرب وقوادهم منقسمون ، وعلماؤهم ناقمون ؟ انا لله وانا اليه راجعون » . وعاد اليه رأيه فى معاشرة المقوقس ، ولكنه اصبح أكثر تسامحا

وبعد بضع ساعات عاد عمرو ومرقس ، فقال عمرو لأركاديوس : « اذا شئت الخروج الى اهلك فاننا مشيعوك الى حيث تشاء » . فعجب أركاديوس لعلم عمرو بعلاقته بأرمانوسة . ولحظ عمرو ذلك فقال : « لا تعجب ، فقد علمت خبرك مع ارمانوسة ، ويسرنى أن اراكما الآن فى وئام ، ولا تظلم حال المقوقس ، فانه معذور ، واذا أردت الخروج الى عروسك فذلك اليك » .

فسأل اركاديوس زيادا : « هل تعرف مقر يحيى النحوى ؟ » . قال : « نعم » فركبا وسارا . فلما اطلا على مريوط ، وأشرفا على بيت الشيخ حيث تقيم ارمانوسة خفق قلب اركاديوس ، فلقيهم مرقس فجرى ليبشر أرمانوسة .

ولما دخل أركاديوس القاعة لقى فيها جمهورا من الرجال ، وفى صدرها يحيى النحوى ، وبجانبه المقوقس . فلما رآهما اضطرب وتردد ، فنهض يحيى اليه وقبله وامسكه بيده وقدمه الى المقوقس ، فوقف المقوقس وضم اركاديوس الى صدره وقبله قبلة الأب لابنه ، فخجل أركاديوس وشعر بزوال حقده على حميه ، وهم به فقبل يده وجلس الى يمينه ويحيى بين أيديهما

فقال يحيى : « لا تعجب يابنى من اجتماعنا فى منزل ارمانوسة ، فاننا عالمون بما فى نفسك على حميك ، وما كان فى نفسه هو على جماعة الروم ، وكلاكما معذور . وقد علمنا بما عقده الله بينك وبين ارمانوسة من الروابط

المقدسة فاردنا التوسط بينك وبين حيك ليفهم كل منكما الآخر ، فانت الآن بمنزلة ابنه وهو بمنزلة ابيك »

فقال المقوقس : « يعلم الله يا ولدى اننى اطلت البال ، وصبرت صبر الرجال ، وانا رومى الأصل مثلك ، ولكننى رايت ذل القبط فاغثتهم فلم تصغ الدولة لصراخنا ولا سمعت بكاءنا ، وهذا أخى يحيى العالم شاهد على ما اقول . أما انت فما برحت منذ عرفتك اشهد بشهامتك ومروءتك لأنك لم تات عملا تلام عليه »

فقال اركاديوس ، وقد صفا قلبه : « نعم يا عماه انى مثل ولدك ، ويكفيك شفيعا عندى أنك والد ارمانوسة ، وانا وهى الآن واحد »

فقال مرقس : « ما بالكم حجبتم ارمانوسة عنه وحجبتموه عنها ؟ »

ولم يتم كلامه حتى دخلت بربارة وهمت بيدى أركاديوس تقبلهما ، ودخلت أرمانوسة على استحياء وعيناها ذابلتان لما قاسته فى صباح ذلك اليوم ، ولم تستطع اظهار عواطفها ، فسلمت فنهض يحيى وامسك بيد اركاديوس وامسك المقوقس بيد ارمانوسة وجعلا يد كل من العروسين بيد الآخر وقال يحيى : « ما جمعه الله لايفرقه انسان »

وفى صباح الغد هنأهم عمرو بن العاص ، وخير اركاديوس بين الاقامة فى الاسكندرية او باى مدينة اخرى ، فاستمهله حتى يكتب الى أبيه . فكتب اليه مع رسول انفذه الى القسطنطينية ، فعاد الرسول بنبأ موت أبيه فى السجن ظلما بلا محاكمة . فبكاه وكره القسطنطينية واهلها وفضل البقاء بالاسكندرية

وكان عمرو قد كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية ، وسأل عن المكان الذى يقيم به ، فكتب اليه : « انى لا احب ان تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولاصيفا ، فمتى أردت القدوم اليكم فانى أركب راحلتى حتى أقدم اليكم »

وكان بين الاسكندرية والحجاز نهر النيل ، فانتقل عمرو الى حصن بابل ، وكان الفسطاط الذى تركه هناك لايزال باقيا وقد عشش فيه اليمام ، فخيم حوله ونصب الاعلام وبنى هناك مدينة سماها الفسطاط ، وهي أول عاصمة للمسلمين فى مصر . أما أركاديوس فاختار الاقامة بالاسكندرية ، وعاش مع عروسه فى رغد ، ومعهما بربارة ومرقس واهله

روايات تاريخ الإسلام

أدبية

صدر منها :

- فتاة القيروان
- الأمين والمأمون
- غادة كربلاء
- المملوك الشارد
- عروس فرغانة
- عبد الرحمن الناصر
- عذراء قريش
- فتح الأندلس
- أرمانوسة المصرية
- جهاد المحبين
- صلاح الدين الأيوبي
- الانقلاب العثماني
- العباسة أخت الرشيد
- استبداد المماليك
- أبو مسلم الخرساني
- شجرة الدر
- شارل وعبد الرحمن
- أحمد بن طولون
- فتاة غسان
- أسير المتمهدي
- الحجاج بن يوسف
- ١٧ رمضان